استفتاء المعرفة

كيف نكتب تاريخنا القومي..؟

فيما يلي الحلقة الاولى من استفتاء (المعرفة) حول موضوع (اعادة كتابة التاريخ القومي العربي). وهو الموضوع الذي طالما شعر به المثقفون العرب، على انه ضرورة قومية ملحة، عسى ان يكون سهم المعرفة في اثارته مجدياً، وباعثاً الى خطوة جديدة في تقدير القضية والاهتمام بها.

في هذه الحلقة ستة اجوبة على الاستفتاء. يليها في الاعداد القادمة من (المعرفة)، بقية الاجوبة وردود المناقشة العامة.

طرح الموضوع

١ – يميل بعض دارسي أحوال الشعوب الجديدة في (العالم الثالث) الى التأكيد حينا أو الظن حينا آخر بأن ماضي بعض تلك الشعوب عبء على حاضرها ومستقبلها معاً، وأن حركة الذين لاامجاد لهم في التاريخ، اكثر ديناميةً،وأسرع عطاء وجداء، من حركة المبهوظين بامجادهم وما خلفته من قوانين بشرية وتقاليد

صارمة ورعايات لأولويات وبديهيات لامفر من الرضوخ لها ، وتحمل فروضهـا .
فالقوم الذين لالغة لهم ، او كل قبيلة منهم بلغة ـ مثلاً ـ يستطيعون الانصراف عن لغتهم او لغاتهم الى لغة عالية كالفرنسية أو الانكليزية ، يدخلون بها العالم الكبير ، بلا عبء ، ولا مركب عبء . ولعل الاستاذ المستشرق جاك بيرك ، من هذا الفريق من فلاسفة التاريخ الذين يميلون الى الظن مثلاً بأن اللغة العربية العريقة ، بدلاً من أن تكون حافز رقي ونهضة قد تقف في وجه التقدم ، أو هي عبء يبهظ حركة التقدم ! وثمة من يقارنون بين سرعة النهوض وتلكؤه بين اوروبة العتيقة ، وامريكا الجديدة ، ويهنئون الاقوام التي ليس لها تاريخ . اذ ليس مايبهظها هو عبء ماضيها فحسب ، بل مركب غرورها ايضاً حتى لتبدو احياناً مضحكة في حركة التشاد والتناقض بين كبريائها وعجزها .

٢ ـ ومع ذلك ، فمن اعظم انتصارات العلم في مئة السنة الأخيرة ، كشوف الباحثين في اغوار الماضي السحيق ، تعززت مغامراتهم أدوات من علم الآثار ، وعلم الكتابات القديمة ، وعلم السلالات وأصول الشعوب ، بالاضافة الى معارف العلوم الأخرى التي وسعت نطاق (العلوم الانسانية) واهمها علم التاريخ ، عندما شددت على جعل الانسان موضوعها الكبير ، وهدفهـا النهائي . اذ لاجدوى من علم أو معرفة ، لاتقدم كثيراً أو قليلا في معرفة الانسان ، الذي خلق كل شيء حوله من اجله وحده ! وبهذا اكتسب علم التاريخ أو فلسفة التاريخ اهمية خاصة خلال القرن الأخير ، بين شتى العلوم المادية والحيوية ، والنفسية . وانصرف لعلمه ، وفلسفته مؤرخون ، وعلماء ، وفلاسفة ، وسياسيون وقادة شعوب ، يمتحون بها مادة التاريخ من أقصى الأغوار ليضعوا من نماذجها وطرائقها في احدث بنيـاتهم ومؤسساتهم ومستحدثاتهم ، أو ليبرروا بها ، فكرة أو مبدأ ، او سياسة او عقيدة

عندما بلغت بهم المعرفة الواسعة العميقة لأسرار حركة التاريخ الكوني ،مايتيح لهم أن يطلقوا النظريات ويجيز لهم التصنيف ، والتحديد والتعميم في تحليل حركة التاريخ ، ورسم صور واقعة أو متخيلة، لأهدافها ومعانيها !! حتى لقد صار رصد المستقبل ، جزءاً لايتجزأ من عملية رصد التاريخ . وبلغ الغلوّ أوجّه ..

٣ — ومنها اختلفت المذاهب والطرائق في تحليل التاريخ وتأويله فالتعميم في فهم حركته ومنحها معنى معيناً محدوداً ، على أسس مادية أو روحية ، تفاؤلاً أم تشاؤماً ، يقيناً بوعي التاريخ وسيره الغائي ، أم يقيناً بلا وعيه وتخبطه الأعمى. فمن المقرر أن تزاحم التناقضات حول محاولة فهم التاريخ وتقرير سلوكه ، قد قدح الشرر فوق الكثير من مطموراته . ومن المؤكد اننا اليوم نفهم تاريخنا أكثر مما فهمه الطبري وابن خلدون ، بل إن المثقف العادي يستطيع اليوم أن يكتشف أخطاءها، أو يتحسس قصورها في عصرها ومرروياتهما وحللاها حللا ..

كذلك من المقرر المسلم به ، برغم اختلاف مذاهب النظر والتفسير في فهم التاريخ ، أن دراسة التاريخ ليست مجرد فضول علمي ولا مجرد اسلوب من اساليب التسلح بمادة ما ، للدفاع عن فكرة او فلسفة او عقيدة ، ولو كره العلم. انها أكثر من ذلك وأعمق ، لأنها مصدر التجربة الوحيد الذي يتعلم به قوم من الأقوام . انها ينبوع مصالحه ، ومطالبه ، وحقوقه وواجباته ، وتكوين ملامح هويته . بل التاريخ يلاحقنا ويلازمنا بلا انقطاع ، حتى ان كل دقيقة تمر من عمر الانسان تصبح تاريخاً في حياته ، إن يجهلها يجهل نفسه وينكر وجوده .

وغير صحيح ان التاريخ حدث مكرور ، بعيد ذاته ، بمعنى أنه استمرار للولادة والموت ، والحب والبغض ، والخوف والانتقام . الخ ... بل التاريخ مقروناً بالانسان ، ليس سوى سيرة تفوقه على طبيعته لتبديلها ، بينما ان تاريخ

الحيوان وحده ، هو التاريخ المكرور . ليس في حياة الفيل والأسد والثعلب من جديد منذ ألوف السنين . ولكن الجديد كل الجديد في تاريخ حياة الانسان الذي رفض العبودية للطبيعة ، وينشد حريته ككائن متميز وكمخلوق تستثنيه مشيئة الخضوع . وهو ان لم يزل عاجزاً أمام الطبيعة برغم كل جليل من انتصاراته عليها ، فيكفيه أنه ذلك التوازن العجيب بين قسوة الطبيعة وحرية الارادة .

وحرية الارادة الانسانية ، مهما بلغت منها العوامل المادية ، أو العوامل البيولوجية ، تبقى تعبيراً عن جوهر العقل في الانسان ، عن جوهر العقل والقلب مجتمعين ، عن أفكاره ومُثُله معاً .

٤ — ليس من مبرر أن يجهل الانسان تاريخه او يتخفف منه ، تحت أي عذر واي حجة واي منطق .

ان القول ـ مثلاً ـ بأن التاريخ عبء ، صحيح . والأصح منه القول بأن الانسان ، يرىء كتفاه هكذا الأعباء ، وقد منحه القرآن الكريم أجمل سماته وصفاته عندما قال فيه ابلغ القول : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان . . .

والقول مثلاً بأن الذين ينظرون الى الماضي يفوتهم النظر الى المستقبل ـ قول قد يصح في الانسان عندما تنعدم فيه ارادة البقاء ، فيلجأ الى الماضي ليتقوقع ، ويختبىء في ظلاله ، هرباً من النور . وانها لحالة مرضية ، ليست الا من اعراض الضمور والافول .

أما الذين يؤلف تاريخهم جزءاً جوهرياً من وعيهم بوجودهم ، فلاخوف عليهم من ان يطمرهم التاريخ . والتأريخ لديهم ، علم ، وكشف ، وفتح ، وإشراق .

والقول مثلاً ـ بأن معرفة الانسان لتجارب ماضيه ، لا تجنبه عثراته ـ

قول قد يصح ايراده عندما نقول أن هتلر أمام لننغراد قد كرر نابليون امام موسكو بكل غباء وجنون . ولكن لا يصح مثل هـذا القول عندما نحلل حركة التقدم الانساني ، منذ تفجير النــــار من حك حطبة بحطبة الى تفجير الذرة ، وتسيير الصاروخ ، فلا نرى سوى تعاقب التجارب ، وتلاقحها ، وسوى تعايش الاقتداء والنقد جنباً الى جنب في تطوير التجربة البشرية وتصحيحها وتثميرها . فالعلوم والآداب والفنون ، في كل ما تبدعه ، وتجدده ، وتوسع به آفاق المعرفة ، والخبرة وتهذب المشاعر والأذواق ، وترق الثقافة في شرايين الحضارة لتزدهر وتتسع وتشمل ـ ليست سوى تلاقح تجارب ، وتقابس آراء وافكار ، تقبلتها وتمثلتها بالاقتـداء او النقد أو بها معاً ، حتى لتبدو الحركة البشرية منذ ازلهـا بتاريـخ العلم والأدب والفن ، حركة متسامية متصاعدة ، متـكاملة ــ ديالكتيكية بالاصطلاح الهيغـلي الماركسي ــ جزيلة الجمال والخير والوعود .

ولكن تاريـخ الانسان عسكريا وسياسيا يبدو لنا احيانا وكأنه تخبط أعمى ، لاتجدي فيه تجربة اثر تجربة ، مهما كان مبلغ الانسان من الذكاء والقدرة . ومن المؤكد أن بعض الظروف التاريخية ، اذا التقت بحالات نفسية معينة ، وخضعت لعرضات خارجية متماثلة ، لاتلبث أن تخرج لنا نماذج متشابهة في بعض حركاتها ، كتشابه هتلر ونابليون . وليس في ذلك مايبرر الحكم بأن معرفة التاريـخ لاتجنب الوقوع في محاذيره . اذ ليس بمجرد المعرفة ، تتم العبرة . وليس لنا أن نحمل معرفة التاريـخ من تبعات فوق مايمكن أن تتحمل السوية الانسانية ، هذا من جهـة . ومن جهــــة ثانية فان تركيب التاريـخ من احداثه الضخمة ، من عسكرية اوسياسية ليس سوى جانب واحد من جوانب التاريـخ . اذ كثيراً ماتكون الطينة الـتي تشد حجراً الى حجر ، اهم من الحجر نفسه ، مهما كان ضخماً في البنية التاريخية .

يبقى القول أن كمية المعرفة ونوعها، يحددان الى درجة بعيدة وعينا التاريخ ونفعنا منه في حاضرنا ومستقبلنا، بل ليست كمية المعارف هي التي تحدد الوعي، بل ماذا نفهم منها، على الأرجح. وهكذا تكون دراسة التاريخ، هي عملية اختيار الحدث، وتفسيره، وتقييمه، بقصد الاجابة دائما على سؤال: كيف، وماذا، ولماذا ..؟ بحيث تتحول المعرفة الأجود، الى الوعي الأوسع. ان جهلنا التاريخ ليس يضيرنا، بقدر مايضيرنا وعينا الناقص له.

٥ — لقد غدا تاريخنا، لدى الباحثين، مادة اساسية في دراسة تاريخ العالم وحياة الانسان وتطور الحضارات. وأظن أن لاهتمام المستشرقين الاوروبيين المتزايد بتاريخنا، ثلاثة اسباب: أولها معرفة وجه ذلك العدو العريق الذي نشر رواقه فوق اوروبة، وشغل ملوكها وقديسيها قروناً: وبدا ذات يوم انه الخطر الوحيد الذي يهدد الدول المقدسة — والانشغال بالعدو التاريخي، يملأ ابداً ثقافات الشعوب.

وثاني هذه الاسباب ان عناية التاريخ بالانسان، وبالحضارة، وبمستقبل النوع البشري وهي عناوين ضخمة وقيم رفيعة، أدت بكل باحث ومحلل، وفيلسوف وعالم، الى الوقوف وقفة حتمية، أمام ذلك التاريخ الحافل الذي شغل من عمر الزمن مايزيد عن ستة قرون، ومن مساحة الأرض ماأحاط بثلاث قارات شرقاً وغرباً.

وأن ثقافة أهل الغرب، بعد أن حاولت قروناً أن تحجب العرب والاسلام عن تيارات التفاعل الحضاري، أدركت اي توهين أصابها من اهمال هذه الحقبة الحافلة من الزمن وهذه البقعة الغنية من الارض. لذلك يبدو في آثار بعض المستشرقين، تبكيت يرافقه تعويض، وتمجيد لحضارة ساهمت في تكوين المصير الانساني.

وقالت الأسباب ، هــــو الفضول العلمي والطموح الفردي الى الكشف ، والاستمتاع بلذة الغوص في المجهول . ومن هذا الفريق من المستشرقين من أخرج من أقبيتنا روائع نادرة ، وقال فينا حقائق جارحة ، في الوقت نفسه .

وسواء أكان باحث تراثنا من هذا النوع أو ذاك من الباحثين ، وسواء أقال الحق من اجل الحق ، أم أراد به باطلا ، فلنا ان نسلم بأن قد اكتشفنا في آثارهم عنا ، كثيراً مما كنا نجهله ، حتى ليغدو قدحهم فينا ، اكثر تعليما لنـا من اطرائهم .

ولو اننا وعينا مسؤوليتنا ، بقدر ماوعوا تاريخنا أصدقاء أم اعداء ، لكنا في مقام رفيع من الوعي الثقافي والقومي .

٦ — ان الدعوة الى اعادة كتابة التاريخ ، لاتعني تزوير التاريخ . والخروج بمؤلفيه عن الموضوعية العلمية ، او الحد الادنى منها — لأن الموضوعية نسبية بين أيدي مؤلفي تاريخ أقوامهم — ان الدعوة ، كما نتمثلها هي في المقام الاول دعوة الى اختيار الحدث الملائم لخصائص البنية التاريخية . ولعل حسن الاختيار ، أساس الموضوعية والنصفة العلمية وتفهم روح القوم الذين يؤرخ لهم . وكثيراً ماكان الاختيـار الـذي لدى مؤرخينا ورواتنا القدامى والمحدثين ، مقصوداً به خدمة غرض قبلي او مذهبي ، أو لاقومي ، تضليلا للحق والعلم — برغم صحة الحدث من حيث حدوثه — .

حتى اذا حسن الاختيار ، دون تزوير او افتعال ، صح بالتالي تحليل الحدث وربطه بسواه من الاحداث ، وبما حوله من ظروف زمانية ومكانية ، بحيث يغدو من الممكن في الخطوة التي تلي تقييم الحدث ووضعه موضعه في سلم الاعتبار المادي أو الروحي من حياة القوم وحركة تاريخهم .

٧ — وأخيراً فان القضية مطروحة منذ زمن غير بعيد — كيف نكتب تاريخنا القومي من جديد ؟! — وليست (المعرفة) اول من يطرحها، لقد طرحها أفراد ، ومجالس ، ومؤتمرات . وبرغم ذلك فقد كان طرحها ، لايعدو حدود مشكلة ذهنية جيل بالمثقف أن يكتبها ويعالجها . ولم تخرج الى ميدان قضية عامة ، تحاط برعاية عامة .

بل قد تكون (المعرفة) قد تفردت بأن جمعت للقضية ، عدد امن الأقلام التي سبق أن عالجتها او كتبت فيها، على صعيد قومي، او ثقافي عام، عسى أن تستطيع تجميعها بعد توفير اكبر عدد من الآراء حولها، واخراجها في سلسلة (كتب قومية) التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي.

وشكرا لاقبال الاساتذة المستفتين على الموضوع، وتحبيذهم إثارته وعرضه ، والدعوة اليه . وليسمحوا لنا أن نفتتح الحلقة الأولى من هذا الاستفتاء ببعض الأجوبة الى جانب طرح القضية للمناقشة العامة .(*)

رئيس التحرير

(*) نلفت الانتباه الى أن (المعرفة) فتحت المجال — كما هو واضح — للآراء على مختلف اتجاهاتها ، رغبة في تنوير الموضوع وطرحه بكل مشكلاته . مع الملاحظة دائماً أن كل صاحب رأي مسؤول عن رأيه . وان الوزارة ومجلتها لاتوافقان على جميع ماورد من آراء وافكار في الاجوبة المنشورة .

الأستاذ سليمان الخش

س ١ – ما رأيكم في المصادر المتوفرة حالياً عن التاريخ العربي ؟.

للاجابة عن سؤالكم هذا ، أود أن أتقدم للقراء بالمدلول الذي تعنيه عبارة « التاريخ العربي » . عندي وعند الكثيرين من أبناء العروبة ، ذلك المدلول الذي يساعدني في الاجابة ، ويضع خطاً واضحاً بين إدراكنا للتاريخ العربي وبين إدراك غيرنا له ...

فالتاريخ العربي ، عند غيرنا ، هو تاريخ الأمة العربية ، الناطقة بلغة الضاد ، أو بلسان قريش ، والممتد من القرن الأول أو القرنين الأولين اللذين سبقا الاسلام ، حتى عصرنا هذا . وهو عند هؤلاء تاريخ سبأ وحمير والمناذرة والغساسنة ، ثم تاريخ الدول الاسلامية المتعاقبة ..

وهذه الحقبة من تاريخ العرب ، هي عندنا جزء من تاريخ الأمة العربية ، وليست كله ، **فتاريخ العروبة عندنا يمتد ضمن الاطار الحضاري الذي استقر فوق الرافدين وسواحل بلاد الشام وسهولها ، وسهول وادي النيل ، وسهول اليمن وجبالها ، وسواحل بلاد المغرب وسهولها** ، وهو تاريخ مترام في القدم ، سابق للزمن الذي اخترعت فيه « الابجدية » ووجد فيه « الصفر » ، ويمتد منذ أكثر من خمسة آلاف عام قبل السيد ، حتى يومنا هذا ..

هذا التاريخ في نظرنا هو تاريخ الأمة العربية ، ذلك لأنه تاريخ أقوام وشعوب تحدّروا من الأصل نفسه الذي تحدّر منه عرب الجزيرة العربية الذين حملوا رسالة الاسلام ، وتكلموا لغات مشتقة من المصدر نفسه الذي اشتقت منه لغة قريش ، التي نكتب نحن بها الآن ، وكانت لهم — عبر التاريخ الانساني — الخصائص الحضارية نفسها التي كانت للأمة التي نزحت بعد الاسلام من جزيرة العرب منتشرة في وادي الرافدين ووادي النيل وبطاح الشام والمغرب ، كما أن تلك الأقوام والشعوب ماتزال تعيش فينا — نحن أبناء القرن العشرين — عادات وتقاليد وأخلاقاً ومثلاً عليا ، ونظرة صميمة للحياة .

لذلك فاننا عندما نتحدث عنها ممثلة للتاريخ العربي ، إنما نتحدث عن العروبة بمفهومها الجنسي ، لا بمفهومها اللغوي الفرعي ، فالعروبة عندنا جنس من البشر ، سكنت أرضاً محددة ، وتركت إرثاً حضارياً مميزاً ، وتخاطبت بألسنة متقاربة اللهجات ، مشتقة من مصدر واحد ، كان من أضخمها وأشملها اللسان القرشي الذي نزل به القرآن الكريم ، وحمله الفاتحون العرب المسلمون الى إخوانهم من كلدانيين وآشوريين وبابليين وأقباط وبربر ، فسودوه على اللهجات والألسنة المحلية ، وكانت له الغلبة اللغوية منذ القرن السابع الميلادي حتى يومنا هذا ...

بعد ماتقدم ، من تعريف للتاريخ العربي ، أستطيع أن أقول : إن **المصادر المتوفرة عن التاريخ العربي جمة ومتنوعة ..**

فالحفريات التي قامت منذ مطالع هذا القرن ، قد كشفت الكثير من جوانب التاريخ العربي ، سواء أكان ذلك في وادي النيل ، أم في وادي الرافدين ، أم في سواحل بلاد الشام ، أم في سواحل بلاد المغرب . ولقد قام الكثيرون من علماء الآثار بتدوين ملاحظاتهم حول ما اكتشفوه ، كما قام العلماء المؤرخون

بكتابات وافرة جداً عن تاريخ العرب في تلك الحقب السحيقة التي سبقت تاريخ الاسلام.

وبفضل علماء الآثار والمؤرخين المحدثين، أصبحنا نعرف الكثير عن تاريخ بحفيس وطيبة والاهرامات وبابل ونينوى وماري وأوغاريت وعموريت وغيرها من الحضارات العربية الدارسة، وأصبح لدينا بعض العلم بكثير مما نجهله عن قرطاجنة وسد ودمأرب وغيرها من بقاع العروبة المندثرة الحضارة.

وماتبش عنه الأثريون من مخلفات تلك الحضارة، جزء يسير مماستفاجئنا به الأيام، عندما يتوفر للوطن العربي المال الكافي، والخبراء العرب المنقبون، الذين تنتظرهم مهمات كثيرة فوق تربة الوطن العربي، لتوضيح كثير من جوانب الحياة العربية التي عفّى عليها الزمن.

هذا فيما يتعلق بتاريخ العرب القديم، أما تاريخهم الذي كتب بلغـــة قريش والذي أعقب الاسلام، فان المؤلفات فيه أكثر من أن تحصى، فلقـد ابتدع العرب في هذه الحقبة أنواعاً جديدة في التأريخ، لم تكن معروفة عند غيرهم من الشعوب، كما أنهم أوجدوا فلسفة للتاريخ تعتبر أول محاولة من نوعها في العالم.

وهناك حقبة صغيرة من تاريخ العرب، تمتد خلال فترة الاحتلال العثماني لهذه البلاد، كان تأريخ الحوادث فيها قليلاً، لأن الاتراك كانوا قد حجبوا العرب عن مسرح التاريخ، فجاءت هذه الحقبة أفقر حقب العرب في التأريخ..

ومن الجدير بالذكر، أن هذه المصادر المتوفرة عن تاريخ العرب، والكثيرة التنوع، لاتصلح لأن تكون في مجملها تاريخاً حقيقياً للعرب، لسببين:

أولهما: إن تاريخ العرب القديم قد كتب من قبل أثريين غربيين،

حاول بعضهم أن يفهم طبائع العرب فأخطأ الفهم ، وحاول آخرون الدس على تاريخهم وتشويهه ، فأصابوا نجاحاً كبيراً في ذلك ..

وبين سوء الفهم ، والدس المشبوه ، حاول بعض العلماء الوصول الى الحقائق العلمية ، فأصابوا وأخفقوا ..

ومالم يقم فوق أرض العرب ، من أبناء العرب ، من يعيدون النظر في مجل ماكتبه العلماء والأثريون الغربيون ، فان التاريخ العربي القديم سيبقى عرضة للظن والتأويل ، وسيبقى على الطالعين أمثالنا أن يقرأوا قليلا ويمعنوا النظر كثيراً في كل مايكتبه الغربيون عن تاريخ العرب .

وثانيهما : **أن تاريخ العرب الذي كتب بعد الاسلام** ، قد دون في ظل كثير من الدول الاستبدادية ، والآراء والمذاهب السياسية ، التي فرضت على المؤرخين العرب انواعاً معينة من الافكار ، لايستطيع المؤرخ الحديث أن يأخذ بها أو أن يعتمدها في تأريخه .

وما بين تاريخ قديم غير مفهوم أومدسوس فيه ، وتاريخ اسلامي تلعب فيه الأهواء السياسية ، ضاع الكثير من معالم التـــاريخ العربي ، وأصبح لزاماً على أبناء العروبة في عصرهم الحاضر أن يكرّسوا المال والجهد الكافيين لإنقاذ التاريخ العربي من ورطته ، ووضعه في الطريق القويم ، الذي وضعت فيه تواريخ العالم المتحضر .

س ٢ - ماهي الشوائب التي تحطم من قيمة تأريخنا ، والتي ينبغي التخلص منها ؟.

الاجابة عن السؤال الأول ، قد أغنتني عن الاجابة على جوانب كثيرة من هذا السؤال الثاني ؛ غير أني أستطيع القول : **إن أهم خطوة يجب أن نخطوها**

المؤرخ العربي الحديث ، لتخليص تاريخنا العربي من شوائبه ، هو العمل على « ايجاد تاريخ عربي متلاحم » ، ترتبط فيه الأصول العربية بفروعها ، برباط حضاري ثقافي جنسي ؛ فلقد آن للعرب ولمؤرخيهم بوجه خاص ، أن يدركوا أن حضارة العرب بعد الاسلام ، ليست شجرة منبتّة الجذور ، وليست بدءاً للأمة العربيـــة ، وإن كانت أزهى شجرة في حقول الامة العربيـــة . وأن حضارة الأقباط في وادي النيل ، وحضارة بابل ونينوى في العراق ، وحضارات السهول والسواحل في الشآم والمغرب ، ليست إلا ثماراً لشجرة واحدة ، هي شجرة العروبة ، التي ما زالت تورق وتثمر عبر القرون حتى يومنا هذا .

إن مؤرخي العرب في تلك الحقب السحيقة ، قد حجبت عنهم الحقـائق القومية ، التي نرتع في ظلهـــا الآن ، فعاشوا لا ينظرون الى مجتمعهم العربي نظرة شاملة ، وعاش على غرارهم مؤرخو اليونان والرومان والفرس الذين جاءوا بعدهم ، وكل السياسيين في تلك القرون القديمة ، وكل العلماء والمؤرخين ، كانت تعوزهم النظرة القومية الشاملة ...، أما نحن الآن ، فان لنـــا موقفاً آخر ..، لقد كانت « إسبارطة » ، مثلا ، غير « أثينا » ، وكانتا دولتين متنابذتين ، على الرغم من أنهما تنحدران من عرق واحد، وتعيشان حقبة تاريخية واحدة ، وكان لكل منها نظامها السياسي الخاص وعلماؤها وفلاسفتها ، غير أن الروح التي كانت تسري في مجتمعي تينك الدولتين كانت روحاً واحداً ، لأنهما تمثلان أمة واحدة ، وكذلك كان الأمر في « بابل » و « أور » و « أرك » و « نينوى » و « أوغاريت » و « صيدا » و « صور » و « قرطاجة » و « قرطاجنة » و « ممفيس » و « طيبة » ، وغيرهـا وغيرها من دول العرب القديمة،التي كان لكل واحدة منها نظامها الخاص وعلماؤها ومحاربوها وسياستها المنفردة ، ولكن كان بين هذه الدول خيط واحد يربط

بينها جميعها ، هي الروح العربية ، التي تميزت في الثقافة المشتركة بين هذه الدول ، وفي النظرة الواحدة الى الوجود والموجودات .. ، تلك النظرة المتميزة عن نظرة الهند والصين ، وعن نظرة إسبارطة وأثينا وروما ، والتي ماتزال تعيش حتى اليوم في المسيحية والاسلام ، وفي نظرة العرب أجمعين : مسيحيين ومسلمين ، مثقفين وغير مثقفين ، الى الوجود والموجودات ...

علماء الغرب ، الذين أرخوا للعرب في هذه الأيام ، لايستطيعون أن يدركوا هذا الشيء بوعي كامل ، والذين أدركوه ، أخطأوا في التعبير عنه . فالذين أدركوا الروح العربية السارية في هذه الأقوام التي تعيش على أرض العرب منذ نيف وسبعة آلاف عام ، حاروا في تسمية تلك الروح ، فاعتمدوا على « الخرافة » وما جاء في « التوراة » ، وسموا هـــذه الأقوام « شعوباً سامية » ، نسبة الى « سام بن نوح » .. ، ولم يستطيعوا أن يسموها « شعوباً عربية » لأنهم لم يفهموا « العروبة » الا « لغة قريش » التي هي فرع واحد من الفروع الكثيرة في شجرة العروبة .. ، ورغم ما ظهر بعد تلك التسمية من بطلانها ، ومن ان « نوحاً » نفسه لم يكن الا مواطناً عربياً عراقيـــاً ، عاش في أمة أنجبت في عصره الكثيرين من أمثاله في كل بقاع الارض العربية ، وبالرغم من ان مكتشفات وادي النيل وغيرها قد دلت على انها من عمل أقوام سبقوا « نوحاً » أو عاصروه ، وأن تلك الأقوام تحدرت من أصول جاءت عن طريق الهجرة من باطن الجزيرة العربية : الأرض التي نزح منها قوم نوح وقوم عيسى وقوم محمـــد ، أقول : على الرغم من كل تلك المكتشفات الحديثة فان مؤرخي الغرب ، ومؤرخي العرب ايضاً ، مايزالون يصرون على التسمية الخاطئة التي تجعل من تلك الاقوام شعوباً سامية لا شعوباً عربية..

وعلماء العرب المحدثون ، الذين تثقفوا على أيد أجنبية ، قد انطبع

اكثرهم بطابع التفكير الغربي ، دون وعي منهم لخطر ذلك التفكير على التاريخ العربي . فهم عندما يكونون متحمسين للعروبة كثيراً ، حماس « جواد علي » المؤرخ العربي العراقي ، يبدأون تاريخ العروبة بالدول اليمنية ، ثم ينتقلون الى التجمعات الحجازية والنجدية ، وتجمعات الشام والعراق ، ليربطوا هذا كله بتاريخ ثورة الاسلام ، ثم يتابعون الطريق . . ؛ وعندما تكون حماستهم للعروبة غير واضحة المعالم ، يؤرخون تاريخ كل قطر عربي ، كما لو كان تاريخ أمة مستقلة ، كما فعل « سليم حسن » المؤرخ العربي المصري ، الذي أرخ مصر القديمة ، كما يؤرخ الفرنسي المعاصر لفرنسا اليوم ، والأمريكي المعاصر لأمريكا هذه الايام . . ، وأعجب من هذا وهذا ، أن بعض المؤرخين العرب المعاصرين ، **عندما يؤرخون لقطر عربي يعيشون فيه ، يضعون نصب أعينهم استقلال ذلك القطر في الماضي** وفتوحاته وتوسعاته ، والهجمات التي طرأت عليه ، **كما لو كانوا يؤرخون للثورة الفرنسية** . . ، وهم في عملهم هذا يريدون ان يصبوا التاريخ القديم في قالب العصر الحديث ، غير مدركين للأصول التي تجمع بين الغازي والغزو ، والفاتح والفتوحة بلاده ، وغير آبهين للثقافة التي تربط بين الطرفين ، والحياة الاجتماعية التي تجمع بين المتخاصمين ، وما تاريخ « سليم حسن » لمصر القديمة إلا صورة عن هذا النوع من التاريخ ، الذي يجمع بين يديه دنانير كثيرة ، ولكنه لا تستطيع أن ينتبه الى جوهر « الذهب » المشترك بين المجموع .

هذا فيما يتعلق بتاريخ العرب القديم . . ، **أما التاريخ الذي جاء بعد الاسلام ، فان اكثره قد كتب بعقل غير علمي ، وبنظرة غير شعبية** ، فجاء أشبه « بالحكايات » التي يمكن ان يستفيد منها المؤرخ الحديث في إعادة صوغ التاريخ بأسلوب علمي شعبي ، يظهر فيه دور الافكار والمجتمع في تطور التاريخ . .

على أنه لا بد من الاشارة هنا الى أن المؤرخين العرب الذين جاءوا بعد الاسلام ، قد نظروا الى كل ما جاء قبـــل الاسلام نظرة احتقار ، وكانوا في عملهم هذا دعاة مذهبيين للأفكار الجديدة ، شأنهم في ذلك شأن مؤرخي كل الثورات الكبرى ، الذين يبررون قيام الثورة بالفساد الذي كان منتشراً قبلها .. ، ومؤرخو صدر الاسلام غير ملومين من قبلنا في عملهم هذا ، لأن مبدأ « تثبيت الثورة » مبدأ هام في نظر الثائرين ، ولكن المؤرخين المعاصرين ، الذين جاءوا بعد أن اصبحت ثورة الاسلام مستقرة ، وعاد الاسلام قوة تفرض نفسها بنفسها ، هؤلاء عليهم أن ينظروا للأمور نظرة علمية ، ليتلمسوا تاريخاً لا يضر الحديث الصحيح عنه أحداً ، ولا يزيد الثورة التي جاءت بعده الا قوة ومناعة .. !

إن المؤرخين العرب المحدثين ما يزالون يعيشون بعقول المؤرخين العرب القدماء ، على الرغم من اختلاف الظروف ، وانتفـــاء الأخطار ! وهم اليوم مدعوون أكثر من أي يوم مضى لتبني العقل العلمي في كل ما يكتبون ..

ثم إن تاريخ العرب بعد الاسلام ، قد انشعب في أعقاب « الخلافة » الى شعبتين ضخمتين ، لكل واحدة منهـا فلسفتها ومبادئها ، وكانت تلك الفلسفة أو تلك المبادىء تملي على المؤرخ منحى معيناً ، اذا استطاع المؤرخ أن ينجو من إملاء الدولة أفكارها عليـــه . وتلك حالة كانت لها مبرراتها في الماضي ، يوم كان « الهاشميون » بحد ذاتهم مبدءأ سياسياً ذا طابع ديني ، ويوم كان « الأمويون » و « العباسيون » أيضاً مبدءأ سياسياً ذا طابع ديني آخر .. ، أما اليوم فان الأمـة العربية قضايا أخرى ، غير الخلافة ، وغير الهاشميين والأمويين والعباسيين ، فلقد عاد الحكم الشعبي الاشتراكي ، والحكم الديموقراطي البرلماني ، واصبحت الوحدة العربية ، واصبح طرد الاستعمار والقضاء على إسرائيل .. ، أصبحت هذه كلهـا

حالة محل القضايا القديمة ، وكان من الضروري أن يعيد المؤرخ العربي النظر في كل ما يقرأ وما يكتب ، لكي يستطيع ان يكتب للعرب بعد الاسلام تاريخاً فيه أنفـــاس الشعب ، وفيه أخلاق الناس ، وفيه ثقافتهم وتحركاتهم الجماهيرية .

وعلى الرغم من هذا ، فان الكثيرين ممن أرخوا للعرب بعد الاسلام ، في عصرنا هـذا ، عادوا يبكون « الحسين » كما كانوا يبكونه في الماضي ، او أخذوا يندبون حظ « عثمان » كما ندبوه في الماضي . . ، وتلك لعمري خطوة إن كانت طبيعية في قرون سلفت ، فانها مفتعلة وغير صحيحة النية في عصرنا هذا . .

إن الثورة على « عثمان » ومقتل « الحسين » والتنـــاحر حول الخلافة ، حوادث ذات مدلول اجتماعي ، على العقل العربي المعاصر ان يمارس برودته العلمية حولها ، كما يستطيع أن يفسر الأشياء تفسيراً مقبولاً من قبل العصر الذي نعيش فيه ، أما بعث الماضي بكل مافيه من هنات ، فانه من عمل الشيطان. . .

س ٣ ـ ماقولكم في الرأي الذي يعتقد أن صيغة التاريخ المتوفرة حالياً تقتصر على تاريخ الملوك فحسب ، دون الشعب ؟

هذا الرأي له مبرراته ، وان كان رأياً فيه شيء من النقص ..، ذلك أن واقع الحال لا يتفق تماماً معه ؛ فتاريخ العرب المكتوب ، فيـه الكثير عن تحركات الملوك ، كما فيه الكثير عن أوضاع الشعوب ..، وللحقيقة نشير الى ان المؤرخين قد اهتموا من حياة الأسر الحاكمة بأشياء ، منها : الخلافات الذهبية والسياسية التي كانت تقوم بين الأسر الحاكمة أو بين الحكام أنفسهم ، ومنها :

الفتوحات التي كان يخطط لها الحكام وينفذونها ؛ ومنهـا : العمران الذي كان يحققه بعض الحكام .. ، وذلك شيء طبيعي في كل تاريخ ، قديم أو حديث ؛ فمن منا يستطيع أن يتجاهل تاريخ « نابليون » أو « ابراهام لنكولن » أو « سان يات سن » ، أو « بطرس الأكبر » أو « لينين » أو « ماوتسي تونغ » .. ، أو غيرهم من أعلام التاريخ الحديث .. **إن التأريخ لهؤلاء الاشخاص هو تأريخ لأممهم ، وللانقلابات الفكرية والسياسية في عصرهم** ، وكذلك القول في التأريخ لحياة الرسول العربي الكريم وخلفائه ، ولحياة الأفذاذ من أمثال عبد الملك بن مروان وأبي جعفر المنصور والرشيد ، ولحياة القواد الكبار من أمثال عقبة وطارق وقتيبة وابن القاسم ، فالتاريخ لحياة هؤلاء الأعلام في التاريخ العربي الاسلامي ، إنما هو تأريخ للشعب العربي وتحركاته الفكرية والسياسية .

وتجدر بنا الاشارة هنا الى ان التاريخ العربي لم يقتصر على تاريخ حياة الافذاذ من ملوك وقواد ، بل شمل فيما شمل حياة الكثيرين من طبقات الشعب المختلفة . **فكتب « الأنساب » حافلة بدقائق الأمور عن حياة الكثيرين من أبناء القبائل العربية ، وكتب « الطبقات » و « الوفيات » وكتب « الأدب » ، وما ألف عن « العلماء » و « الفقهاء » و « المغنين » ، وتلك الموسوعات الضخمة التي تركها الأصفهاني والحصري والجاحظ وأبو حيان التوحيدي وغيرهم .. ، هذه كلها قد ضمت فيما ضمت الكثير من أخبار الشعب بسائر طبقاته ..**

على أن هذا لا يعني أن المؤرخين العرب لم يهتموا اهتماماً خاصاً بحياة الملوك والقواد .. ، فلقد جرى المؤرخ العربي على نسق المؤرخين المعاصرين له في كل من روما وأثينا والهند .. ، وتلك طبيعة العصر الذي عاشوا فيه .

والمؤرخ العربي القديم ، قد قام بقسط كبير من واجبه تجاه الشعب في العمل الذي قام به ، ولكن المؤرخ العربي الحديث ، الذي يعيش في عصر أصبح للشعب فيـــه الوزن الكبير ، هذا المؤرخ هو الملوم ان هو اهتم بتاريخ الملوك والامراء اكثر من اهتمامه بحياة الشعوب ..

ولعل أسوأ مايمثل هذا الاتجاه المنحرف في التاريخ ، تلك الكتب المفروضة على تلامذة المدارس في البلاد العربية ، التي لايقرأ فيها الطالب الا القليل من حياة الشعوب ، بينما يحشي دماغه بالكثير من ترهات الملوك وخلافات المختلفين السياسيين ، ويشبع ذهنه بالتعصب الطائفي والحماقات السياسية ..

ان المؤرخ العربي الحديث مدعو بعنف المعركة العربيـة المعاصرة الى معرفة الطريق التي يجب أن يسلكها ، قبل أن يخط يراعه أشياء قد عفى عليهـا الزمن ، وأصبحت من نوادر العصور ..، وخاصة عندما يكتب للأجيال الصاعدة : تلامذة المدارس ..

س ٤ ـ تجري في بلدان كثيرة محاولات لاعادة كتابة التاريخ وفقا للتغير المذهبي الذي تناول شكل المجتمع ..، أفلا ترون ضرورة ذلك بالنسبة لتاريخنا العربي ...

النظرة الماركسية للتاريخ والحياة ، هي وحدها التي تحمل أتباعها على اعادة النظر في التاريخ ، وفقاً لمبدأي . الديالكتيكية المادية ، والمادية التاريخية..، وأنصار هذه النظرية وأتباعها ، قد عادوا لتاريخ الشعوب التي استطاعوا الوصول الى حكمها ، محاولين كتابته من جديد ، وفقاً للنظرية التي يؤمنون بها ، كما أنهم حاولوا أن يفسروا تاريخ العالم من خلال نظريتهم تلك ..

وغير أتباع النظرية الماركسية ، فان لهم مناهج أخرى في التاريخ ، منسجمة مع تفكير كل منهم ، فنظرية « توينبي » في القسر مثلاً غير نظرية « دور كهايم » في الكثرة وغير نظرية « اشبنجلر » في التدرج ، وغير نظرية « بريستد » ... إن لكل مؤرخ حديث ، خارج الاطار الماركسي ، نظريته المتكاملة في التاريخ ، يقتفي أثرها ، ويؤرخ على هديها ..، وهي في جميعها تلقي أضواء على حياة الشعوب والحكام ..، كما تلقي أضواء أخرى على ثقافة الشعوب وحضاراتها ..

ولكي يصبح « للماركسية » ما « للأديان السماوية » من قوة ومنعة في عقول وقلوب معتنقيها ، فان صاحبها قد صاغها بشكل متسلسل مترابط ، بحيث إذا قصمت حلقة منها ، انهارت بقية الحلقات ..، وهذا الشيء موجود في « الديانات السماوية » .. فأنت كمسلم يجب أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر : خيره وشره من الله تعالى ، فلو فرضنا أنك آمنت بالله ولم تؤمن برسالة الرسول العربي الكريم ، لا تسمى مسلماً ، ولو فعلت العكس فآمنت برسالة الرسول العربي الكريم ولم تؤمن بالله ، لا تسمى مسلماً أيضاً ، وقل الأمر نفسه في كل أركان الايمان واركان الاسلام ...،

وكذلك الأمر في « النظرية الماركسية » ..، فالمرء لكي يكون **«ماركسياً» ، يجب أن يؤمن بالمنطلقات النظرية التي تؤدي الى «الشيوعية»..** وإذا أجهد الانسان ، أي إنسان ، ذهنه ، لكي يصل الى وضع ذهني يصبح فيه « العالم شيوعياً » ، لا دولة فيه ولا طبقة ، لابد له من السير في دروب : المادية التاريخية ، والجدلية التاريخية .. ، **لذلك كانت الجدلية التاريخية ، والمادية التاريخية ، والايمان بها، هما وحدهما مبرر الايمان « بالمجتمع الشيوعي » ..،**

وكان انتفاء أية فقرة من هاتين الفقرتين هو انتفاء للشيوعية أصلاً، وبطلاناً للماركسية ..

وعلى هذا، كان من الضروري للدول التي اعتنقت الماركسية مذهباً أن تفسر تاريخها وتاريخ العالم على ضوء ذينك الميدأين، لتضمن مبرر وجودها ..

أما نحن العرب في سورية، فان الامر عندنا مختلف تماما،

نحن أولاً « قوميون » .. ، وبمجرد كوننا قوميين، ينفي «النظرة الشيوعية للعالم» ..

وبانتفاء النظرة الشيوعية للعالم، قد انتفت «الماركسية» اصلا ..

وبانتفاء الماركسية أصلا، لم يعد مفروضاً بنا أن نؤمن بالديالكتيكية المادية والمادية التاريخية، اللتين هما المبرر الوحيد للدولة المؤمنة بالشيوعيـــة والماركسية، والذهن الماركسي ..، ذلك لأن وجود دولتنا لم يقم أصلاً على مبرر الايمان المادي بحوادث التاريخ، ولكنه قام على التصميم على تحرير العرب من الاستعمار وتوحيدهم في دولة واحدة حرة متقدمة ...

و «التطبيق الاشتراكي» عند الامم المؤمنة بالماركسية، غيره، من حيث النظرة للوجود، عند الدول العربية، السائرة في دروب الاشتراكية.

فالتطبيق الاشتراكي في الدول المؤمنة بالماركسية، هو منطلق عملي لايمان نظري بصراع الطبقات وبالمادية التاريخية، بينما هو عندنا، وفي الدول العربية السائرة نحو الاشتراكية، منطلق عملي لسلب قوى الاستعمار سلاحها القوي في معركة الحرية والوحدة العربية ..، وتحرير للكادح العربي من وطأة الجوع والفقر لكي يستطيع متابعة النضال في دروب الوحدة العربية والحرية القومية ..

قد تقوم في البلاد العربية نظم تحاول تطبيق الاشتراكية العملية على نحو لم تصل اليه بعض الدول في المعسكر الماركسي ؛ ولكن علينا أن نميز بوعي بين مبررات هذا التطبيق الاشتراكي هنا ، ومبرراته هنالك ..

ان التطبيق الاشتراكي في المعسكرات الماركسية ، هو انسجام مع النظرية الماركسية نفسها ، بينما هو في بلاد العرب عمل تحرري وحدوي ، ليس غير ...

لذلك كان من الافتعال بمكان ، أن تحاول دولة عربية سائرة في دروب الاشتراكية ، تخطيط تاريخها تخطيطاً ماركسياً ، ذلك أن هذا التخطيط ، فيما لو تم في دولة من الدول ، يصرفها عن النهج النضالي القومي .. ، **ويوقعها في بحران** من النظريات التي مازال أصحابها يتراجعون عنها ، حتى لم يعد بينهم وبين أن يطلقوها الا خيط جد ضعيف ..

س ٥ — ماهي المبادىء التي يمكن أن تعاد بوحيها كتابة التاريخ ؟.

لقد كنت أسلفت القول : ان المبادىء التي ينبغي أن يكتب بها التاريخ العربي ، كما أتصور ذلك ، هي :

١ — على المؤرخ أن ينظر للتاريخ العربي ككل .. ، منذ اللحظة التي بدىء فيها تاريخ الشعوب ، حتى يومنا هذا ..

٢ — وعلى المؤرخ أن لايؤرخ الملوك والدول الطارئة على الأرض العربيـــة ، إلا بمقدار مايشعر بالترابط الفكري والثقافي والحضاري بين هذه الدول ..

٣ — وعلى المؤرخ الذي يؤرخ للحقبة التي تلت الاسلام أن يكون موضوعياً وبارد الذهن أمام الخلافات السياسية والمذهبية .

٤ — وعليه أخيراً أن يفسر الأحداث كلها تفسيراً اجتماعياً قومياً ،بحيث يصنع للأحداث معنى .

س ٦ — في هذه الحالة .. أتتصورون منهجاً معيناً لهذه العملية ..، ثم كيف يمكن أن تسد مشكلة المصادر .. خاصة وأن أغلب مايتوفر منها حالياً ، إنما يكرس الشكل الحاضر لصياغة التاريخ .

لا أظنني بحاجة للاطالة في الاجابة عن هذا السؤال،ذلك أن المبادىء، التي اقترحتها في الاجابة الخامسة ، يمكن أن تكون منهجاً للعمل ، لمن أراد ذلك. أما مصادر التاريخ العربي ، فهي من الوفرة بمكان ، اذا ماقيست بمصادر تاريخ غيرنا من الأقوام ، ونحن في يومنا هذا لسنا بحاجة للمصادر التاريخية بمقدار مانحن بحاجة للعين الثاقبة التي تمحص تلك المصادر ، وتقيم بينها نظاماً خاصاً بها .

س ٧ — ماهي الفوائد العملية التي يمكن أن تجنيها أمتنا عندما يتحقق ذلك؟.

أعتقد أن الفوائد التي تجنيها أمة من تنسيق تاريخها تنسيقاً قومياً منطقياً، أكثر من أن تحصى .. ، وما يجنيه العرب من ذلك ، ربما كان فيهم أوسع مردوداً مما هو في غيرهم من الشعوب .

ذلك أن « العروبة » مازال حتى اليوم تعاني محنة التمزيق المفتعل من قبل سياسات عالمية كثيرة ، تلك السياسات التي لا يروق لمطامحها التوسعية أن يلتئم شمل العرب في دولة واحدة حرة تقدمية ، والتي تسعى جاهدة ، عن طريق سياسيها ومؤرخيها وفلاسفتها أن تقنع العرب أنهم أمم وليسوا أمة واحدة، لتستقر في أذهانهم التجزئة السياسية القائمة ، تلك التجزئة التي هي مجد ذاته مأمن المطامع الاستعمارية العالمية في الوطن العربي وفي العالم أيضاً .

وتوحيد التاريخ العربي ، ليس عملا ثورياً فكريا فحسب ، بل هو أيضاً عمل ثوري اجتماعي تقدمي ، يدفع بالذهن العربي المشتت الى الاستقرار حول النضال التقدمي لجمع كلمة العرب في دولة واحدة .

واستقرار الذهن العربي حول هذا المفهوم ، هو عمل من اضخم الاعمال الثورية الفكرية في العالم ، لأنه يطلق مائة مليون انسان من عقال التشتت ويضمهم في صف الانسانية المتحررة المتقدمة .

وعندما تقاس قيمة الاعمال والأفكار ، انما تقاس بالمدى الذي يشمل فيه نفعها العالم .. ، وان يشمل نفع توحيد التاريخ العربي مائة مليون انسان ، ليس شيئاً هيناً في حياة الانسانية ، بله حياة العرب انفسهم .

لذلك كان مادعونا اليه هنا عملا انسانياً ضخماً ، بمقدار ماهو عمل قومي ضخم .

الاستاذ عزة دروزة

في صدد السؤال الاول نقول أن المصادر القديمة المتوفرة حالياً عن التاريخ العربي مزيجة من السمين والغث والحقائق والخرافات والصدق والكذب والشائعات والأحقاد والدسائس والاختلافات المغرضة المصبوغة بصبغة الاختلافات السياسية والدينية . غير أن التمحيص والتروي والأناة والمقارنات يمكن أن تؤدي الى استخلاص ما تطمئن به النفس . وأحب ان انبه على ان ما وصل الينا من تلك المصادر غيض من فيض مما كتبه العرب في مختلف أدوارهم حتى يقال انهم بزوا في ذلك كل الأمم . وقد ضاع اكثره وبقي كثير من اسمائه شاهدة عليه . كما أحب أن الفت النظر الى ان كثيرا مما يمكن ان يكون مصادر صالحة ما يزال مخطوطاً تاماً يحتاج الى جهد كبير قد يكون قام بنصيب مشكور منه قسم المخطوطات العربية في جامعة الدول العربية . وحينما نريد أن نكتب تاريخا وثيقاً واسعاً لا بد لنا من الاطلاع على هذه المخطوطات ايضاً . اما بالنسبة للتاريخ القومي الحديث فان هناك كتباً كثيرة وضعت في مختلف نواحي النهضة العربية في مختلف اقطار العرب . ومذكرات لكثير من رجالاتها وهناك الوثائق والتقارير المتنوعة المحفوظة في خزائن الحكومات العربية . وهناك المجلات والصحف ، وهناك كتب ومجلات وصحف غير عربية ايضاً بحيث يمكن ان يقال ان مصادر هذا التاريخ ايضاً متوفرة . ومن الممكن

ان يكون بعضها كتب باقلام ذات مآرب وأهواء وأن يكون فيها تشويهات وتبجحات او مغالطات واخطاء مقصودة وغير مقصودة غير أن التروي والأناة والمقارنة كفيلة باستخلاص الحقائق ووضع الأمور في نصابها الحق .

٢ ــ والسؤال الثاني مزدوج فيما نرى . فاذا كان يقصد به الشوائب التي تحط من قيمة مصادر التاريخ عندنا والتي ينبغي التخلص منها فقد المعت الى ذلك في الجواب السابق ، اما اذا كان يقصد به ما يمكن ان يكون سيئاً في تاريخنا القديم او الحديث من حقائق مفجعة في الحكم والسياسة والاخلاق والاختلافات والأهواء والفتن والانحرافات فاني لا أرى بأساً في طرحه من الكتب المدرسية للصفوف الابتدائية والاعدادية ، حتى لا يعكر ذهن الناشيء بتلك الحقائق المريرة قبل ان ينضج ويستطيع ان يهضم أسبابها ويتفادى نتائجها . ولا سيما ان في انحاء الوطن العربي طوائف دينية ومذهبية متنوعة متنافرة يجب ان نتفادى صلاحها بتلك الحقائق ونهيء لناشئتها مجالاً لتنشئة وطنية موحدة . اما اذا ما اريد كتابة تاريخ قومي جديد للكبار فلا أرى طرح واهمال ما تطمئن به النفس من حقائق مهما كانت مفجعة لان ذلك مناف لامانة العلم وغير مجد مادام ذلك موجودا في مصادرنا ومروياً من جيل الى جيل . ولأن ذلك يفقد اجيالنا الحاضرة والمقبلة معرفة أسباب ما ارتكبت فيه امتنا من ظلمات وسبات ويفقده اسباب العبرة والموعظة . والطريقة المثلى بالنسبة لذلك هي تمحيص المصادر والتروي بها ومقارنة بعضها ببعض بأعين واقلام متجردة من الغرض والهوى وبعقول ثاقبة حذرة . مع النظر الى الاحداث بنظرة الظروف التي حدثت فيها لا بنظرة الوقت الذي يكتب فيها التاريخ الجديد حيث يمكن بذلك وضع الأمور في السيئات المروية على اختلافها في نصابها الحق بقدر الامكان بل يمكن بذلك القضاء على كثير من الأوهام

والاخطاء الناشئة فيها . وحينئذ لا يضير تاريخنا ان يكون فيه حقائق مفجعة ليكون فيها عبرة وعظة للأجيال وهذا قدر مشترك بين كل الشعوب .

٣ — اذا كان السؤال الثالث هو في صدد صيغة مصادر التاريخ المتوفرة فقد يكون القول انها تقتصر على تاريخ الملوك والحكام دون الشعب صحيحاً بقياس غير يسير باستثناء التاريخ الحديث بعض الشيء الذي احتوى بعض ما كتب فيه الكثير من شرح حالات الشعب العربي في مختلف اقطاره . واذا كان السؤال في صدد كون كتاب التاريخ اليوم أيضاً يقتصرون على ذلك فهو ايضاً صحيح بقياس غير يسير مع الاستثناء المتقدم نفسه بالنسبة للتاريخ الحديث . غير أن من الحق أن نذكر في ثنايا المصادر المطبوعة والمخطوطة وسواء منها التاريخية أم الأدبية أم الدينية اشياء كثيرة جداً عن الشعب العربي ومختلف وجوه حياته . وان من الحق ان نقول ان اقتصار كتبنا المؤلفة في الحقبة الحاضرة عن العهود القديمة على تسجيل سيرة الملوك والحكام بالدرجة الأولى غير معيب وان من الواجب ان يلم فيها بأحوال الشعب العربي المختلفة الماماً واسعاً ايضاً .

٤ — أظن أن جواب السؤال الرابع وارد في جواب السؤال الثاني . فلست أعتقد انه ما من حق أحد ان يغير حقائق التاريخ او يتلاعب في عرضها وفقاً للتغير المذهبي أو الذهني الذي تناول شكل المجتمع . وفي الكتب الاجتماعية التي يمكن ان تحتوي بحوثاً مقارنة وانتقادات هادفة الى تقرير ماهو الافضل والأجدى مجال للحافز على السؤال .

٥ — وأظن ان جواب السؤال الخامس وارداً أيضاً في جواب السؤال الثاني مع تأكيد شروط التمحيص والتروي والمقارنة والتجرد عن الغرض والهوى والنظر الى

الاحداث بنظرة الظروف التي حدثت فيها وبخاصة بالنسبة للتاريخ الحديث الذي يلمح في الجيل الجديد رغبة التهديم للجيل السابق الذي اشترك في صنعه وانكاره لكثير من رجالات هذا الجيل من نضال مخلص مهما كانت هناك من مآخذ هي على الأغلب منبثقة من ظروفهم السياسية والاجتماعية والثقافية .

٦ - وجواباً على السؤالين السادس والسابع اقول ان ما كتب في الحقبة الأخيرة من كتب تاريخية عن العصور السابقة للحقبة الحاضرة التي تمتد الى مائة سنة أو اكثر قليلاً وعن النهضة القومية الحديثة كانت جهود افراد . وجهود الأفراد مهما بلغ لا يمكن أن يسد الفراغ . فلا الوقت ولا العمر ، والصحة ولا الطاقة الثقافية والمادية تساعد على كتابة تاريخ مفصل شامل لكلتا الحقبتين مساعدة مجدية وكافية وهذا فضلا عن تعذر حصول الأفراد على المصادر المخطوطة المتنوعة التي لا تحصى ولا على الاضابير والوثائق والتقارير الرسمية بالنسبة لتاريخ النهضة الحديثة بل وتعذر الحصول على كل مصدر مطبوع . وقد يكون بعضهم أو كثير منهم كتب ما كتب بسائق الأنانية وحافز المآرب والهوى أيضاً . فكل هذا يجعل في جهود الأفراد ثغرات كثيرة . سواء اكان من ناحية الاحاطة والشمول أم من ناحية التفصيل والاسهاب أم من ناحية التزام الحق والامانة العلمية .

وأضرب بنفسي مثلا . فقد حاولت أن أكتب او بكلمة أخرى أن اعيد كتابة تاريخ الجنس العربي من فجر التاريخ الى اليوم في مختلف الاقطار والاطوار والادوار وحاولت كذلك ان اكتب تاريخا للحركة العربية الحديثة ، وقد كتبت فعلا ثمانية اجزاء بعنوان الجنس العربي وثلاثة اجزاء بعنوان العرب والعروبة من القرن الثالث الهجري الى القرن الرابع عشر وثلاثة مجلدات في عصر النبي عليه السلام وسننه قبل البعثة وفي سيرته

بلغت صفحاتها ٦٠٠٠ وكتبت ستة اجزاء بعنوان الحركة العربية الحـــديثة ومجلدا ضخما في الوحدة العربية بلغت صفحاتها ٢٠٠٠ وبذلت جهداً كبيرا في التزام الشروط التي ذكرتها . ومع اني ازعم اني كتبت شيئاً جديداً منهجا واسلوبا وتنقية وتصحيحا ونقدا وفكرة فاني اعترف أن في عملي ثغرات كثيرة لم تساعد اوقاتي وصحتي وطاقتي على تفاديها وانـــه قد فاتني اضعاف اضعاف ما استطعت أن اطلع عليه من المصادر .

وكتابة تاريخ عام للجنس العربي ثم كتابة تاريخ خاص للحركة العربية الحديثة شاملين ـ ومفصلين واجبة وفوائدها العلمية والعملية كبيرة . فأمة عظيمة لها أصول عميقة في التاريخ ودوي وتأثير عظيمان في الحياة على اختلاف مجالاتها ورسالة انسانية خالدة زادها الاسلام الذي انبثق منها في دور عروبتها الصريحة قوة وخلودا وحافزا لا يصح ان يظل تاريخها مليئا بالثغرات وناقصا ومفككا او مرتعا للخرافات والاختلافات والتشويهات المغرضة وانه يجب ان يكون لها تاريخ مفصل واف لجميع افكارها واطوارها وادوارها منقح يضع الامـــور في نصابها ويفي باحوال الشعب في مختلف مجالات نشاطه عناية لا تقل عن العناية بتاريخه السياسي . ومثل هـــذا يقال بالنسبة للتاريخ القومي الحـــديث ، فقد استيقظت الامة العربية بعد سبات طويل وظلم وظلمات واخذت تنهض لتجدد عهدها وتستأنف حمل رسالتها وبذلت نشاطاً كبيراً وجاهدت وضحت واحرزت نتائج غير يسيرة فلا يصح ان لا يكون ليقظتها وجهادها تاريخ مفصل شامل لكل اقطارها وحركاتها وان يبقى ما كتب من ذلك مليئاً بدوره بالثغرات والتشويهات والمآرب والأهواء وانبه بنوع خاص الى نقطة هامة وهي انه اذا كتب اليوم يمكن ان يكون بريئاً من تلك الثغرات اكثر مما يمكن ان يكون لو كتب بعد جيل او اجيال لان ابناء

الجيل الحاضر ألصق بالجيل السابق ويستطيع المؤرخ المحايد المتجرد منهم انه يتفادى كثيراً بسبب ذلك .

ولكن هذا الواجب لا يمكن ان يقوم به على الوجه المجدي الا هيئة من علماء شباب العرب مثقفين ثقافة واسعة وملمين باللغات الاجنبية يتفرغون له لمدة طويلة ويكتبون عشرات المجلدات في تاريخ العرب القديم والحديث ويحل اخرون محل من تعب او يقضى منهم ولن يتيسر هذا الا في نطاق الحكومات العربية . ولعل احسن سبيل اليه ان يكون في نطاق الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية مع توحيد شرط انشاء هيئة متفرغة من علماء الشباب فيبذلون جهــدهم اولا لجمع المصادر القديمة والحديثة ويسعون ثانيا الى رجال الجيل السابق الاحياء بالنسبة للتاريخ الحديث والاستماع الى ذكرياتهم والاطلاع على ما يمكن لديهم من مذكرات ووثائق — وهذه نقطة مهمة فان هؤلاء الرجال يتوارون واحداً وراء واحد وتضيع بذلك كثير من الذكريات وتفاصيل الاحداث — ويطلعون او يحصلون ثالثا على ما في خزائن الحكومات من وثائق وتقارير ثم يضعون منهجا للكتابة على الشروط التي ذكرتها مع شرط مهم آخر للتاريخ القديم وهو جعل تاريخ الجنس العربي موصولا يشمل تاريخ هذا الجنس للجزيرة ولمن خرج منها من موجات واستقر في الهلال الخصيب ووادي النيل وشمال افريقيا قبل الاسلام وبعده . وهو ما حاولت أن أفعله .

وجاء في ما فعلت ثغرات كثيرة يجب تلافيها بالاطلاع الشامل والاشادة والاسهاب . ولقد كنت اقترحت هذا على الحكومة السورية سنة ١٩٥٥ واعرف انها ارسلت اقتراحي الى الجامعة العربية فجمد فيها .

وها أنا اجدد اقتراحي واتمنى ملاحقته ملاحقة جدية وبذل كل جهد في سبيل تحقيقه . والله أسأل أن يوفقنا جميعاً الى ما فيه خير امتنـــا وبلادنا وعزتها وقوتها ووحدتها .

الاستاذ شبلي العيسمي

هل يجب أن يكتب تاريخنا القومي من جديد ، وعلى اي اساس ؟

هذا السؤال الذي تطرحه مجلة المعرفة ينطوي ولا شك على جانب كبير من الأهمية ، ومما يزيد في اهميته، انه جاء معبرا عن شعور المعنيين بالقضايا القومية، بأن اسلوب كتابة التاريخ العربي حتى الآن حافل بالاخطاء والثغرات والنواقص ومفتقر الى حسن الأنتقاء والعرض والتركيز على المواضيع الاساسية ذات الاثر الفعال في تطور المجتمع وخدمة القضايا القومية .

ونحن وان كنا نقدر الجهود الضخمة التي بذلها المستشرقون في نبش التراث العربي ونشره ، ونعترف بان كثيرين منهم قد التزموا جانب العلم والحقيقة فيما بحثوا ونشروا ، فاننا نجد في الوقت نفسه ان عددا غير قليل منهم قد تأثر بنظرات مسبقة وبأهداف سياسية معينة من شأنها أن تثير الشكوك وتدعو الى كثير من الحذر والانتباه الى مافيها من أغراض مشبوهة وأحكام ان لم تكن استعمارية فهي مفتقرة الى التجرد والانصاف . وهذا سبب من جملة الاسباب التي تدعونا الى اعادة تدوين تاريخنا القومي من جديد ، اما السبب الثاني فيكمن في الكتب العربية القديمة التي تعتبر المصادر الاساسية لكتابة التاريخ العربي في العصر الحاضر ، والواقع اننا نجد في هذه الكتب القديمة تأثيرات مختلفة غير موضوعية ، قد تكون ذاتية اوسياسية اودينية او قبلية اوشعوبية ...

كما نلاحظ فيها الاهتمام بالاحداث السياسية والحروب المثيرة ، وبسير الملوك والأفراد مع اهمال تاريخ الشعوب والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وإن ذكر بعضها هذه الاوضاع وأشار اليها فبصورة عابرة وبشكل خاطف وموزع هنا وهناك ، مما يشكل في حد ذاته صعوبة كبيرة لكتاب التاريخ في الوقت الحاضر ، وبخاصة أولئك الذين يستهدفون سرعة الانتاج والتأليف . ولكن هذه الصعوبة لايجب ان تبرر لهؤلاء كتابة التاريخ على اساس مايسهل تناوله وتدوينه ، كما لاتبرر لهم الاهمال وعدم التركيز على دور الشعوب واهمية المواضيع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، باعتبارها الأصل والمحرك الرئيسي للأحداث التاريخية .

واننا لنلاحظ ، مع الاسف الشديد ، ان كتب التاريخ المدرسية ، والتي يفترض فيها ان تكون علمية موجهة وحصيلة جهد جماعي ، لاتزال تهمل هذه المواضيع الاساسية ، وتبرز دور الملوك والقادة السياسيين والعسكريين ، فالفصول التي تعالج تاريخ العرب في عهد الامويين مثلا توضع لها العناوين الرئيسية باسماء الخلفاء كأن يقال عهد معاوية او عبد الملك او عمر بن عبد العزيز وهكذا ، بل اكثر من ذلك فاذا اراد الكاتب ان يبحث في النهضة العلمية والادبية في الفترة التي حكم فيها المأمون مثلا فانه يربط هذه النهضة بشخص المأمون ومدى اهتمامه بالعلم وتشجيعه للعلماء ، وقد يصل الكاتب الى ماهو ادهى وأمر في معرض تفسيره لاسباب النهضة فيذكر تفسيرات سطحية في غاية السذاجة والغرابة ، كأن يروي بان المأمون اندفع في ترجمة الكتب اليونانية بسبب حلم رأى فيه ارسطو وحثه فيه على الترجمة . ليس هذا فحسب بل نجد بعض المؤلفين ينطلقون من منطلقات ضارة مؤذية ، ومغايرة ايضاً المنطق والروح العلمية ، ومن ذلك انهم

عندما يكتبون تاريخ العرب قبيل الاسلام يصورون عرب الجاهلية في تلك المرحلة بصور قاتمة سوداء ، فهم أي عرب الجاهلية ، يأكلون العلهز « الوبر المجبول بالدم » ولا يعرفون الخبز المرقوق من ورق الكتابة ، وكانوا يئدون بناتهم ونقوم حياتهم على الغزو والسلب .. الى آخر ماهنالك من هذه الصور . ويبدو انهم بهذه الصورة القاتمة التي يعطونها العرب الجاهلية ، يريدون ان يصوروا بالمقابل فضل الاسلام العظيم على هؤلاء العرب ، ولكنهم لو كانوا واعين منصفين لادركوا ان ابراز أهمية الاسلام وفضله على العرب ، لايحتاج الى الحط من قيمة عرب الجاهلية ، ولادركوا كذلك ان هذه الصورة مناقضة لمنطق التاريخ وسير التطور في المجتمعات والشعوب . ألم يكن ظهور الاسلام مرتبطاً الى حد بعيد بما وصل اليه المجتمع العربي من نضج فكري واجتماعي اهله لفهم رسالة الاسلام وتبنيها وحمل لوائها وتقديم التضحيات الجسيمة في سبيلها ؟ وهل من المنطق العلمي في شيء ان نجتزىء بعض الحالات المتخلفة في المجتمع الجاهلي ، ومثل هذه الحالات متوفرة في كل مجتمع وعصر ، ثم نطلق التقييم العام على اساسها ، وننسى الحضارات الراقية التي ظهرت في الجزيرة العربية في عهد اليمنيين القدماء وفي عهد الانباط والنابذرة والغساسنة .. وننسى تطور الشعر الجاهلي الذي يدل على رقي فكري ، ونتجاهل الحنيفية التي كان يدعو اليها بعض مفكري العرب قبيل الاسلام امثال ورقة بن نوفل واكثم بن صيفي وامية بن أبي الصلت وغيرهم . ألم يكن العرب مادة الاسلام ؟ ألم يقل الرسول العربي بأنه جاء ليتمم مكارم الاخلاق ؟ ...

هنالك امثلة كثيرة تشير الى وجود تناقضات فاضحة في الكتاب الواحد ، واحيانا في الموضوع الواحد ، بل واحيانا أخرى في تقييم الشخص الواحد . واني لا أزال اذكر على سبيل المثـــال ان احد كتب التاريخ يقيم شخصية ابي بكر الصديق بأنه الرجل اللين الهادىء المعتدل وكأنه الرجل الضعيف بالقياس لشخصية عمر بن الخطاب ولكن يذكر في الوقت ذاته أن ابا بكر هو الذي حسم الموقف

بعد وقوع البلبلة على اثر وفاة الرسول عندما قال عبارته المشهورة « ألا من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » وهو الذي أصر على ارسال أسامة على رأس الجيش الذي كان الرسول مزمعاً على ارساله نحو الشمال ، وهو الذي أصر على محاربة أهل الردة بينا كان عمر والصحابة الآخرون يميلون الى مسايرتهم واتباع اللين معهم . ومن الواضح أن ذكر هذه المواقف لأبي بكر يؤكد فيه صفة الحزم والصلابة وينفي عنه صفة اللين والضعف . وباعتبار أن الامثلة على هذه الاخطاء والنواقص في كتب التاريخ الحالية كثيرة جـــداً ولا يتسع المجال هنا للافاضة فيها فاننا نعود لنذكر السبب الثالث ، ولعـــله اهم الاسباب التي تدعونا لاعادة النظر في كتابة تاريخنـا القومي على أسس جديدة .

فمن المعروف ان التاريخ يأتي في مقدمة العوامل الاساسية في تحريك الوعي القومي وتنميته بين افراد الأمة ، ولكن اذا ما اردنا ان نخدم دراستنا للتاريخ هذه الغاية القومية الاساسية والهامة في هذه المرحلة التاريخية من حياة العرب فلابد لنا من اعادة النظر في كتب التاريخ المدرسية من حيث موضوعاتها واساليب بحثها وطرق العرض فيها . اننا لسنا بحاجة الى تزوير الوقائع والأحداث التاريخية ، ولسنا مضطرين الى مجانبة الحقائق العلمية واهمالها فيما سندونه في كتب التاريخ المدرسية ، بل يكفي أن نصطفي الوقائع والاحداث ونعرضها باسلوب علمي سليم بحيث تربط فيها الاسباب بالنتائج وتثير في الطالب روح الثقة والاعتزاز وتؤدي لتنمية مداركه وتوسيع افقه ، وتحرك فيـه الفكر الحر وتعمقه ، وتقوي لديه الملكة السليمة والمناقشة المنطقية ، وتكسبه الخبرة وتمده بالعبرة ، واذا كنا نترك لعلماء التاريخ والطلاب الجامعة المختصين بهـــذه المادة ، ان يتحروا التفاصيل والجزئيات ويغوصوا وراء الحقيقة العلميـة المجردة ، فليس من المفيد في رأينا ان نترك ذلك لمؤلفي التاريـخ

الذي يدرس في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ،ذلك لأن قيمة الوقائع التاريخية في الكتب المدرسية مرتبطة بالهدف الذي نتوخاه منها وليس بالحقيقة المجردة التي تحملها ، وبتعبير آخر ، ان قيمة هذه الوقائع تكمن في مدى القدرة على اصطفائها وحسن انتقائها وعرضها وربطها بشكل تجعلها محركة فاعلة مطورة للنشىء الجديد باعثة له على الثقة بالنفس وعلى احترام حرية الفكر وعلى التضحية والبذل والنضال .

الدكتور نورالدين حاطوم

هل يجب أن نكتب تاريخنا القومي من جديد وعلى أي أساس ؟

التراث العربي في التاريخ غزير موفور على اختلاف أنواعه وأدواره . وهو جزء لا يتجزأ من التراث الانساني ، ولا تظهر قيمته الأصلية الا اذا اخذ مكانه بين ثنايا هذا التراث ، لأن العرب لم يكونوا في يوم من الايام أمة منعزلة . بل كانوا ، بحكم وضعهم الجغرافي وسط قارات العالم القديم ، على اتصال وثيق ودائم بسائر امم الارض . فقد أخذوا واعطوا وتفاعلوا مع هذه الامم وساهموا بقسط وافٍ في خدمة الحضارة الانسانية ، وأمنوا الاتصال بين مختلف الحضارات التي تقدمتهم وعاصرتهم والحضارة الحديثة ؛ هذا بالاضافة الى الاستعداد الفطري والقابلية الذهنية المرنة في تمثل مايقع تحت ايديهم ، والرغبـــة الا كيدة في العمل المنتج ، والتقدم السريع ، والرغبـــة في التطور ، والسعي وراء العلم والمعرفة ، مهما بعد بهما المقام .

لقد أثمر التفاعل الحضاري الدائم بين العرب وغيرهم من الامم في ميادين العلم والأدب والفن ، وانشأت الحضارة العربية ، على اختلاف ادوارها ، طبقات من كبار الادباء والشعراء والخطباء والفنانين والفلاسفة والعلماء والمؤرخين ، وخلفت للأجيال المتعاقبة تراثاً ضخماً ، بالرغم مما اعتوره من أعمال السلب والنهب

والتخريب . والجدير بالذكر ان عدد المؤرخين المهتمين بالتاريخ كان كثيراً في الحياة العربية ، وان المؤلفات التاريخية ، التي وضعها هؤلاء المؤرخون ، كانت متعددة وعظيمة . فهي زاخرة بالمعلومات التي تنير السبيل أمام الباحث المتقصي في اجواء الماضي وأعماقه . وتراث العرب في التاريخ متنوع لم يسلك نمطاً معيناً ، ولم يطرق باباً واحداً ، بل انه نوع وآلف وآخى والف ووفق بين انواع التآليف والتصانيف ، ومن هذا التراث التاريخي ماله صفةالتاريخ العام يعالج قصةالحضارة الانسانية منذ الخليقةحتىعصر المؤلف به ومنها ما يتناول التاريخ الخاص فيحتوي تاريخ البلاد العربية ـ الاسلامية جميعاً ، او تاريخ قطر معين ، او دولة اسلامية ، او مدينة ، أو اسرة ، او سيرة ، أو ترجمة حياة او قصة أسفار ورحلات .

والتأمل في هذا التراث التاريخي ، على اختلاف انواعه وفروعهودرجاته يرى انه قوي مفعم بالمعرفة ، زاخر بالتجربة العلمية ، نابض بالحياة ، لا يغفلجانباً من جوانبها ، بل انه يتناول كلا منها بقدر ما تسمح به الظروف والامكانيات . وهذا ما يبعد عن التاريخ العربي ماتسب اليه بعضهم من انه يهتم بنواح دون أخرى أو يؤكد على وجهات نظر معينة اكثر من غيرها . ويجب ان نعترف هنابأنالقضية تختلف حسب وجهة نظرنا الى التاريخ ومعرفة موضوعاته المعالجة ان كانت عامة شاملة أو خاصة . ولكننا اذا اخذنا التراث التاريخي العربي كلاً واحداً ، وجدنا انه لم يقتصر على تاريخ الملوك دونالشعب ، بل أخذ من كل منها بطرفواستخدم المادة التاريخية حسب مسلمات عصره الثقافية ، وهذا يرجع لعاملين :

١ ـ لأن الحضارة العربية الاسلامية عمت بلاداً واسعة وشعوبا مختلفة .

٢ ـ لأن الثقافة العربية كانت عامة شاملة في المجتمع العربي ، ولم تكن قاصرة على طبقة دون أخرى . وهذا الوضع يختلف تماما عما كانتعليه اوروبة في

العصر الوسيط حيث كانت الثقافة بأيدي رجال الدين يمنعونهـا عن غيرهم ولا يعطون منها الا بمقدار ؛ والشعب يعمه بالجهالة والعامية بعيداً عن اللاتينيـة لغة الثقافة آنذاك ، فضلاً عن النظام الاقطاعي الذي عاشت في ظله كل جماعة اوروبية في اطارها الضيق المحدود ، ولم تتسع جوانب التاريـخ الاوروبي الا منذ ان احتكت اوروبة بشرقنا العربي زمن الحروب الصليبية .

وأذا بدا ظاهراً ان التاريـخ العربي يهتم بالملوك والسلالات الحـاكمة فيجب ان نعترف بأن هذا النوع من التأليف لم يكن في الغالب سوى اطار ونقطة انطلاق للبحث التاريخي ، لأن المؤرخ الذي يعالج السلالة الأموية مثلاً ، انما يعالج في الحقيقة العصر الأموي بكامله على اختلاف نواحيه السياسية والاجتماعيـــة والثقافية بل والاقتصادية ، وما على الباحث في عصرنا الحاضر الا ان يختار من هذه المعارف المنثورة أمامه ، ماير يد مما يتعلق بحيـاة الشعب لأنه يجد نفسه أمام كنز من المعلومات لاينضب . اما ان تكون هذه المعلومات متناثرة في مكان وآخر مع مايشوبها من استطراد وعدم تنسيق فقليل من صبر العالم ودأبه يكشف عن أشياء ثمينة وأخبار قيمة تنقع ظمأ المتعطش الى آي العلم والعرفان .

كما يرى المطلع على التاريـخ العربي بصورة لاتقبل الشك ان مؤرخينـا القـــدامى قد اهتموا بسائر المظاهر الحضارية واحسنوا وصفها في أدق تفاصيلها ، وحسبنا ان نقلب صفحات مؤلفاتهم لنتأكد من صحة هذا القول . ونعتقد ان ليس من الحكمة في شيء ان نطلب من مؤرخينا القدامى الطرق والمناهج والاتجاهات التي نتبعها ونسلكها في القرن العشرين ، اذ لايغرب عن البال اننا في هذا العصر قد بدلنا طرق دراسة التاريـخ وتأليفه تبعاً للاتجاهات الفكرية والثقافية السائدة . واذا كان هنالك مجال للمقارنة والحكم فليقارن مؤرخونا مع معاصريهم في الأمم

الأخرى ليرى انهم كانوا في الطليعة ، لأن الشيء المعجب عندهم هو هذه الروح العلمية الحق التي توجه اعمالهم. وانك لتجد الواحد منهم يقضي العمر وهو يدرس ويتفقه ويؤلف ولا يتوانى عن بذل الغالي والنفيس وركوب الاخطار والبعد عن الديار والقيام بالرحلات الدراسية والاستطلاعية ليمد تآليفه بنسغ جديد وفكرة حديثة وبحث طريف . ولا غرابة اذا رأينا الواحد منهم قد خلف وراءه مجموعة من الكتب مازالت تعتبر من امهات الكتب التاريخية التي يرجع اليها في كل حين: فمؤلفات الطبري وابن خلدون وابن الاثير وابن عساكر والمسعودي وغيرهم تعتبر بحق خير دليل على الجهود الموفقة التي بذلها مؤرخونا في حقل المعرفة وعلى قيمة الانتاج العلمي الذي خلفوه في وقت لم يكن لديهم مطابع او أمناء سر او من يقوم عنهم بأعمالهم الكتابية الشاقة، الى جانب ابحاثهم وتآليفهم الرصينة . لقد كانت تحدوهم نزعة صوفية عميقة تحب العلم والعمل وخدمة الحقيقة العلمية التي تقربهم من الذات الإلهية وتجعلهم متواضعين ، لاعلم لهم الا ماعلمهم الله .

ولكن هذا المجهود العلمي الكبير بحاجة الى اللفظ والبعث والاحياء والاخراج بحلة قشيبة وعرض جديد ليكون شفافاً مستساغاً تقبل عليه الشبيبة العربية الدارسة بشغف وشوق ، لأن الملاحظ ان هذه الشبيبة تحجم عن مطالعة الامهات التاريخية ، لا لسوء ارادة منها ، بل لأن طريقة هذه المؤلفات في عرض المادة التاريخية اصبحت لاتأتلف ومتطلبات العصر الحاضر ، ولا يخفى مالالمشوقات والمشجعات من أثر في النفس . وهذه الملاحظة يجب اخذها بعين الاعتبار لأن احجام الشبيبة العربية عن مطالعة تراثها يتعلق بالجزء الكبير منها. يضاف الى ذلك ان هذه المؤلفات تضم الكثير من المعلومات مما هو عميق وما هو سطحي ضحل ، او خرافي اسطوري وغريب ، ومكرور دون اهتمام بابراز النواحي الكبرى ذات

الصدارة التي كان لها الأثر الاكبر في تطوير المجتمع وتحويله والتعبير عنه، مع مايشوبها من عدم الترتيب والتبويب والتنظيم. ومن هنا تأتي ضرورة اعادة كتابة تاريخنا العربي على ضوء علمي جديد. والعالم العربي اليوم في نهضة عامة شاملة، مهما اختلفت مظاهر هذه النهضة قوة وضعفاً بين بلد وآخر، وان من شروط كل نهضة قوية الحرص على المقومات الاساسية في الأمة ودوام استمرارها وخلودها. وتاريخنا العربي تأثر بمؤثرات مختلفة شوهت حقائقه وفسرته في الغالب تفاسير خاطئة ان لم تكن مغرضة. ونعتقد ان من واجبنا القومي والعلمي في نهضتنا الحالية يحتم علينا الكشف عن حقيقتنا التاريخية الأصيلة في تراثنا التاريخي العظيم لنرد التهم وندفع الباطل والريب ونبرز هذه الحقيقة سليمة من كل شائبة. وهذا لا يتوفر الا اذا كتب تاريخنا من جديد بنظرة علمية وعربية ضمن المنهج الآتي:

١ - ان يوضع التاريخ العربي العام ضمن الاطار التاريخي العالمي لأن الامة العربية جزء من الانسانية تتأثر بها وتؤثر فيها.

٢ - أن يبرز التاريخ العربي كلا متماسك الاجزاء والحلقات في مختلف بلاده وعلى مر ادواره وعصوره، وان بدا ظاهراً مفككاً في بعض فتراته لأن الاساس الذي يجب ان يعتمد عليه هو الشعب العربي لا تبدل الحكومات والحكام.

٣ - ان يكون رائد التأليف الحياد العلمي والنزاهة الفكرية ليظهر العرب على حقيقتهم وجوهرهم. ولا يتحقق هذا الا اذا سلك المؤلفون المحدثون طرق البحث العلمي القديم، بعيدين عن كل تعصب او انحياز للأموات والأحياء على حد سواء. ولن يتوفر هذا العمل الا اذا عاش المؤرخون في اجواء الحرية العلمية غير متأثرين بما حولهم من اخطار دعائية او مذهبية أو مسبقة تفسد عليهم عملهم وتجعلهم اقرب الى المزيفين منهم الى العلماء الباحثين.

٤ ـ ان يتعاون المؤرخون العرب تعاوناً علمياً وثيقاً وذلك يكون بجمع شملهم وتقسيمهم الى فئات حسب دراساتهم ، وتقسيم التاريخ العربي الى فترات زمنية وتخصيص كل فئة مختصة منهم بفترة معينة وعلى هذا النحو تحل مشكلة المصادر بتبادل المؤلفات والمعلومات والوثائق ووسائل العمل الأخرى .

٥ ـ ان يرعى هذا العمل العلمي الضخم راع يسهر عليه ويتابعه . ومن الممكن ان تقوم الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية بمهمة الاشراف والتوجيه فتدعو الى عقد مؤتمر يضم المؤرخين العرب ليتبادلوا الرأي ويضعوا خطة ناظمة للعمل وتوزيعه ، وينتخبوا منهم لجنة مركزية وظيفتها الجمع والتنسيق والمتابعة والنشر وتقدير الجوائز العلمية .

ونعتقد أخيراً ان الفائدة العملية التي تجنيها الأمة العربية من هذا العمل هو وعيها لتاريخها المتماسك وعياً اكيداً على حقيقته ، وشعورها بترابط اجزائه في شتى الظروف . وهذا الوعي في حد ذاته مقوم عظيم من مقومات القومية العربية في العصر الحديث ، وعامل موحد قوي للعرب في حيزهم الجغرافي من الخليج الى المحيط ، وفي غابر تاريخهم وحتى في احلك عهوده . لأن الأمة التي تشعر بوحدتها وقوة تماسكها في الماضي ، تشعر ايضاً بضرورة وحدتها وقوة تماسكها في الحاضر والمستقبل ، ولاسيما أمام الأخطار التي تجابهها من كل نوع ؛ ولأن تفهم الأمة لتاريخها على حقيقته بحلوه ومره ، ونوره وظلامه أشد تأثيراً في نفوس المواطنين من تلقينه وفرضه بأساليب دعائية مزيفة فارغة وعرضة للتبديل والتغيير في كل حين ، وامام كل عاصفة . ولذا فالفائدة التي نجنيها من كتابة تاريخنا على أساس علمي جديد ، وبنظرة عربية هي في الحقيقة فائدة ثقافية وقومية في آن واحد تدخل في تكوين المواطن العربي الصالح الذي لايبدل عقيدته في أمته وشرف الانتماء اليها مهما تغيرت الظروف والأحوال .

الاستاذ زكي الارسوزي

ملاحظات على المنهج في تاليف التاريخ العربي

لست بمؤرخ ، ولا متخصصاً بمادة التاريخ وان كنت قد مارست ، لفترة من الزمن ، تعليم هـــذه المادة . ومع ذلك فاني ارى من واجبي أن ابدي ، ولو بصورة مختصرة ، بعض ملاحظاتي على المنهج في تأليف تاريخنا القومي ، اني ارى لزوم التمييز بين وجهتي الحضارة ، بين المدنية والثقافة (الحدث) واعني بالمدنيـة مجموعة الآلات التي يستعين بها الانسان على اخضاع ظروف البيئة لمشيئته ومجموعـة الانماط الفكرية المتأولة في السبل المؤدية الى اختراع هذه الآلات اي الخبرات العلمية والعملية في هذا الشأن ، يجب على المؤرخ أن يظهر تاريخ المدنية كصراع الانسان مع الطبيعة في سيطرته على ظروف البيئة وجعلها ملائمة لنمو الحياة وازدهارها، ولما كان تاريخ صراع الانسان مع الطبيعة مشتركاً بين البشر ، فقد وجب وضع التاريخ على الوجه الذي يظهر فيه شأن العرب في خدمـــة الحضارة من زاوية المدنية،على سبيل المثال:اظهار شأن العرب في تحويل حروف الكتابة من التصويرية (الهيروغلوفية) الى الرمزية ونشرها بين الاقوام . وبالمثل يجب اظهار فائدة العرب من الطباعة الى حل اكتشافها من قبل اقوام اخرى ، او اظهار الافادة من منطق ارسطو في صوغ قوالب الفكر السليم رغم مافي ذلك من ضرر في تطبيقه على مناقشة الشؤون الدينية ذات البنيان الرحماني .

ان لقي اظهار التبادل في الخبرة بين الاقوام خدمة جلى لتعـــاون بني الانسان واعداد اذهانهم للتعاطف فالعمل المشترك من اجل خير الانسانية .

واما الثقافة فهي نظام من المعاني خاص بكل امة تتمع ببعض الاصالة .

وكلمة « عقيدة » في اللسان العربي تشير بصورتها الحسية : انعقاد الحياة على الجنين او انعقادها على الزهر ، ان ثقافة الامة في انكشافها على مثال الحياة في انكشافها في الكائن الحي . ان تكوين الثقافة يتم حيوياً على مثال القصيدة هـذه وان تألفت من كلمات الا ان الـكلمات توحي بانتظامهـا واتساقها بمعنى مشترك هو من الكلمات بمثابة الروح من الجسد . كذلك هي ثقافة الامة وتاريخ ثقافة امة من الامم هو تاريخ جهود ابناء هذه الامه في الكشف عن ذات الامة وتحقيق حقيقتها . وصدق وجهة نظر الامة في ثقافتها يقاس بعاملين ، بمـا تمنح من حرية لابنائها في انشاء حياتهم ذواتاً وبما تمهد لهم من اسباب لاختراع الآلات التي تساعد على استثمار الطبيعة ، ونحن نعني بالحرية القدرة على ابداع الفنون كالشعر والرسم والنحت والبناء .. الخ

واما تاريخ السياسي فهو سجل محاولات ابناء الامة في تنظيم العلاقات بين المواطنين بما يساعد على ازدهار الشخصية وابلاغها الى مستوى الحرية والابداع . وتاريخ علاقة الامة بالامم الاخرى ان هو الا محاولات يؤكد بها الابناء صدق ثقافتهم ومدى لزوم الجهد والجهاد في سبيل هذا التوكيد . والى جانب ذلك يجب اظهار المحاولات الفاشلة الحاصلة من تقصير ابناء الامة في جهادهم واجتهادهم في اداء رسالة الامة الى الانسانية ، اعني بذلك اظهار اسباب الانحراف .

ثقافة الامة تتمثل بلغتها وعرفها وتقاليدها وشريعتها وآدابها وفنونها ودياناتها وتأملات نوابغها في موقفهم من الطبيعة ومن الحياة نفسها .

ولما كانت ثقافة الامة تمثل الانسانية من زاوية معينة ولما كان اصطفاء التراث يتم وفق هذه الزاوية . فقد اصبح من الفائدة الكشف عن التأثير المتبادل بين ثقافة الامة المتبلورة في اتجاه ما وبين ثقافات الامم الاخرى المنطلقة من زوايا مختلفة ، بحيث يتيسر لابناء الامة الواحدة استجلاء النواحي الضامرة من الحقيقة الانسانية في ثقافتهم واستجلائها على ضوء ما تجلى بوضوح عن هذه الحقيقة في ثقافة الآخرين ، وعلى سبيل المثال : تمركز اهتمام العرب على الوجدان ، على الوجهة الانسان من الحضارة . واطلق اسم نبي على من تبلورت فيه النزعة الى سبر اغوار الوجدان والكشف عن الحقائق الخالدة فيه كما اطلق اسم رسول على من حاول تنظيم المجتمع على ضوء الحقائق المتجلية . ولكن الطبيعـــة ظلت في التراث العربي مهملة بالنسبة لاهتمام العرب بالانسانية . غير ان الشعوب اليونانية الجرمانية قد تركز اهتمامها على الطبيعة ، على الكشف عن الحقائق الكونية وعلى استخدام هذه الحقائق في الصناعة . في حين ان الناحية الانسانية عند هذه الشعوب بقيت دون الاهتمام الذي بلغته الطبيعة من اهتمام . وذلك ما ادى الى بقاء اعلام العرب في الدين والاخلاق في مرتبة ثانوية (مقام القديس بالنسبة للنبي) وذلك ما ادى الى بقاء العرب في غفوتهم عن الطبيعة حتى تحت يقظة الشعوب الاوروبية . ان اقامة المقارنة بين الثقافة العربية وبين الثقافات الاخرى يكشف عن تعاون الاقوام في تحقيق ذاتهم فضلاً عن افادتهم من تجنب الخطأ الذي يحصل من الشطط اي من الضمور والجنوح على السواء .

هنالك ملاحظة اخرى نضيفها الى الملاحظة الاولى وهي ابراز الامة العربية كأهل لثقافات الشعوب الملقبة بالسامية : الكلدانيون ، والآشوريون ، والآراميون والعبريون ومصر الفرعونية .. الخ .. اعني بذلك اعتبار اللغة العربية هي الام للغات الشعوب السامية على اعتبار ان اصول كلماتها في اللغة العربية الفصحى وان

اساطيرها تقدم على تفسير الكلمات العربية بحسب اشتقاقها ، مثلا الاله فتاح في مصر القديمة هو اله العدالة (القاضي الذي يفتتح جلسة المحكمة . والاله ادونيس في فينقيا هو اله العطاء ، الفيض ، الجمال بحسب اشتقاق الكلمة من أدّى بمعنى أعطى .. الخ ..

من فوائد ابراز العلاقة بين العرب وبين الشعوب السامية توجيه الانتباه الى تفخيم ما ضمر في النفس العربية من امكانيات .

ملاحظة ثالثة نسوقها : كان المؤرخ العربي يهمل القاعدة ويركز الاهتمام على القمة بحيث اصبح التاريخ تاريخ اعلام . في حين ان العلم يظهر بمقدار تمثيله لما يتخمض الجمهور من نزعات ، ومهمة النابغ هي ابلاغ الغامض المبهم الى مستوى الوعي . وذلك ما يستدعو المؤرخ المستقصي للاسباب ان يغوص في الاعماق ويربط ما برز منها بما هو مشترك مبهم في صميم الشعب .

فما برز من اعلام في الدين كرؤساء طرق ، يدل على قوة الشعور الديني في الجمهور كما بروز رجال العلم والصناعة في المرحلة التاريخية الراهنة يدل على الطابع العلمي الصناعي لعصرنا .

اضيف الى الملاحظات السابقة الرأي التالي :

ينبغي في صوغ كتب التاريخ للناشئة ، ابراز اصول العناصر التي منها يتألف واقعنا ، اذ اكتساب الشعور بالاسباب يساعد على تمييز ما يصلح للبقاء من هذه العناصر مما لا يصلح للبقاء ، فلو ابرزنا عوامل ظهور احد المذاهب وابرزنا بعد هذه العوامل عن طبيعة المرحلة التاريخية ، لخف تسغ الحياة عن المذهب وانقشع التعصب المؤدي الى انغلاق المذهب نفسه .

الاستاذ محمد المبارك

ان دراسة التاريخ دراسة موحية وموجهة وحافزة وان تكن تصويراً لوقائع ماضية ومحاولة لنقل الحقيقة كما هي، مع انتقاء هذه الوقائع وطريقة عرضها تؤثر تأثيراً قوياً في تفكير الجيل الذي يدرس هذا التاريخ وفي نفسيته وعواطفه.

ان التاريخ القومي يشتمل على وصف الاتجاهات الصالحة والصفات الطيبة والمكاسب الحضارية العامة ليستمر الجيل في سلوك الطريق القويمة ويناضل في سبيل المثل العليا. كما يشتمل على المساوىء والظاهرات التي تعتبر امراضا اجتماعية وأسبابا للانحطاط أو الهلاك كظاهر الترف في العصر العباسي وفي أواخر العصر الاندلسي وكالاستبداد الفردي الذي ساد في بعض العصور ، ليحاول الجيل دفعها عن مجتمعه الحاضر .

فتاريخ كل أمة يعطي صورة عنها ويحدد موقعها بالنسبة الى تواريخ الامم الاخرى ويشعر الجيل الجديد بموقعه من امته بين ماضيها ومستقبلها ليتخذ لنفسه طريقاً للسلوك .

وتاريخنا في العصر الحاضر في حاجة الى اخراج جديد ذلك انه اصيب بآفتين احداهما ماأصابه من اسفاف وسطحية في عصر الانحطاط الاخير وثانيتها وهي أدهى وأمر ماأصابه بسبب التقليد الاعمى للتاريخ الاوربي ومفاهيمه

ونقل مشكلاته نقلا والتأثر بنظرات اعدائنا تارة او الاجانب الذين لايحسنون فهم تاريخنا واحكامهم الخاطئة او المدسوسة من المؤرخين الاوربيين والمستشرقين.

نحن في حاجة الى نظرة واعية صحيحة لتاريخنا مطابقة لذاتينا فيهــا استمرار لمثلنا العليا منسجمة مع مفاهيمنا ونظراتنا ترينا مفاخرنا الصحيحة حتى نلتزمها ونكملها وعيوبنا واخطاءنا حتى نتجنبها . ولابد لكتابة التاريخ تحقيقاً لهذه الغاية من شروط يجب التزامها او مبادىء يجب مراعاتها وهي :

١ - الفهم الصحيح لتاريخنا وخصائصه

٢ - استجلاء منطق هذا التاريخ دون تشويهه بفرض مذاهب جديدة عليه او تفسيره بواسطة نظريات غريبة عنه او الاندفاع فيه بدافع العصبية.

٣ - تقويمه بمقاييس انسانية مشتركة وتحديد موقع حضارتنا من الحضارات العالمية الأخرى .

٤ - احياء التراث وجمع المصادر لاستجلاء هذا التاريخ استجلاء صحيحاً .

أما الشرط الاول

ان لكل تاريخ (صيغة حضارية) تنظم حوادثه ودوافع نفسية اجتماعية منبثقة من ظروفه الخاصة وانمــا يفسر كل تاريخ بصيغته الخاصة ودوافعه وان الخطأ الكبير هو تفسير تاريخ ما بمنطق تاريخ آخر .

وان الصيغة الحضارية لتاريخ العرب التي تحدد معالمه الذاتية بالنسبة الى غيره والتي اختارهــا العرب لحضارتهم او التي ادت ظروف القدر التاريخي ان تكون صيغة حضارتهم هي ايمانهم بايجاد حضارة انسانية تجتمع عليهــا الشعوب والاقوام على صعيد مشترك من المفاهيم الفكرية ونظم الحياة التي تتحقق فيها المساواة

بين البشر واقامة العدل وسائر المثل العليا التي تتقدم بالبشرية ماديا ومعنويا وقد كان (الاسلام) هو جماع هذه المثل العليا وهو اساس هذه الحضارة وكان العرب هم المؤمنون به اولا والداعون الى حضارته والمجاهدون في سبيل توطيدها والمشرفون على بنائها وكانت خصالهم ومكارمهم الطيبة في العصر الجاهلي خير اداة مهيئة لهذه القدرة على التنفيذ والاضطلاع بعبء الرسالة . وقد تحققت فعلا هذه الحضارة وكانت اعظم خصائص التاريخ العربي اتصاله بهذه الرسالة وهذه الحضارة واعظم منجزاته مما لم يسبقوا اليه هو تأسيسهم لحضارة تتعاون على صعيدها المشترك على اساس من الحرية والمساواة والعدالة شعوب عديدة آمنت برسالة الاسلام او قبلت الانضواء تحت لواء نظامه وحضارته فكان موقع العرب في هذه الحضارة هو موقع (الدعاة) لها و (البناة) و (القادة) المشرفين على التنفيذ وعلى تحقيق هذا التعاون في سائر مجالات الحياة .

ان كل كتابة او صياغة للتاريخ تتجاهل هذه الحقيقة الموضوعية او تتجنبها او تقحم عليها نظرة اخرى غريبة عنها تفسد هذا التاريخ بل تفقده اهم مكاسبه الانسانية والحضارية وهي حقيقة موضوعية تبدو لكل باحث متجرد مهما تكن نحلته او قوميته .

ان هذه النظرة عدا كونها حقيقة ، تجعل من العرب شعباً رائداً للانسانية مجاهدا في سبيلها من غير اثرة ولا استعلاء . واما صيغة (الامبراطورية العربية) مثلا فهي تجعلنا في صف المستعمرين وتصمنا بوصمة الاستعمار و (الامبريالية) التي تعني في لغتها الاعجمية الاستبداد الفردي في الحكم واستعلاء شعب حاكم على شعوب محكومة !

الشرط الثاني

ان هذا الاساس الاول الذي قدمناه هو الذي يمكننا من استجلاء منطق التاريخ العربي ومعرفة البواعث النفسية الاساسية المحركة فاذا اضفنا اليه العوامل

المساعدة والظروف المحيطة في كل عصر ومرحلة تمكننا من تفسير التاريـــخ وتعليل حوادثه .

ولذلك يجب ان نتجنب في كتابة تاريخنا اقحام نظريات غريبة عنه كانت وليدة ظروف تواريخ شعوب اخرى تمخضت عنها احوالهم وظروفهم فلا يمكن ان نفسر الفتوحات الاسلامية في عهد الراشدين بالتفتيش عن المواد الاولية اوايجاد سوق استهلاكية ولا بتحقيق مجد قومي وان من السذاجة او التلفيق التاريخي (Anachronisme) ان نقسم الصحابة الى يمينيين ويساريين والى اجنحة يسارية معتدلة ومتطرفة ان الاساس في الفتوحات وفي تصرفات الراشدين وتفكير الصحابة المحيطين بهم هو بالدرجة الاولى ايمانهم برسالة الاسلام وتحقيقها في المجتمعات البشرية وهذا لا يمنع ان تكون لكل منهم ضمن هذا النطاق آراء خاصة هي نتيجة ظروفهم الخاصة وتكوينهم الشخصي .

ان تطبيق نظريات حديثة هي وليدة ظروف معينة في بيئة معينة كالماركسية وغيرها على تاريخنا العربي هو تغيير لمنطق التاريخ وتحل شخصيات تاريخ ما نفسيات تاريخ آخر وهو ماسميناه بالتلفيق الزمني او التاريخي .

ان انطلاقة العرب الكبرى لا تفسر لا بالنسبة للافراد ولا بالنسبة الى جمهور الشعب العربي يومئذ ، لا بدافع اقتصادي ولا بتغير آلة الانتاج ولا بتغير نظام التملك لوسائل الانتاج ولا بدافع المجد القومي وانما تفسر بالدرجة الاولى (بالاسلام) الذي آمن به العرب ولا مانع من أن تكون هناك عوامل اضافية مساعدة .

يجب ان تكون الحقيقة الموضوعية اساساً في بيـــان المفاخر والامجاد والمساوىء والاخطاء ولسنا في حاجة بدافع من العصبية القومية الى انتحال المفاخر فان في تاريخنا من المآثر الحقيقية ما يغنينا عن ذلك .

- ان النظرة القومية الضيقة التي تتجاهل الاتجاه الانساني للقوميات الذي يمثل خط التطور الطبيعي للبشرية اصبحت نظرة متخلفة في الشعوب الراقية وغدا الاتجاه نحو التعايش السلمي بل التعاون الانساني هو الاتجاه الذي يمثل التقدم في البشرية ولذلك فان الذين يريدون ان يكتبوا تاريخ العرب بوحي من هذه النظرة القومية الضيقة يعملون لعصور انقضت ويعاكسون اتجاه التطور السليم نحو التقاء الشعوب على صعيد انساني مشترك دون ان تضيع ذاتيتها وهم كذلك يفرضون على تاريخنا منطقاً غير منطقه بل يقللون من شأن التاريخ العربي الذي كان له دور انساني عام وكان هذا من اعظم مآثره ومفاخره . وقد بلغ الجهل او الغرض ببعض من يكتبون في هذه الموضوعات ان يلمحوا ان العصر الجاهلي هو عصر الازدهار وقد اسقطوا بذلك اعظم مفاخر العرب انفسهم في بناء الحضارة الانسانية التي قامت بالاسلام وفي نشر المبادىء الانسانية التي حملوا رسالتها وهذا كلام بالاضافة الى كونه جهلا بالحقائق التاريخية ينطوي على لون من الشعوبية هو من اقبح الوانها حقداً وضلالا .

ونضيف هنا ان تقليد التاريخ الاوربي تقليداً اعمى ادى بنا احياناً الى نقل مشكلات خاصة به وليست هي مشكلات في تاريخنا او لها شكل آخر ومن امثلة ذلك الخلط بين النظام الاقطاعي في اوربا وهو نظام حقوقي معترف به يقيم علاقات جائرة بين الفلاح وصاحب الاقطاع وبين الملكية الكبيرة او الواسعة التي ظهرت في عصورنا التاريخية ومنها مشكلة الصراع بين الدين والعلم في اوربا وما شابه ذلك من مشكلات غريبة عنا او لها وضع آخر .

الشرط الثالث

وهو نتيجة للشرط الثاني وذلك بأن نضع تاريخنا في موقعه من التواريخ وحضارتنا في موقعها من الحضارات وان نقوم تاريخنا لا بمقاييس

خاصة بل بمقاييس انسانية مشتركة ونحن اذا كتبنا تاريخنا على اساس الصيغة الحضارية التي رسمها الاسلام استطعنا ان نقول للبشرية جميعا أننــــا حققنا مكاسب انسانية لامكاسب قومية خاصة فحسب فقد حققنا التعاون الثقافي بين شعوب مختلفة وكان لذلك نتائج باهرة وتقدمنا بالفكرة الانسانيــة المتحررة من استعلاء الانسان على الانسان فرداً او جمــاعة او شعباً وترجمناها في مؤسسات اجتماعية وفي تشريــع. أن الاساس الذي اقترحناه لكتابة تاريخنا والصيغة الحضارية التي رأينا انهــا تمثل ذاتية هذا التاريخ كما تمثل في الوقت نفسه انسانية تمتاز بالمزايا الآتية :

١ ــ انها تفسر هذا التاريــخ العربي تفسيراً سليما بالاضافة الى العوامل الاخرى التي تقدمها لنا ظروف كل حقبة تاريخية ذلك انها تفسره بدوافعه الحقيقية الاساسية وهو شعور العربي او وعيه للاضطلاع بعبء رسالة انسانية عامة تتجاوز بساحتها حــدود ارضه وقوميته وقد لخص احسن تلخيص رسول الجيش العربي الفاتح الى قائد الفرس وهو الصحابي ربعي بن عامر اذ قال جواباً على مساومة القائد الفارسي: انما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله (وذلك هو تحريرهم من كل عبودية) ومن جور الاديان الى عدل الاسلام (وذلك هو العدل الاجتماعي).

٢ ــ انها تمدنا بقيم نقوم بها حوادث هذا التاريــخ وعصوره واشخاصه اصلاحاً وفساداً وبمقاييس قاس بهـا اسلافنا فعلا اعمال الحكام من خلفاء وغيرهم وحكموا عليهم بالاستقامة او الانحراف بمقدار تحقيقهم لأهداف هذه الحضارة الخيرة الانسانية او تجافيهم عنها فلم يكن تاريخنا سجلا لمفاخر افراد او ابطال يؤلهون بل سجلا لصفحات حضارة ولمكاسب انسانية تتسع دائرتها على الارض وتشمل شعوباً وجماعات انسانية ولم يكن الاشخاص في ذلك التاريــخ الا منفــــذين يحكم عليهم بمقاييسه وليسوا هم الحاكمين عليه ولذلك كان بدء تدوين هذا التاريــخ في تسجيل (الفتوحات) و (الغزوات) لا في تراجم الملوك او الخلفاء.

٣ ـ انها تبرز اعظم ماقدم العرب الى الانسانية وهو ليس ثروة مادية تفنى ولكنه لغة ثقافة انسانية وهي (العربية) ومبادىء انسانية تجلت في دين هو (الاسلام) انبثق عنه تقدم فكري ورقي خلقي ومؤسسات الاجتماعية وحضارة انسانية.

٤ ـ انها تحفظ صلاتنا الاخوية الانسانية بشعوب تعاونت مع العرب وقبلت حكمهم عن طواعية ايماناً برسالة الاسلام المشتركة وماتضمنته من مثل عليا وكانت مشاركة في الثقافة ومجالات الحياة الاخرى ولم تكن مستعمرة ولامستعبدة خلافاً لصلات اليونان والرومان مع الشعوب التي حكموها.

٥ ـ انها تحل مشكلة وصف الحضارة التي تنسب الى هـذا التاريخ فاذا اعتبرت لغتها الاساسية وبناتها الاولون فهي حضارة عربية واذا لوحظت المبادىء التي شيدت عليها فهي حضارة اسلامية.

٦ ـ انه لاضير فيها في الوقت نفسه على غير المسلمين من ابناء العروبة فالاسلام بهذا المعنى الحضاري هو تراثهم القومي وثقافته ثقافتهم وقد اخذ بهذه النظرة الكتاب والمفكرون من مسيحيي العرب كالدكتور نقولا زيادة وفيلكس فارس وجورج انطونيوس ونبيه فارس وجميل صليبا وغيرهم فيما كتبوا والفوا وانوا لاءهم للحقيقة وولاءهم لقومهم العرب وتاريخهم ليحملهم على السير في جادة الحقيقة الواضحة.

٧ ـ وعلى هذا فليست اعادة كتابة التاريخ الا لتحريره من سطحية عصر الانحطاط ومن فقدان الوعي الذاتي ومن دس المؤرخين الاجانب اوجهلهم ومن التقليد الاعجمي للنظريات الاجنبية الغربية ولاظهار الاتجاهات الانسانية والتقدمية الاصيلة في تاريخنا وليس من اجل اي تغيير مذهبي.

مصادرنا التاريخية :

ان المكتبة العربية غنية بالمصادر التاريخية وهي كثيرة ومتنوعة ومتفاوتة في درجة الثقة بها وهي نوعان كتب معروفة على انها كتب تاريخ كتاثار الطبري

والمسعودي ومسكويه وابن الاثير وابن كثير وابن الطقطقي وابن خلدون وكتب المغازي والفتوح كالبلاذري وكتب الطبقات والتراجم وهي كثيرة جداً ومنها كتب هي مصادر تاريخية ككتب الادب كالعقد الفريد والاغاني وعيون الاخبار وهي كذلك كثيرة وغنية بمعلوماتها وكتب الفتاوى الفقهيـة وكتب الحسبة والرحلات وغير هذه الانواع من المؤلفات والآثار التي لاتحصى وهذا النوع من الكتب غير التاريخية في ظاهرها ربما كان اعظم في قيمته وفي سعة افقـه ومادته من كتب التاريخ نفسها .

اما مايقال من ان التاريخ المدون هو تاريخ الملوك والرؤساء فلا ينطبق على تاريخنا ولو انطبق على كثير من تواريخ الامم فان اول مادون من التاريخ عندنا لم يكن سيرة ابي بكر وعمر والخلفاء وانما كان كتب المغازي والفتوح فكان اهتمام الناس بما حصل ايام عمر مثلا من فتوح اومن خطط سياسة اواقضية اومشكلات ولذلك لم تكن تلك المؤلفات موضوعة لخدمة الخليفة عمر اوللاشادة به بل كانت مشتملة في كثير من الاحيان على ما كان يوجه من نقد للخليفة او الوالي من قبل الناس ولا سيما من اهل الرأي من الصحابة والتابعين وعلماء الامة .

واذا كان قد حصل هذا ففي العصور المتأخرة ولم يعرف تاريخ امة من الامم بوضع حكامه وقادته وملوكه على مائدة التشريح وتعريضهم للنقد ابتداءمن الخلفاء الراشدين انفسهم كما عرف تاريخنا وان كثيرا من الخلافات نشأت بسبب اختلاف آراء الناس في الخلفاء وبسبب هذه الحرية الواسعة في النقد .

كما ان المنهج العلمي في تحقيق حوادث التاريخ ونقدها بلغ في تراثنادرجة رائعة لم تبلغها الحضارات السابقة بل الحضارة الحديثة في بعض جوانبها

الاستاذ ياسين الحافظ

١ - اذا صدقنا الموضوعة التي تقول : « الايديولوجيا السائدة هي ايديولوجيا الطبقات السائدة » ، عند ئذ لابد ان نأخذ موقف التحفظ حيال المصادر الموجودة . ولكن هذا التحفظ « يعني الرفض التام النهائي ، بقدر مايعني الغربلة والتمحيص والذهاب في محاولة صادقة وواعية لاستخلاص الحقيقة التاريخية، خلال مختلف مراحل ماضينا .

المراجع المتوفرة حالياً تتحدث عن التاريخ العربي و كأنه كوم أحداث ومعلومات وأخبار ، وترى الى التطور التاريخي و كأنه مجرد قدر يحمل الحظوظ الحسنة والسيئة . وهكذا تفتقد طريقة البحث والعرض في هذه المراجع مايمكن تسميته بقوة التجريد ، التي تذهب الى الاسباب المعقدة العميقة البعيدة الكامنة خلف ما هو مباشر وظاهري وناتج من الاحداث والظواهر التاريخية .

ان ضرباً من «المكارثية» ما تزال تشل وتخنق أي محاولة علمية وموضوعية لدراسة التاريخ العربي . وهذه المكارثية دينية الى حد كبير ، وقومية بورجوازية الى حد ما . ودونما أي محاولة لتقييم محاولة طه حسين او الدفاع عنها (ورغم أننا لا نرى في « الديكارتية » طريقة كافية وكاملة لتفسير التاريخ ، ولكنها على كل حال خطوة الى أمام اذا قيست بالطريقة الدينية) فان الارهاب الذي تعرض له

طه حسين قد خنق كل مبادرة جدية في هذا السبيل ، حتى اضطر طـه حسين نفسه للعودة الى « الحظيرة » .

فاذا أضفنا الى هذا السبب تأخر انتقال الفكر الاجتماعي العلمي الحديث الى بلادنا وثقل تفاعلنا معه ، تكشفت لنـا الاسباب الأساسية لتخلف الدراسات الراهنة في التاريخ العربي . ان كتب التاريخ العربي الراهنة ليست متخلفة عن المنهج التقدمي في تحليل التاريخ فحسب، بل متخلفة حتى عن الموضوعية البورجوازية في الغرب . وفيما عدا بعض المحاولات الجديدة وابحاث عدد قليل جداً من المستشرقين، فان كتب التاريخ المتداولة والرائجة ما تزال مكتوبة بعقليـة القرون الوسطى ؛ مضافاً اليها بعض المحاولات القومية البورجوازية ضيقة الافق ومتعسفة ، تحـاول « نفخ » التاريخ العربي ، لاستخراج القوميـــة العربية من الصراع مــــع الشعوبية او من موقعة ذي قار او من بعض ابيات الشعر نطق بها شاعر عربي في وحشة الغربة؛ او استخراج الاشتراكية من ظاهرات معزولة او استثنائية وهامشية، ومن فورات احساس فردي بالغ الارهاف تجاه بعض مظاهر البؤس الاجتماعي .

التشويه او التبسيط ، نفخ الحقائق او القائها في الظلال ، تحويل النتائج الى أسباب والاسباب الى نتائج ، تحويل ما هو هامش الى أساسي وبالعكس : تلك هي الاساليب المهيمنة على معظم المصادر المتوفرة حالياً عن التاريخ العربي ، وتتناول التاريخ العربي من جميع جوانبه ، والحضارية منه بخاصة .

ان كتابة علمية جديدة للتاريخ العربي يمكن ان تتوفر من خلال عودة جادة الى المصادر العربية القديمة (شرط اعتبارها مجرد أخبـار) ، على ان يتوفر الباحثون على اخلاص عميق للحقيقة ، وان يكونوا ممتلكين ناصية الفكر الاجتماعي العلمي الحديث ... مستلهمين آفاقاً تقدمية ... مؤمنين بعمق بالجماهير الشعبية .

تلك مهمة صعبة وطويلة ، جديرة بمساعدة ودعم جميع قوى التقدم في الوطن العربي .

٢ — ثمة حقيقة ثابتة في علم النفس : يعوض الشيوخ (والشيخوخة عجز أمام الحاضر) عن نضوب حاضرهم وعجزهم إزاء المستقبل بالحديث الدائم الملح عن الماضي ، تلك حقيقة تنطبق على الشعوب ايضاً ، وبخاصة المستعمرة منها والمتخلفة .

أمام النضوب الذي يعانيه واقعنا الراهن . . أمام هذا البؤس .. وأمام محاولات الاستعمار تجريد تاريخنا من كل قيمة ، يصبح الارتداد نحو الماضي وسيلة لرد الاعتبار أمام انفسنا وامام الآخرين ، هذا هو معنى الاسئلة التي تطرح : كيف نتخلص من الشوائب التي تحط من قيمة تاريخنا ؟ !

ولكن ثمة ازلاقات محافظة ينبغي أن نحذر منهـــا : ليس في التاريخ شوائب تخجلنا فنهرب منها أو مفاخر تبهرنا وتجرنا الى وراء لنلتصق بها . فالتاريخ ليس مصيباً في جانب ومخطئاً في جانب آخر ، اذ تاريخنا الحقيقي هو ماضينا بكل جوانبه واحداثه . ان القاء جزء من التاريخ في الظلال وتضخيم جزء آخر وزركشته ليس مجرد تزوير للحقيقة وافتئات عليها فحسب ، بل هو مساهمة في خلق ضرب من « المانوية القومية » — اذا صح التعبير — تجعل من الماضي « لوحة وردية اللون » ، كي ندفع الى عبادته والدوران خلفـــه . ان عبادة الماضي سد أمام المستقبل .

ان الحرص على ازالة « شوائب » الماضي يشير الى نزعة محافظة في فهم التطور التاريخي ، لاترى حركة التاريخ سيراً منسجماً مع قوانين موضوعية للتطور (والتطور يعني : التقـــدم ، النمو ، التجاوز ، التحول) ، بل تراه حركة تقدم وتراجع ، نهضة ونكسة ، ان سير التاريخ ليس حركة هزازة الى أمام ثم الى وراء ،

كي نكون بحاجة للتخلص من شوائب الماضي. بل على العكس ان دراسة جميع جوانب التاريخ تعتبر وسيلة لرؤية اكثر عمقاً واكثر شمولا للحقيقة التاريخية. حقاً ان التاريخ جزء من حقيقتنا القومية، ولكن الحقيقة القومية، رغم جذورها التاريخية، هي الواقع القومي الراهن أولا وقبل كل شيء.

٣ — حقاً ان التاريخ لم يصنعه الملوك وحدهم. ولكن ينبغي الا نقع في نزعـــة تبسيطية تلغي دور الفرد في التاريخ، ان التاريخ هو تاريخ الشعوب والملوك معاً.

لقد أهملت كتب التاريخ المتوفرة لدينا الحديث عن دور الشعوب والمكان الذي كانت تقف فيه حيال الاحداث التاريخية الكبرى. ان هذه الطريقة في البحث تمثل – على الصعيد الايديولوجي – وجهة نظر الطبقات التي يمثلها ويقف على رأسها الملوك. هذه الطبقات ترى الشعوب مجرد كم او اداة يسوقها الزعماء وفق رغباتهم. أليس في كلمة «سوقة» تعبيراً عن مفهوم طبقي معين لدور الشعب وحقيقته.

والمسألة الآن ليست الشطب على دور الملوك، فقد كان لهم دورهم فعلا، ولكن المسألة هي القاء الضوء على دور الجماهير الشعبية في التاريخ، لكي تقترب كتابة التاريخ – ما أمكن – من الحقيقة.

في المراحل التاريخية التي لم يطرح فيها التطور الموضوعي انتقالاً الى مرحلة تاريخية جديدة، وفي المراحل السلمية، لا يبرز دور الجماهير الشعبية واضحاً وفعالاً على الصعيد السياسي. ولكن في منعطفات التاريخ .. في سنيه الخصبة .. في الأزمات الثورية تلعب الجماهير الشعبية دوراً نشيطاً خلاقاً في صنع التطور وفي صنع الانظمة الجديدة وفي هدم الانظمة القديمة، مهما يكن الدور

الذي يلعبه الفرد كبيراً وعظيما . ان المؤرخ العربي التقدمي مدعو الى تسليط الضوء ، بخاصة على المنعطفات التاريخية ، التي ساهم بصنعها نشاط الجماهير الخلاق .

٤ - ان اعادة كتابة التاريخ العربي أصبحت ضرورة ملحة في مرحلة بدأت تطل بآفاقها على الشعب ، حيث اخذنا نشهد تساقطاً ملحوظاً للبنى التقليدية في المجتمع العربي .

وعلى هذا الأساس فان كتابة التاريخ من وجهة نظر تقدمية هي احدى الجبهات التي ينبغي النضال فيها ، بغية تهديم جميع البنى الفوقية للمجتمع القديم ، ان كتب التاريخ التقليدية تعتبر جزءاً من البناء الايديولوجي للمجتمع العربي القديم .

في دراسة تقدمية للتاريخ يبقى الحاضر والمستقبل مركز اهتمام الباحث . وهذا يعني القاء الضوء على جوانب من التاريخ أهملها المؤرخون التقليديون، سواء أكانوا دينيين او قوميين بورجوازيين . ان القاء الضوء على تلك الجوانب لا يجوز ان يدفع الى ماوقع به المؤرخون التقليديون من قبل ، من تحويل للظاهرة الى قانون، ومحاولة « نفخ » الماضي لتبرير اهداف الحاضر او المستقبل . من غير الجائز تقييم الماضي انطلاقا من الحاضر ، لأن حركة التاريخ ليس تكراراً بل تجاوز اً .

ان المؤرخ التقدمي ينبغي ان يركز اهتمامه على التناقض الجدلي القائم في حركة التاريخ ، ينبغي ان يكشف الصراع بين القديم والجديد .. بين ماولد وبين مايموت في كل مرحلة تاريخية ، كاشفاً من خلال هذا التناقض الجانب الذي كانت تقف فيه الجماهير ، مبيناً الطابع النسبي لكل حدث تاريخي .

الباحث التقدمي لابد ان ينبذ ظهرياً النزعة القدرية والنزعة الذاتية في دراسة التاريخ . ان الجدلية التاريخية هي الاداة الاكثر علمية فيدراسة التاريخ . ولكن هذه الاداة ينبغي ألا تتحول الى ضرب من الدرائعية التي تزور التاريخ في

سبيل حرص عاطفي على فوائد معينة الاتجاه التقدمي . ان الحقيقة تبقى ثورية دوماً وعلمية دوما ، لذا فان محاولة قسر الوقائع التاريخية بغية ادخالها في مخططات « تقدمية » مسبقة يشوه التاريخ ويحيله الى اكاذيب مضحكة فحسب ، كما حدث في الفترة الستالينية . ان المؤرخ التقدمي هو الذي « يخرج رأسه من التاريخ » ، لا الذي يخرج التاريخ من رأسه » ان مؤرخينا التقدميين مدعوون لتقديم دراسات جادة حول « عقد » التاريخ العربي ومنعطفاته بوجه خاص . ان دراسات تقدمية كهذه ستكون انتصاراً هاما لقوى التقدم العربي على الصعيد الايديولوجي ، وستساهم بخلق وعي سياسي وحضاري لا للماضي فحسب ، بل للحاضر والمستقبل ايضاً

ايديولوجية اللغة

بقلم كمال حمدي

القاهرة —

بمهارة .. كانت كلمات لا ونعم .....
هكذا غنت الريح ، والريح
قليلا .. عبر الحنجرة والشفاه .....
فالهدف كان أغنيـــة .....
روبرت فروست

مقدمـــة

تدور مسرحية «الدرس» للكاتب الطليعي يونيسكو حول مشكلة اللغة وكيف أنها أداة اللاتفاهم بين البشر ، درس خصوصي يلقيه استاذ مسن على فتاة جاءته لتتعلم ، ومن ثنايا الحوار الدائر بينهما يتبين أن الاستاذ والطالبة غير قادرين على التفاهم ، يعود هذا الى الالفاظ التي تعني أشياء مختلفة بالنسبة لكل منهما تجعل عنصر الاتصال بينهما يبدو مستحيلا ، لأن كلا منهما يحمل اللغة بأفكاره الخاصة ومشاعره الذاتية ، ومن ثم ينشأ اللاتفاهم العنصر الدرامي المسرحية - الذي لا يمكن حله.

الألفاظ هنـا تتعدد معانيها ، حسب مايريده كل انسان منها ، وتضيع الحقيقة بسبب ارتباط تلك الالفـــاظ بأفكارنا ومشاعرنا الذاتية ، فاللغة — بعد أن كانت أداة التوصيل — تصبح أداة عقيمة ، تعرقل ذاك النوع من التواصل حيث يضطر

الفرد الى العودة لعناصر الفعل أصلا ، بدلا من التعبير الرمزي عنه ، نكسة خلفية للوراء ، الانسان البدائي المعبر عن الشيء بصورة مطابقة ، وليس بأحرف منطوقة او مكتوبة ، المعيد لتمثيل حركة الفعل ، بدلا من التعبير الرمزي عنها كما حدث في المسرحية ، يضطر الاستاذ لطعن تلميذته بالسكين، ليقنعها أن السكين أداة قتل بجانب أنها أداة تقشير البطاطا أو قطع الخبز ، المفهوم الوحيد للفظ السكين ، الذي تدركه الطالبة .

من تلك الرؤية الثورية للغة ، انطلقت لأعد هـــذا البحث محاولا الكشف عن فاعلية اللغة بالنسبة للمجتمع ، خاصة المجتمعات النامية . ولقد قصدت بعنونته « بأيدولوجية اللغة » تعبيرا عن مدى فاعليتها ، كنظام ثقافي يمكن أن يجرد لدراسة تأثيراته في العناصر الايجابية للمجتمع ، فان جاء هذا البحث يشوبه غموض أو كثير من أوجه النقص ، فرجاء لمن يجد فيه محاولة تستحق المتابعة ، أن يجلي عنه ذلك الغموض ، وأن يزيده عمقاً في سطحيته القليلة الغور ، لسد الكثير من أوجه النقص التي يتسم بها .

بقي أن اذكر أن هذا البحث يشمل الكثير من أوجه النظر الخاصة بالباحث ، ثمرة قراءات عديدة في مناحي الفلسفة والتاريخ والاجتماع والتربية غير خاصة بالموضوع أصلاً ، بالاضافة الى الخاص منها في الموضوع مباشرة .

مفهوم اللغة

ما أن تكونت أول جماعة أنسانية ـــ أيا كان طابعها ـــ أزاء قوى الطبيعة حتى نشأت البيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده على هذا الكوكب ، وصحبت معها مشاكلها الخاصة الناتجة من علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة من نوعها ، تولد النشاط الانساني في أستخدام الصوت لتكوين ألفاظ لغوية بدائية الطابع ، والأنصات لتلك الأصوات بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الأذن . تجسد هذا النشاط

الانساني المتميز عن كائنات الطبيعة الأخر ، في صيحات موسيقية توحي بمعان سحرية ، تدل على الخوف والغضب وطلب النجدة — مثلاً — تختلف في دلالتها بأختلاف موسيقاها .

هكذا كانت بداية اللغة التي استخدمت للتعبير الرمزي عن الأفعال والكائنات الحية والجامدة ، بذلك تكون العنصر الاساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده . فاللغة بظهورها كرحلة عليا في مجريات التطور ، خارجة خروجا تلقائيا من صور سبقتها للنشاط الحيواني ، كان رد فعلها الحتمي هو تحويل تلك الصور والضروب ، التي كان السلوك الجاعي يجيء على غرارها يضيف بعدا جديدا الى أبعاد الخبرة الانسانية ، مانطلق عليه **انسانية الوجود** فالتعبير الرمزي عن الاشياء ، يحولها من أشياء قائمة بذاتها منفصلة عن الوجود الانساني ، الى جزء من هذا الوجود ، فمثلا تسمية الساق الخشبية المنبثقة من الارض والمنتهية بأفرع وريقات خضراء ، بلفظ شجرة ، هو بمثابة اذابتها في الوجود الانساني ، تقع تحت سيطرته ، وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء — أي أطلاق لفظ لغوي عليه — هو الخطوة الاولى للسيطرة على وجوده ، ومزجه بالوجود الانساني بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن هذا الوجود . والقوة في التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوي تكمن في أمكان تولد — لغويا — من هذا الرمز مواضيع لاتمت للشيء المرموز به أصلا بصلة مباشرة . وأن كان هذا لايتم الا بعد عدة مراحل من التطور اللغوي . ومن هنا يجيء الفرق الاساسي بين التعبير الرمزي عن الاشياء والافعال برسمها والتعبير الحركي للفعل — الرقص — الذي من الصعب أن يتولد عنه شيء أخر ، بخلاف اللفظ اللغوي الذي يملك تلك الامكانية .

ليست البيئة على هذا الاساس التي يحيا فيها الانسان ، يعمل ويبحث ، مادية فقط ، بل هي بيئة ثقافية كذلك فأفعال الانسان ، وكيفية أدائه لها ، لاتتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والانسان يتأثران كذلك ، بمؤثرات تراثه الثقافي المتبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والاهداف والمعتقدات التي تحملها الالفاظ اللغوية في طيها وتوحي بها .

والمشكلات التي تبعث على التقصي والبحث انما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض . ولا تقتصر الأعضاء التي تختص بهذه العلاقات على العين والأذن والساق ، بل من أدواتها كذلك تلك المعاني المتطورة على مر الحياة ، مضافا اليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة — اذن — في مركب العناصر التي يتألف منها المحيط الثقافي للأنسان ، مكانة ذا دلالة خاصة وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة أيضاً ، فهي في حد ذاتها . نظام ثقافي ، على انها منظوراً اليها من احدى وجهات النظر — نظام بين كثير من نظم — ولكنها وهي :

١ — الأداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك النظم الأخرى والعادات المكتسبة .

٢ ـ وهي الالفاظ التي تتفاعل خلال الصور ومضموناتها في آن واحد معاً ، أعني الانظمة الثقافيه الأخرى ومضموناتها .

٣ ـ فضلاً عن ذلك فهي تتميز بتركيب ـ اذا ما تجرد في صوره ـ خاص بهاله قابلية التجريد باعتبار اللغة « صورة » من الصور ولهذا التركيب اذا ما تجرد في صوره ـ تأثير حاسم من الوجهة التاريخية ، سنعرض له فيما بعد .

اللغة التي نتحدث عنها الآن هي بأوسع معانيها ـ أعني معناها الذي يضم كل وسائل التبادل ، كالآثار ـ مثلا ـ والشعائر والفنون التشكيلية ـ اللغة بهذا المعنى الواسع هي الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى وعن طريقها تنتقل ، وهي ذلك التدوين الذي يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها في متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهـــة أخرى فان الافكار أو المعاني لاوجود لها إلا في رموز مستحيل فهمها دون الرجوع اليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز نوعاً من البقاء الضروري لوجود الاشياء الرامزة اليها ، بعد أن كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي عنها .

دينامية اللغـة

واذا أردنا ان نضيق من نطاق البحث بعض الشيء فنحدد من معنى اللغة الواسع ، لنعني باللغة هنا اللغة المكتوبة والمتكلم بها في صورة الفاظ فقط ، فاننا نحصر على ضوء هـذا التحديد أهم اهدافها الرئيسية في :

١ ـ هي أداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه ..

٢ ـ نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر ..

ويلاحظ ان الهدفين السابقين ينبعان من ذات الانسان كوجود مستقـل ويتجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين احدهما الى خارج ذات الانسان ، يقوم بعملية نقل الأفكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته . وكمحصلة للهدفين السابقين ، ينشأ الهدف الثالث للغة ..

الهدف الاجتماعي

« من لم يتكلم لغتك ، فهو عدوك » كثيراً ما نعثر على هذا المثل وشبيهه في المجتمعات البدائية ، باعتبار أن اللغة أهم مظهر لوجود الجماعة ، والمحافظة على كيانها ، واذا تـدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية ، نجد هنا ان اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذه

المجتمع فوحدة الغايات والمبادىء تدعو الى البحث عن دلاله شاملة للأشياء والأفعال وعناصر الوجود المختلفة ، تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء او الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة أفراد مجتمع اللغة الواحدة . فاللغة باعتبارها شرطاً ضروريا لتماسك المجتمع ، انما تقع في كونها من جهة ضربا من السلوك البيولوجي الخصيص بادق المعاني ناشئاً تلقائياً من المناشىء العضوية الاولى ، وفي كونها في الوقت نفسه ـ من جهة اخرى ـ تضطر الفرد الواحد من افراد الناس أن يلتزم بوجهة نظر سائر الأفراد الآخرين ، وان ينظر الى الامور وان يجري عليها البحث من زاوية لا تقتصر على فرديته الذاتيه وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم باعتبارهم شركاء أو أطرافا متعاقدة ، ان شئت في مشروع مشترك لا شك قد يكون عنصر من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الموجه والهدف لنشوء اللغة ، ولكن الذي لا شك فيه ايضاً أنها تهم أول ما تهم شخصاً آخر ـ المستمع ـ أو اشخاصاً آخرين يوجه اليهم المتكلم الحديث ، لتكون وسيلة تفاهم بينه وبينهم تقيم شيئاً مشتركا . ومن ثم بمقدار ما يكون لها من هذا الاشتراك تصبح ـ اللغة ـ عامة و « موضوعية » .

ولما كان مصدر الالفاظ ينبع من ذات الانسان كوسيلة للتعبير ونقل الافكار والمشاعر للغير ، على ذلك لابد وان يتسم اللفظ بسمات ذاتية المتحدث به ، فلو أننا قررنا ، كتجربة عارضة مناقشة مفهوم الألفاظ العادية المتداولة ، وحاولنا أن نعرف معانيها المحددة عن كل فرد ، لأدركنا بوضوح أننا جميعاً نتكلم بلغات مختلفة ، لغات ذاتية ، لكل فرد منا لغة خاصة وألفاظ لها مفاهيمها الذاتية الخاصة بها ، فاذا فرضنا وجود شخصين « أ » دارس للعلم و « ب » دارس للأدب ، يتحادثان ذات ليلة مقمرة ، يشير « أ » اشارة موجهة نحو السماء ويقول « هذا هو القمر » ، وينظر « ب » في نفس الاتجاه مؤيداً أياه « نعم هذا هو القمر » لقد ألتقى الاثنان في الرمز عن ذلك الكوكب المنير بلفظ « القمر » ، ولكن المشكل ان مفهوم « أ » عن القمر يختلف عن مفهوم « ب » ، و « أ » عندما يشير الى القمر يفكر في انه كوكب معتم يدور حول الارض من أثر الجاذبية ، في حين أن « ب » ينظر الى القمر على أنه الكوكب المنير في دياجير الظلام ، ويبين حتما ذلك الخلاف في اول تعليق يأتي بعد هذا الصمت أما عن طريق « أ » او « ب » عن تلك الرؤية لتوضح الهوة في التفكير بين الاثنين .

ولكن هل يقتصر الخلاف في المفهوم الذاتي بين « أ » و « ب » فقط ؟ ان المجتمع يتكون من مجموعة ملايين من أنماط مختلفة ، لاشك ان لكل منهم مفهوماً ذاتياً عن « القمر » وغيره من الالفاظ المتداولة الاخرى. من الطريف ان نذكر هنا ملاحظتين تدلان على أهمية اللغة في المحافظة على كيان المجتمع من الوجهة العسكرية ايضاً الملاحظة الاولى من مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية ترجمة الاستاذ خيري حماد هي « ويقال ان صلابـة

التخطيط الياباني وترمته والميل الى التخلي عن الهدف عندما تسير العمليات العسكرية وفق الخطط الموضوعة ، راجعـان الى حد كبير الى ماقي لغتهم من طبيعة مزعجة وغير دقيقة بحيث تجعل من المتعذر أبتـكار الخطط الجديدة ونقلها بواسطة اللاسلـكي »

الملاحظة الثانية نجدها في « مطارحات ميكافيلي » ترجمة الاستاذ خيري حماد ، وهي خاصة في تفسير طول الصراع بين الرومانيين واللاتين « ويرد تيتو نوس ليتس هذا التعادل بين الجيشين الى ما دار بينهما من حروب طويلة في المـــاضي ، والى ماتميزا به من تعادل في الروح الانضباطية ، ومن تشابه في اللغة »

وعلى هذا ، فمفهوم اي لفظ يتألف من كل مايستدعيه ذلك اللفظ في ذهن قائله او سامعه ، من معان أو خواطر . أعني أن كل ما يرتبط بالـكلمة في الذهن داخل في معناها ، فلو قلت لي لفظ « ميدان » مثلا وكان يرتبط في ذهني بهذا اللفظ صورة من قتال نشب وأفقدني شخصاما واحاط بذلك كله حزن ما زال ينشأ في نفسي كلما ذكرت ذلك اللفظ ، كان كل ذلك داخلا في معنى اللفظ بالنسبة لي .

فوجود لغة واحدة في المجتمع ، ليس دليلا كافياً على ان التفاهم موجود بين الذين يتكلمونها ، وألا فما معنى أن يظل عشرات من الناس يتناقشون ، ولا يخرجون بنتيجة ما ، يدل هذا على أن كل فرد من هؤلاء في ذهنه فكرة محددة وتلك الفكرة يستخدم في التعبير عنها ألفاظاً بمفاهيم ذاتية مصدرها تجاربه وثقافته وبيئته الاجتماعية واخيراً رؤيته الشاملة للحياة .

ولكن اين اذن الاطار الثقافي الناشيء من اللغة والذي يعمل بدينامية مستمرة على وحـدة وتماسك أفراد المجتمع ..؟ قد يعترينا التشاؤم بفقد هذا الاطار او على الاقل توهم وجوده فقط كخطوط الطول والعرض الجغرافيين . اذ أن أختلاف مفهوم لفظ « أ » — في جماعة ثقافية — كان التفاهم بين افراد هذه الجماعة — بمقدار ذلك الاختلاف — مسدود الطريق ، ونتج عن ذلك سوء تفاهم مزمن بل قد ينتفي عنصر التفاهم الجامع بينهما من وجوده جذرياً ولكن اذا نظرنا الى اللفظ من وجهة النظر المقابلة — وجهة نظر المجتمـع لا الفرد — نجـد ان تلك المفاهيم الذاتية العديدة للفظ الواحد المتعددة بتعدد أفراد المجتمع ، والتي أفزعتنا ، نجدها جميعاً تنصهر في بوتقة واحدة ، تمثل المستوى الحضاري للمجتمع بأكمله ، فتمتزج أمتزاجاً كلياً ، ليتكون منها المدلول الاجتماعي الخاص باللفظ ، وهـــذا المفهوم هو الذي يضطر الفرد الواحد ـ كما سبق ـ في أن يلتزم بذلك المفهوم الاجتماعي للفظ فاذا اتسم مجتمع ما بالصبغة العلمية ، فهذا يعني — مثلا — على ان المدلول الاجتماعي للفـــظ القمر هو أنه كوكب معتم ، مهـــما أختلفت الرؤية الثقافية أو التجارب الذاتية للفرد ، فهو ملزم بان يعني ذلك المفهوم للفظ مادام نطق به فاللفظ هنا يحمل الى جميع افراد المجتمع قدرا مشتركا من الافكار والمشاعر ، بالاضافة الى أنه يسمح بوجود افكار

ومشاعر ذاتية تصاحب ذلك المفهوم اللفظي . وعلى هذا فبقدر انتشار المفهوم العام للفظ يكون تماسك المجتمع ، فالعلاقة بينهما علاقة طردية ، وقد تختلف الآراء وتتعدد في المجتمع الواحد ، لكنها — رغم اختلافها — لاتؤثر على وحدته وتماسكه مادامت المفاهيم اللفظية للغة تشمل اكبر قدر من افراد المجتمع .

وفي بعض الحالات الخاصة بالفاظ معينة ، نجد ان المشاعر الذاتية وحدهـا هي الشيء المشترك بين افراد المجتمع بينما قد يختلف معنى اللفظ بينهم اختلافا بينا وعميقا . وبقدر ما يحمل ذلك اللفظ من مشاعر ذاتية مشتركة بين الجميع بقدر ما يكون لذلك اللفظ القوة على بعث التماسك الاجتماعي وتحريكه كمجموعة واحدة تجاه شيء ما ، ككلمات الاستعمار ، والقومية تبعث مشاعر ذاتية عند كل فرد من افراد المجتمع العربي – مثلا – وهي رغم ذاتيتها المطلقة ، مشتركة مع مشاعر الناس الآخرين ، دون البحث عن اختلاف مفـاهيمه بينهم ، فاللفظ هنا يفرض وجوده كـ« صورة » مجرداً عن معناه .

واذا كان الفرد محدوداً في افقه الثقافي وتجاربه الذاتية وخبراته الفنية والاجتماعية ، كانت لغته مجرد انطباع – الى حد كبير لغة مجتمعه يستخدم الالفاظ بنفس مدلولاتها الاجـتماعية ، بجانب مشاعره الذاتية لهذا اللفظ ، مما قد يدخل في معناه ويؤثر في لهجته ولكنه لايملك الأمكانية الثقافية والشخصية لفرض تلك المشاعر الذاتية على معنى اللفظ بطريقة ما ، ولذلك تبقى تلك المشاعر التي تضفي معاني ذاتية على ألفاظه اللغوية ، خبيئة نفسه وقد تظهر في نطـاق الأسرة ولأخص المقربين اليه الذين قد شاركوه تلك التجارب والخبرات الموحية بهذا المعنى ، وقد تتفجر تلك المشاعر الخبيئة عند قراءة قصيد شعري – او مقال فلسفي الى غير ذلك من الآثار الثقافية المختلفة يستخدم فيه اللفظ بنفس المعنى الذاتي لديه .

اما اذا كان الفرد ممتازاً في ثقافته فانه يتأثر بلغة مجتمعه ، ويؤثر فيها بايجاد مفاهيم جديدة للألفاظ ، نتيجة لمشاعره وتجاربه الذاتية ، التي ينجح في فرضها على المجتمع حتى تأخذ سمة المدلول الجماعي ، هؤلاء هم المسيرون لحركة اللغة ، يعملون على تطوير مفاهيمها اللفظيـة ، الشاعر ، الفيلسوف ، المفكر ، العالم ، كل منهم يعبر عن افكاره ومشاعره الناضجة ، التي يلبث في تعميقها رأسياً وأفقياً ، حتى تتكشف له عن مفهوم جديد للفظ اللغوي ، يتفق مع مستوى ثقافته ووعيه وخبراته ونظرته الذاتية الى مقومات الاشيـاء المتاولة لديه ، ثم يعمل هو بعد ذلك في نشر مفهومه الجديد . وبقدر انتشار هذا المفهوم ، وبقدر تأثيره على الانسان البسيط ، يتغير المفهوم اللفظي ، وبذلك تتطور مفاهيم الألفاظ في اللغة .

ولكن كثيراً مايجابه الشاعر والفيلسوف والعالم والمفكر ، مشكلة سوء الفهم . اذ انهم

يستخدمون نفس الألفاظ ، ولكن بمفهوم مختلف عن مفهوم المجتمع ، فحقيقة المشكل ليس فيه انه لايجد من يفهمه ، ولكن في ان الجميع فهمه ، بانتقادهم الفهم وفقا للمفهوم الاجتماعي للفظ بصورة عامة ، ويحاول هو ان يوضح مفهومه الجديد بألفاظ هي الاخرى تفتقد امكانية التعبير عن مفاهيمه الجديدة ، لذلك نجدان العلماء يؤثرون الرموز على ألفاظ كلما امكن ذلك ، ليحددوا بالرمز المفهوم المراد وحده ، ولايختلط به شيء مما يعلق به من خواطر ومشاعر ذاتية ، بسبب استعماله في وقائع الحياة اليومية . اما الفيلسوف فانه يلجأ للقضاء على هذا الاشكال بتحديد تعاريفه لألفاظ موضوعه التي يريد تحميلها مذهبه او فكره الجديد ، ولكن الاشكال يعود ليظهر في صورة اخرى اكثر تعقيدا ، اذ انه يحاول ان يوضح تعريفه الجديد للفظ ، بالفاظ هي الاخرى تحتاج الى تعريفات جديدة لتملك امكانية التعبير المباشر عن افكاره الفلسفية .

ويبدو المشكل اكثر تعقيدا في ميدان السياسة والعلوم القانونية ، اذ يتخذ هـذا المشكل ، وجهين متكاملين ، اولهما عدم الاطمئنان الى الاستدلالات اللفظية ، والاستناد بدلا عن ذلك الى الوقائع العملية فقط ، وعرض الحوادث عرضا مجسدا ، بغية اعطاء اساس صحيح للمحاكمات - كما يحدث عادة من تمثيل الجريمة مرة ثانية امام القضاء درءا من التأثر بالصورة اللفظية المعبر عنها في المرافعات -.

اما في ميدان التعبير الفني ، فمن خلال الملاحظة العابرة ، نجد ان الفنان التشكيلي والمؤلف الموسيقي لهما القدرة على تمثيل جملة العوامل الاجتماعية والثقافية في المجتمع وخلق من هذا كله شكلا جديـــدا من اشكال التعبير الفني يختلف عن الاشكال القديمة ويسبق الى التجديد اي تطور خلاق للمفاهيم اللغوية ، ذلك لأن الفنان هنا يستخدم وسيلة فنية خصبة مرنة التعبير ، لاتتقيد بمفاهيم ودلالات محددة ، لذلك فالمذاهب الفنية - عادة - اسبق الى الوجود من اي تجديد يبدعـــه الشاعر والاديب الذي يعرض **مفهومات** جديدة للألفاظ ، مستفيدا من المذاهب الفنية السابقة للوجود والنضج .

وعلى المستوى الجماعي ، حيث تنبثق المذاهب والانظمة الاجتماعية الجديدة ، التي تحمل تغييرا جذريا للمجتمع يتعقد المشكل امام تلك المذاهب الجديدة ، فاستخدام نفس الألفاظ اللغوية للتعبير عن تلك المذاهب يجعلها ليست بمنجاة من التأثر بالانظمة والقوى الفكرية القديمة التي تهدف تغييرها ومحوها تماما ، **فاللغة دائما تبذر بذور الماضي في الحاضر - لتشكل**

في الوجود لو عامن الاستمرار التاريخي ـ مهما بدا هذا الحاضر مناقضا الماضي (١)

ولمحاولة تجنب هذا التأثير المطلق ، تضطر تلك المذاهب ابتداع الفاظ جديدة تأخذها ـ المذاهب اعني ـ في اضفاء مفاهيمها الخاصة بما يتفق مع اتجاهاتها الفلسفية وبذلك تغدو الالفاظ الجديدة ابناءها الشرعيين ، تحتكرهم لخدمتها وتؤثر بهم على عصور المستقبل التاريخية .

اللغة مصدر للتاريخ

أن الاعتراف بوجود « مستويات حضارية » خاصة بعصر او بلد معين ، والبحث عن « روح » عصر او « ثمة » ثقافة ما ، في المواقف والمفاهيم والرموز المشتركة التي تكشف عنها الأوجه الاجتماعية للحضارات ، يجب ألا يحملنا على اهمال المفاهيم المختلفة للالفاظ التي يكسبها الناس المعاصرون ـ للفترة التاريخية قيد البحث ـ لهذه الرموز اللفظية ، بل ان اختلاف وتطور تلك المفاهيم يمكن اعتبارها وثائق تاريخية تعيش بيننا ، وتشكل مصدراً لنوع من التــاريخ اسميه اصطلاحاً « علم تاريخ اللغة » .

هناك ـ دائماً ـ عناصر في ثقافة أي مجتمع تعرف بالثوابت الثقافية ، كالأسرة ، والدين ، والمرأة ، والجنس التي وجدت في جميع المجتمعات والتي توجد دائماً ، ولكن مفهوم تلك الثوابت الثقافية هو الذي يتغير في نطاق اللفظ ذاتــه اي يختلف دلالته من عصر الى آخر ، ومــن مجتمع لغيره ، تبعاً لاختلاف المستويات الثقافية لهــذا العصر او المجتمع ، فالمرأة مثلاً تطور مفهومها اللفظي في مجتمعنا العربي ، نتيجة لتغير مفهوم وجودها ، من مجال لاشباع الغريزة ، الى عنصر فعال لاستمرار الحياة ، ثم الى وجود ذاتي مستقل رغم ثبات اللفظ المطلق عليها .

ولا يتبين المحتوى الثقافي للفظ الا بمعايير مجردة ، كمعيار القيمة الحيوية النافعة او الاخلاق

---

(١) لعل مثال تغير الدين الوثني الى الدين المسيحي في الامبراطورية الرومانية يقرب الفكرة اكثر ، فمن الحق ان يقال ان الدين المسيحي لم يفلح تماماً في ازالة كل آثار ما قام به الرجال البارزون من اتباع الفلسفات القديمة ، وذلك بسبب الابقاء على اللغة اللاتينية التي وجــدت نفسها ملزمة بالابقاء عليها لاستعمالها في تدوين شرائعها الجديدة ، وكل من يقرأ الاجراءات التي اتخذها قادة الديانة المسيحية في البداية يستطيع ان يرى ما اتاروه من ضجة للخلاص من جميع سجلات الماضي ووثائقه ، كل هــذا بسبيل القضاء على الفلسفات القديمة ، ولكن لو اضيفت الى جميع هذه الاجراءات لغة جديدة ، لنجت حقا من جميع تأثيرات الماضي ، أما استخدامها لنفس اللغة في التعبير عن مضمونها الجديد بما تحمله تلك الالفاظ من دلالات فلسفية عميقة الغور ، جعلها بلا مغالاة تقع تحت سيطرة تلك الفلسفات .

مطارحات ميكافيلي ـــ ترجمة الاستاذ خيري حماد

وفقاً للفلسفة العامة المحركة لقيم هذا المجتمع في ذلك الوقت ، فالحيـــاة الاجتماعية الثقافية تتعلق بمواصفات ، تتعلق هي بدورها بمعايير اكثر عمقاً، يستطيع البحث النقدي اللاحق أن يكتشفها، والافكار التي تؤثر في العلاقات الاجتماعية والثقافية ، لاتنشأ ولا تبدأ في التأثير منذ اللحظة التي تتلقى تعبيراً مجرداً في صورة لفظ ، بل على العكس ، ان التعبير المجرد يوجد بعد بحث وطول معاناة لتلك الافكار عن محتوى لفظي تتجسد وتستقر فيه في النهاية وقد يعترض على ذلك بالقول بأن الافكار لايمكن أن توجد الا في صورة لفظية حتى اثناء عملية التفكير الصامت ، والرد على ذلك يكون بالقول ان الفكرة توجد في البداية في صورة جمل لفظية مبهمة ، الى أن تبلور وتوجز في لفظ واحد ومن هنا نشأت اهمية الدراسة التاريخية للالفاظ .

اننا ـ مثلاً ـ نستطيع معرفة كنه الحيوانات المنقرضة ، التي كانت يوماً ما تعيش على سطح الارض . بدراسة ماخلفت من حفر وهناك كذلك الالفاظ اللغوية، يمكن اعتبارها بمثابة تلك الحفريات ، فالمفهوم اللفظي اذاً هو الشيء الحي الذي نستطيع دراسته للاستدلال على الماضي الذي مازال حياً في حاضرنا .

ونهدف الى هذا ، أن نبين أن نقطة البدء في دراسة اللفظ هو مفهومه لارنينه . ذلك لأن الرنين فقط لايمثل الجسد الذي يعيش فيه روح اللفظ اي مفهومه. فاذا ادركنا أننا يجب أن نعرف ، ما كان الناس يقصدونه بألفاظ معينة مثل الحرية او القومية او المساواة ، فاننا نعني الاشارة الى العاطفة التي دفعتهم الى خلق ذلك اللفظ اولا واخيراً ، فاذا ادركنا ذلك، عرفنا القوة التي جعلت الحاضر مختلفاً عن الماضي ، فمنظر استمرار هذه الالفاظ رغم ماقد يطرأ على مدلولاتها من تغير يعني بالتبعية انها مازالت تحمل فاعليتها المؤثرة في تشكيل التاريخ .

يختلف هذا النوع من البحث التاريخي ، اختلافاً كبيراً عن تاريخ الحقائق وزمانها ، لأن الوسيلة المثلى لفهم مدلول لفظها هو الاحساس بهذا اللفظ أولا كقوة دينامية خلاقة ، بصرف النظر عن دلالته ، فالشعور أكثر أهمية في المرحلة الناضجة من الحيـــاة ، اذا أحس الانسان بما كان يحرك مشاعر أجداده ، غمره ذلك النوع من الشعور الذي يمكنه من القضاء على مشكلات الحاضر وخلق مستقبل أفضل ...

يجب أن يكون اللفظ قوة دينامية خلاقة تدفع للحركة والعمل حين تكون مصدرا أساسيا للمؤرخ بهذه الطريقة ، فالهدف التاريخي لدراسة الالفاظ هو ان يتناول ذلك الذي مازال حيا على كل لسان ، وذلك الذي مازال يستهوي مشاعر كل انسان ، الألفاظ التي مازالت تحتفظ بشذى عجيب يفوح منها . لقد أصبح من البديهيات منذ أن كتب داروين ابحاثه العلمية أن الانسان يستطيع فهم الشيء فهماً جيداً اذا ما توصل الى اصوله ، ويصدق هذا على الألفاظ وما تنطوي عليه من معان ، لذلك يجب اخيرا ان يكون لدينا ـ في صورة دائمة ـ قاموس يوضح

مفهوم اللفظ ، في الوقت المعاصر ، ثم بحث جدي موجز عن المدلولات التي كان يدل عليها منذ بدء ابتكاره كلفظ له فاعليته الخلاقة . وما ذلك الا لكي نعرف ما يمكن ان يدل عليه في المستقبل ، وكما ان الشجرة يظهر عمرها كحلقات تخطها السنوات في قطع من جذعها ، كذلك يدل مفهوم اللفظ على مرحلة من مراحل النمو في حضارتنا الراهنة ، وعلينا ان ندرس تلك الحلقات كما نجدها اليوم ، واذا كانت الشجرة – ونقصد بهـا اللفظ – ما زالت في النمو فان هذه الحلقات نفسها تتغير الى حد ما ، لأن الشجرة تزيد ارتفاعاً وضخامة ، مما يصعب عملية الدراسة ، وفي الوقت نفسه يزيد من أهميتها .

ويجب الا ينظر الى أي لفظ يطرح على بساط البحث كأنه شيء قد عفا عليه الزمن او مات او انتهى ، فربما ضعف ما في اللفظ من حياة ، ولكنه مازال يحتفظ بقوته الدينـامية الخلاقة ، وقد يبدو اللفظ أقل حياة لان هناك ألفاظاً أخرى قد نمت قوته ، حجبته عن الوجود لفترة تاريخية محددة .. ومن هذه الوجهة لا تعتبر دراسة الألفـاظ – خاصة القديم منها – كدراسة حفرية من الحفريات انقرضت نتيجة لافتقادها البيئة المناسبة ، بل كدراسة كائن حي ، قد يكون في فترة خمود ، علينا معرفة مفهومه القديم وماذلك الا لكي نعرف ما يمكن ان يتمخض عنه من قوة دافعة ، في ثوب مفهوم جديد قد يدل عليه في المستقبل .

ولقد تتحول الألفاظ تحولا غير لغوي ، وذلك باضافة تراث سياسي ، او ثقافي ، او اقتصادي ، اليها ، فكلمة المساواة تحولت الى « مبدأ تكافؤ الفرص » نتيجة لاضافات علم الاقتصاد اليها ، وهنا يجب على الباحث ان لا تخدعه مظاهر اندثار الألفـاظ فن واجبه ان يبحث عن اللفظ الآخر الذي يعتبر نوعاً من الامتداد المستمر للفظ المندثر ظاهرياً .

وبعد .... يختلف هذا النوع من البحث التاريخي ، اختلافا كبيرا عن تاريخ الحقائق وزمانها ، لأن الوسيلة المثلى لفهم مدلول لفظ هو الاحساس بهذا اللفظ كقوة ديناميكية خلاقة ، بصرف النظر عن دلالاته اللفظية . فالشعور اكثر اهمية في المرحلة الناضجة من الحياة ، واذا أحس الانسان بما كان يحرك مشاعر اجداده ، غمره ذلك النوع من الشعور الذي يمكنه من القضاء على مشكلات الحاضر ، وخلق مستقبل أفضل .



أيهما أبو العرب الروحي ..؟

هيرقليطس أم ابراهيم الخليل

بقلم علي الخش

كل مشكلة العرب الحضارية ، فيما يخيل الي - في كتاب « العرب من أمس الى الغد » للمستشرق الفرنسي المعروف « جاك برك » . صلتي بهـذا الكتاب عمرها بضع سنوات . بدأت بمقال كتبه أحد النقاد الفرنسيين تعريفاً به ، وكان عنوان المقال : « هل من الصعب على المرء أن يكون عربياً ؟ » وأضاف الناقد عنواناً آخر : « العربي يفضل الرمز على الحقيقة » ولقد ترجمت المقال يومئذ ثم أدرجته في احدى الصحف وظللت بعد ذلك مشوقاً للاطلاع على الكتاب حتى تسنى لي ذلك .

ميزة جاك برك مؤلف هذا الكتاب والاستاذ في الكوليج ده فرانس انه اقل الباحثين انطلاقا من الفرضيات المسبقة ، وان كتابه ثمرة معاناة حية لواقع الشعب العربي الذي قضى بين ظهرانيه سنوات طويلة ، تؤيدها وتسير بموازاتها معاناة فكرية للتراث العربي . فهو بحق أحد الذين عنتهم المشكلة العربية .

ولجاك برك في هذه المشكلة وأسبابها رأي يكاد لايتعداه . وهو أن **العرب بحكم موكزهم الجغرافي كانوا مضطرين دائما للتحاور مع أمم وثقافات ذهبت في فهم الحياة غير مذهبهم** ، وكان هذا الحوار فكريا أبيض طورا ، وطورا مخضباً بالدماء . وكان من همه أن ينتزعهم من بيئة تعبت في تكوينهم غاية التعب ، حتى أصبح اسلوبهم في العيش فلسفة قائمة بذاتها .

ويعتقد برك أن رسالته هي التمهيد لأن يصبح هذا الحوار وئاما بدلا من أن يستمر صداما . وأن الآلة ستكون جسر هذا اللقاء . وعن طريقها سيتمثل العرب فكرة أوروبا وحضارتها . فالعربي الذي انسان فوري : الأشياء عنده سرعان ماتصبح معاني وقيما ، وقيمة كل شيء عند العرب أعلى منه ، والأفكار سرعان ماتترجم بتصرفات .

ولو كان همي في ماسبق أن ألخص برك ، لكان ذلك ظلما بيناً ، ولكنها كانت مقدمة لابد منها للحديث عن نظرية ساقها في الفصل الذي تناول فيه بالتحليل بنية المجتمع العربي ، فبدا له أنها مكونة من ثلاثة عناصر :

ابن المدينة الذي انس بتقاليده أنسا عجيبا ، فأصبح يكره الدخلاء ، ولكنه عتنع على التفكير الثوري في الوقت نفسه . والبدوي الخالد ذلك المتجهم الذي يهب حياته كاملة لأول تجربة حياتية عميقة تناديه . أما العنصر الثالث فيسميه برك : الهلليني الجهنمي ، وفي خلال حديثه عن هذا الهلليني الرجيم يطرح ويجيب على التساؤل الذي جعلناه عنوانا . فلنستمع اليه :

هذا النموذج ، لي ملء الحق بأن أدعوه اسلاميا . مع أنـه ينحدر من ماض شرقي او عربي سابق على الاسلام ، الا أنـه قد تجسده حتى أصبح غير ميسور التفريق بينهما . بل لا بد من الكثير من التجريد لـكي تبين في مادونـ الثقافة والخلقية الاسلاميتين ، او ضدهمـا ، إن شئت هذا التلازم بين الانسان والعالم . انه لاجدال في ان الايمان الديني ، مها يبلغ حرصه على ان يكون فطريا لا يسعه ان يقبل الطبيعة . فلاهوته ، ونحوه ، تشريعـه التي أشربت منطق أرسطو تقيم تعارضا بين الخير والشر ، والذات والموضوع والمحدد والغامض .وهي قد اصطبغت بصبغة حضرية قوية شوهتها بقدر ما ثقفتها . فتعلم الرجل الشريف أن يتجاهل او أن يكبح نفحات الحكمة القديمة ، وهي ما برحت تفتنه . وبالمقابل تأكد التصوف ضد التقوى الشرعية مما هو بمثابة عودة الى الانسان الشمولي ، وتصحيحاً لأرسطو بواسطة أفلاطون . وبعد قرون من الصراع بين الشرع القائم على التفريق (الفرقان) وبين مفهوم وحـدة الوجود القديم قام المصلحون تحت شعار السنة يدعون الى العودة بالايمان الى أصوله ومنابعـه ، والى مصالحة ايجابية مع عالم يمعن في سيره .

وطبيعي ان كثرت بعد ذلـك الخلافات والمنازعات ولكن من يدري اذا كانت هذه المنازعات في أحدث نتائجها ، واذا كانت العودة الى الجماهير ، والاتجاه الجديد لفن عفوي ، واعادة الاعتبار لكل ما هو شعبي ، والحماس للديموقراطية ، لا تستمد قوتهـا من حنين وحدوي ، اي اذا كانت لاتهدف من وراء الثورة الى بعث الانسجام ؟ ان ذلك لواضح . فالتجديد او التقدمية يمكنها ان تثور بالتراثية أو التقليد ، ولكن ثورتها هـــذه تتم الى حد ما باسم التراث . ولم تكن المعركة لتبدو شائعةهذا القدارلولا انها من وجوه كثيرة تجري ضد الملاك اى ضدالذات.

حتى أننا لو اردنا أن نجد بعض ملامح الموقف القديم لكفانا ان نتأمل سيرة الجيل الجديد فنستشف من خلالها قوى ماض حيان وحاضر . مكتشفين بذلك خصيصة غير متوقعة اطلاقا من خصائص حركة التجديد وتلك أنه يعني من نواح شتى ترميم ما تهـــدم . فالثورة في نظر كثير من الشرقيين هي العودة الى الماضي . **وسيبقى الامر كذلك ما لم تفلح حركة تجديد حاسمة في الافكار والأشياء بتجريد النظام القديم من قدرته على التطور باستعادة توازنه .**

ونقطة هذه القطيعة او هذا الفصام لن تبلغها هذه المجتمعات الا حين تأخذ علاقاتها مع العالم الخارجي معنى جديداً وثقلاً جديداً . أما في الواقع ، فان العربي لا يبلغ العــــالم الحديث ، سواء منه المفاهيم او الوسائل ، الا من خلال أزمة سيكون الجزاء عليها أن يشتد بأساً على المحسوس . فحضارته ، كما نلاحظ، ونحن في قلب القرن العشرين ، كانت حضارة فطرية ، ولا تتيح له السيطرة على الطبيعة ، وهي خلافاً للحضارة الآلية ، انما كانت تفشل في أسر الطبيعة وحيازتها لأنهـا كانت تندمج بها . وهي المزية أو هـذه الثغرة تصبحان باستمرار في كل الأوضاع التي وصفت ، وبوجه خاص في الشعر الذي يتغنى بها ، والذي مازال العربي المعاصر يفتتن بطراوته ، هذا ما لم يفضل أن يتلمس هذه الطراوة في أغاني الأميين ، ولهذه التسمية من دلالات كبيرة في حد ذاتها .

لقد عزا هيجل الى حياة الاغريق سحر القرب من الطبيعة وفتنة الفورية فقال : « ان الروح بذاته يتنزل بهم ، وان الحياة التقليدية العربية تقاسمهم هـــذا السحر ؛ وتلك البساطة الالهية التي تسم تناول اليونان للحياة ، بتواجد بديعي مع العالم ، وتؤلف هي الأخرى ، وان اختلفت الاسباب والشكل ، سر الكثير من أساليب العيش « الاسلامية » . ان التمثال اليوناني ، في العصر الزاهر ليبدو وكأنما

جاء بكل طيب خاطر تحت الأداة ، ومن غير أن ينفصل عن الطبيعة التي ينقلها ، ولا عن الانسان الذي يسبح له . وكذلك في الاسلام ، وان اختلفت الصيغ ، كانت الحياة التقليدية تتأكد ، كلية ، مبرأة من الخطيئة الاصلية متناغمة مع ذاتها، مباركة من الله ، متسامحة مع الغرائز ، لاتحد منها الا بحدود الحرام كالزنا والربا وهذا ما آناها كالحياة الاغريقية ، سراً افتقدناه . فالفنية اليونانية من جهة ، والعيش الاسلامي من جهة أخرى ، فوزان حققها الانسان الفوري .

ولكن كل تشخيص للاسلام من خلال الحاضر المتمزق والماضي المتلائم يستدعي ادخال طرف ثالث ، يحتل مكاناً معه في حوار لا محض فلسفي ، بل تاريخي أيضاً بين الشرق والغرب . فعندما يثور العرب على الماضي فان العهد الاستعماري ليس هدف ثورتهم فحسب بل محركها . وان تأكيدهم الجامح لذاتهم لا يمكن أن يستغني عن الغرب . ولكن رفضهم الماضي يتضمن كما أسلفنا الرغبة في اعادة بنيانه ، في حدود الجهد والحرص على أصالته . فالنهضة ، والبعث ، بل السلفية أيضا ، كل هذه الكلمات التي تصف حركات ، تختلف محتواها ومداها ، تشترك فيما بينها بنزوعها الى اعادة ما كان . واذن فاننا حين نقبل دعوة العرب الى رفض ماضيهم ، فيما هم ينهضونه من جديد ، فاننا سنجد لديهم أيضاً في الطرف الآخر من القرن ، نزاعهم مع اوروبا ، هذا النزاع الذي لا يقل تلازما معوجودهم عن النزاع الحاضر حول بعثهم .

ولست أرى في هذه الملاحظة أي تعسف . فها نحن أولاء نتلقى من أعماق الزمن دعوة الى التراشق ، وأعني بذلك التبادل . وهي — أي الملاحظة — انما تستمد قيمها الصريحة من وجود بحر أبيض متوسط . ولسنا هنا بصدد منطقة جغرافية يبدو أنها فرضت على المجتمعات المحدقة بها ضرباً من الكينونة المتكاملة ، بين شاطىء جنوبي وآخر شمالي ، كما ليس الأمر مجرد كنز متح العرب منه عبر

التاريخ بواسطة مترجمين اسكندرانيين او شاميين ، بل انما هو رابطة أساسية محدودة في الزمان والمكان ، هو عدم الانقسام بين الشرق والغرب ، وقد ظلت هذه الحقيقة سائدة طوال العهد الذي سبق سقراط . اذ لا مشاحة بأن ثمة امكنة كثيرة ، واحقابا كثيرة ، تلاقى فيها القرين بقرينه فغير كل منها في صاحبه واستوحى منه . ولكن فيما يبدو لعيني ، ليس ثمة مكان يتجلى فيه نزاع العرب والغرب ، ونزاع العرب وانفسهم ، كما يتجلى في مواقف من العالم ، وقفها شيخ يوناني ، فكان بها سباقا الى كثير من افكارنا الحاضرة . ان نأويلا تاريخياً وفلسفياً معاً ، يقودنا الى أن نتخذ سبيل هيرقليطس لا سبيـــل ابراهيم ، من اجل ان نتعمق في فهم العربي التقليدي .

فاذا قيل أن الأمانة للالهي هي جوهر الرسالة السامية ، فان العرب يضيفون اليها الطمأنينة وكدت أقول فيض السلوك . ومـــا يجب ذكره ان الفضائل التي يسمونها الصبر والرضا تعني تماما ماتعنيه اليونانيـــة بكلمتي هومولوجيا وهارمونيـــا (يستشهد المؤلف هنا بهيدكر وبمؤلف يوناني من المحدثين ، كما يشير الى كلمة سويّ التي وصف بهـــا القرآن الشخص الذي تمثل لمريم ، ويرى أنها تعني ماتعنيه اللفظة الفرنسية « Harmonieux » أي المنسجم في خلقه وتكوينه) ان العربي قائلا ما قال لا هو ته ، ينتمي الى الطبيعة مثله في ذلك كمثل اليوناني . وقد استمر في انتمائه اليها بعد الاسلام ، مع اعترافه في الوقت نفسه بقدرة الله الكلية . وهذا اللفيف من المبادىء « Options » التي يمكن أن تبدو لنا متضادة ، من شأنه بلا ريب أن يثير تأمل فلاسفته ، وقلق صوفييـــه . ولكنه مع هذا قد لباه وكفاه حقه . فلا الانحطاط ولا التبعية قد استطاعا تجريده من مزية الحياة المطمئنة ولولا الخوف من الكفر لكان قال مع هيرقليطس : « ان

مزاج المرء يتحد بالجانب الالهي فيه » أو » ان لم يكن الكون سوى دخان فلن يكون المرء سوى شم » فيا لحرارة هذا التوافق بين الانسان والكون ، وذلك لا على صعيد الأدب الفلسفي ، أو الحدس الصوفي فحسب ، بل على صعيد التصرفات.

ان المجتمع الاسلامي التقليدي يعرض لنا كرة متوائمة فيها العقل والايمان وعالم مدرك حسيا ، وضرب من سعادة باطنية تتجاوب مجتمعة في نظام يمكن لفلسفة ابن سينا الاشراقية ، أو لعقلانية ابن رشد أن تصوره بدقة ، ولكنه اضافة الى ذلك نظام يتحقق في الحياة اليومية ، هذا اللون العربي لليومي ، مابرحنا نتذوقه ، على بعد الشقة بيننا وبينه ، في حركات عامة الشعب كما في رزانة الحكماء . وفي منظومة كهذه ، بل تبعاً لهذه التشبثات فان المحسوس ليس سوى رمز ، كما أن للفكرة مذاقاً ماديا . فلا العقلي من الأمور ، ولا الجدي منفك عن قيم تناوله بالتغيير . وهكذا فعلى الرغم من التأكيد الملح على التسامي الالهي ، يلتئم عالم ، متضامن ، يبارك بعضه بعضا ، ويقوم بين الشيء والشخص فيه تبادل حميم ، ويأتلف فيه كل بكل .

بيد أن هذه الحكمة لاتتراءى لأعيننا اليوم الا أنقاضاًوركاما ، في أعقاب انحطاط طال أمده ووسط غصص المعركة وأشجانها . وسط مبتئس بالعبودية السياسية ، والبدائية الاقتصادية ، سادته مذهبية رجعية ، واجتاحته جيوش الغرب وأفكاره فقلبت الأمور رأسا على عقب فاذا الانتماء الى الطبيعة يتحول الى قدرية ، والطمأنينة الى عطالة ، والشمولية الى كسل ، ولم يكن التقليد سوى ماذكر . ان ماتبدى لعين الفكر العربي ، في مستهل النهضة أو الثورة ، وملأ قلبه أسى هو هذا القلب السافر لماضيه العظيم ، هو تدنيس مناقبه . ان العربي التقليدي مازال هللينيا ، ولكنه منشز من العالم ، متحدٍّ من قبل تاريخ

الآخرين ، منبوذ للمهام المهينة ، وبالتالي مغطس مرة أخرى في السديم فأمسى بذلك هاليلينيا جهنميا أورجيا . (١)

(١) تثير الصفحات القليلة المدرجة أعلاه ، عـــدداً من القضايا ، لانعلم ، فيما خلا الاستاذ الارسوزي، مفكراً عربياً اهتم بها او اجاب عليها . أما كثرة المثقفين فهم على مذهب أن الحل... في الصبغة !

ومن جهة أخرى، يمكن التساؤل بعد قراءتها : اذا كان منطلق الحياتين اليونانية والعربية واحـداً فلماذا اختلفت الحضارة الأوروبية ـ وريثة حضارة اليونان كما يقولون ـ عن الحضارة العربية ؟ وهل مرد ذلك الى عوامل فكرية أم جغرافية ؟

وقد اتصلت بعدد من المهتمين بهذه القضايا ومنهم الاستاذ انطون المقدسي ، والدكتور عبد الكريم اليافي ، فكانت لهم آراء لايغني إيجازها عن تفصيلها . وعسى أن يتاح لقراء المعرفة الاطلاع عليها مكتوبة بأقلام اصحابها .

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخـــارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الآداب

الكتاب والموضوعات



الشاعر القروي بخطه وروحه

اللاجئ الشهيد

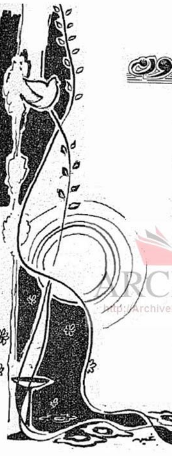
مهداة الى فرقة الفدائيين الفلسطينيين

بُعث الشهيدُ ودحرجَ الحجرا — من قال إني لاجئٌ كفرا
مزّقت أكفاني وها أنذا — خلف الحدود أجابه الخطرا
والثورُ عاصفةٌ مدمّرةٌ — هوجاءُ لن تبقي ولن تذرا
أنا من فلسطين وهل عجبٌ — أن ثار مظلومٌ وإن ثأرا
أنا رب أقدس تربة أبدًا — وسليل أطيب أمة خبرا
غدرت بنا الدنيا وعزّتنا — حتى البدو والحضرا
جُعنا ولم نركع ولا أكلت — أختي بثدييها ولكن غدرا
حملت معي شمم الجبال وما — عثرت وحامل رأسه عثرا
لكنها بصبر المرسلين ألا — صدق العظام وفارس صبرا
يا نسل شيوخ الأولى جبلوا — بالشيح صخرة لمن سخرا
ردّوا من ارعكم بكوننا — عما قريب تنطق الثمرا
وتدرون ولتعلم بكل فتى — ينقض كالصاروخ منفجرا
وتعيد تلك الليالي خبرًا — الغاصبين لا عينا ولا أثرا
قسمًا بأمة يعرب فسما — لنعود فاسمح يا زمان ورى

البرازيل 14-2-65 = 13 شوال 84 — الشاعر القروي

الياس فرحات يرثي :

حسون



أعَلَيكَ أبكي أم على نفسي ؟
يامغرقي في لُجّة اليـــأسِ
كم كنتُ ارجو ان اموتَ وأن
تبقى لـترثيـــني لدى رمسي
أفَلستَ انتَ كسوتني مدَحاً ؟
أبضنّ بالتكفين من يُكسي ؟
حسّون. أخرسَكَ الردى ، فأنا
حزناً أكاد أُعَدّ في الخُرسِ
قد كنتَ سيفي في الهجوم على
خصمي و كنتَ لسيفه ترسي

(*) الكاتب المهجري المعروف المرحوم الاستاذ جورج حسون معلوف ، الذي قتلته في اوائل أيار الماضي بسان باولو سيارة هوجاء . وهو صديق للشاعر الكبير واحد الذين دافعوا عنه بحماس في المعارك القومية التي خاضها وبعض زملائه ضد بعض الافكار والآراء الدخيلة المشبوهة ، في موطن العرب في البرازيل ، والمرحوم حسون كان قد قدم باكورة دووان شعر فرحات .

خمسون عاماً من صداقتنـــا ... مرّت كما مرّت ضحى امسِ
ياويحهم نسبوا الى خُلُقي ... مثلاً ، وهـــذا أقبحُ الدسّ
انا لا املُّ فتىً خـــلائقه ... كالزّهر فوق امالدٍ مُلْسِ
انا لا امـــلّ فتىً عوارفه ... كندى الربيع المصبح الممسي
انا لا امـــلّ فتىً عواطفه ... فيضٌ من الاخلاص والأنسِ
انا لا امـــلُّ فتىً غنا وسمـــا ... وأملّ كلَّ مدنّسٍ نِكسِ
انا اكره الاخـــلاقَ سافلةً ... شوهاءَ فاسدةً من الأُسّ
فلو النـــذالة صُوّرت بشراً ... لدفعتهـــا باللطـــم والرفسِ

* * *

يا ذائقـــاً خمري وواصفهـــا ... وصفاً صفـــا كأشعة الشمسِ
شعشعتهـــا بزلال حبّكَ لي ... وسقيتهـــا الناس في كأسي
فتمايلت منهـــا الرؤوسُ وقد ... كاد الغرور يدور في رأسي
دُعيتْ مقدّمةً ولو دُعيتْ ... روضاً لغنّى الطيرُ في الطرسِ
لكأنهـــا بستان فاكهةٍ ... حلو الثمار مبـــارك الغرسِ
يلقى الأديبُ غذاء مهجتـــه ... فيهـــا ويلقى لذّة النفسِ
رصّعتهـــا بجميـــل فنّكَ يا ... ربَّ البيـــان الساحر الجرسِ
فبَدَت لنـــا ألفاظها حبباً ... كمباسم الفتيـــات في عرسِ (1)

* * *

يانائمـــاً متوسداً حجراً ... وكأنه حجرٌ بلا حسّ
ومن التراب عليه أغطيـــةٌ ... منهالةٌ كدساً على كدسِ

---

(١) هذه الابيات وصف المقدمة الشائقة التي كتبها الفقيد لديوان فرحات .

سأزور قبركَ شاكياً ألمي ... همّاً ودمعي سابقٌ همسي
فإذا عشَت عيناي من عبَرٍ ... وأضلّني ما تمّ من لَبسِ
سأمرّ كفّي فوق صفحته ... متلمّساً بأصابعي الخمسِ
سأمرّها في السطر أقرؤه ... كقراءة العميان باللمسِ

* * *

أنسيتَ باحسّون صحبتنا ؟ ... أنا لا ألومكَ فالردى يُنسي
قد صرتُ في دنيا معطّلةٍ ... من كلّ ما يرضي وما يؤسي
دنيا من العدم الذي انعدمت ... فيه دواعي النُّعم والبؤسِ
دنيا فراغٍ ما تَصوّرُهُ ... عما يراه العقل بالدرسِ

* * *

صدمتك ياحسون روضتنا ... إحدى المطايا الشرّد الشُّمسِ
سيارةٌ يقتادها قدَرٌ ... متحكمٌ بالجنّ والانسِ
لولاه لم اقنع لسائقها ... إلّا بشجّ الرأس والدعسِ
لكنه والحظّ سائقهُ ... فلقد يكون ضحيّةَ النحسِ
ولعلّه يشقى بفعلته ... حيّاً وانت بها على العكسِ
فالميتُ قد ماتت هواجسُهُ ... والحيُّ لا يخلو من الهجسِ

سان باولو — البرازيل





حسابي

بين النفس والتراب

شعر ميشال مغربي
سان باولو —



ايهِ يانفسِ ،قال جسمي لنفسي،ايهِ يانفسِ نادت الأبواقُ
انّ اصواتها الرهيبةَ يانفسِ تدوّي،فقد دنا الانطلاقُ
والى الآنَ لايزالُ محياكِ عليهِ قناعهُ البرّاقُ
فتعالَيْ حكيا نمزقهُ فالقلبُ كادتْ تذيبه الأشواقُ
وتعالَيْ كيا نصفّي حساباً يتقاضى ان يكونَ الفراقُ
قالتِ النفسُ إن أصواتها تملأ الرحابْ
غيرَ أنّ الحسابَ مالستُ ادري، فما الحسابْ
أتقولين ما الحسابُ كأن لم يكُ ماسمتِني من القهرِ شيئا

وكانَ لم تكن عليكِ ديوناً تضحياتي التي فرضتِ عليّا
كم تعقبتِني وحاولتِ حرماني هنائي ومغنمي الارضيا
كلُّ هذا لكي تنالي جزاءً ومكاناً عندَ الالهِ سنيّا
فانا سلّمٌ تنالينَ يانفسِ عليهِ فردوسكِ الابديّا

قالتِ النفسُ انما تحملُ الهودجَ الركابْ
وهي ليست تمنُّ اوترفعُ الصوتَ بالعتابْ

انتِ ماذا تراكِ مني ، أعقلي ام ضميري ام انتِ يانفس حسّي
امْ شعاعٌ مِنَ الالهِ سيرتدُّ اليه متى ذهبتُ لرمسي
امْ ترى انتِ غيرُ شيءٍ وما قد زعموهُ اخلاط وهمٍ وحَدْسٍ
لاضميري مزيلُ شكّي ولا عقلي وحسّي مبدّدانِ ليأسي
لا ولا ابصرُ الشعاعَ فهل ارحلُ يانفسُ دونَ فهمي لنفسي

قالتِ النفسُ كلُّ مَنْ رامَ فهمي بالبأسِ آبْ
انا شيءٌ « من امرِ ربي » على وجههِ نقابْ

انا طينٌ وانتِ يانفسِ شيءٌ غامضٌ الا أنهُ ليسَ طينا
او على مذهبِ الرئيسِ ابنِ سينا طائرٌ من طيورِ عليّينا
فلماذا برحتِ ذاكَ المحلَّ الارفعَ الابدعَ الذي تعشقينا
انتِ اياهُ تقصدينَ فهل كانَ ضلالاً بَراحُهُ ام جنونا
إنَّ هذا ما لايجوزُ على المنطقِ ياورقاءَ الرئيسِ أبنِ سينا

قالتِ النفسُ لستُ ورقاءَ لا ولا الغرابْ
ولكلِّ المستهزئينَ نصيبٌ مِنَ العقابْ

انا اولى يانفسِ منكِ باجرٍ وثوابٍ لو انصفتني السماءُ

فانا دونك الذي جاء للغبراء لايدري ماهي الغبراء
وانا دونك الذي تأكل الادواء منه وتنهش الارزاء
غير أني كبش الفدا فلك الخلد نصيب ولي الردى والفناء
فلماذا الارواح تخلد والاجساد تفنى وما لهن جزاء

قالت النفس إنها حكمة ايها التراب
قد يكون الموت الذي انت تخشى هو الثواب

غير أن الخلود يانفس ، ان كان اكيداً ، فليس خيراً اكيدا
انكون الحياة في العالم الآخر الا ملالة او ركودا
اويكون اتصال عمر بعمر ممكناً لو بعثت بعثاً جديدا
لا لعمري،وانت لن تعرفي أن كنت قبلاً عرفت هذا الوجودا
نحن ان كنا لانني غير عمر حاضر فالخلود ليس خلودا

قالت النفس لم يقل هكذا الله في الكتاب
عد اليه ولا تكن شارداً فاقد الصواب

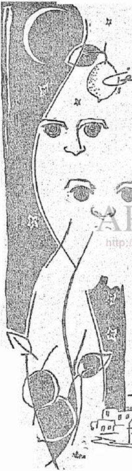
ها انا عائد اليه كتاباً ليس إلا للحقيقة هادي
ليس ماقاله المعري سوى قول ضلال في ملتي واعتقادي
ايكون الموهوب عقلاً وفكراً حيواناً مستحدثاً من جماد ؟
انت شيء لاشك فيه ولا شك بديمومة ويوم معاد
وقدير ذاك الذي وحده يعرف سر الارواح والاجساد

قالت النفس لاتزد إن هذا فصل الخطاب
كان مابيننا حساب فلم يبق من حساب

سان باولو   البرازيل

أغنية الحصاد الهادية

شعر منذر لطفي



رماد ..!
رماد ..!
حكايتي .. رماد
ملاعبي .. رماد
مدينتي يافا عروس البحر والبلاد
مدينة الليمون والنارنج والكباد
يسير في دروبها الحداد
يموت فيها الموت والعدم
يأكلها الجزار في نهم



تلفها أصابع الغثيان والألم
فيورق الندم
وتنتشي مطارق المغول والجلاد

★

رماد ..!
رماد ..!
وموسم الحصاد في بيسان والجليل
أغنية يعرفها الشباب والكهول
أغنية يعرفها الجميع
عاشت ببال الشعب في الضلوع
ماتت برغم الدفء والربيع
ماتت .. ولا زال النشيد في فم الصغار
ماتت .. فأمسى الصبح .. جلنار
في ليلة خوية الأزرار
ماتت .. ومات الطفل في عناد
يا للصغير .. مات قبل موسم الحصاد

★

رماد ..!
رماد ..!
موطننا .. رماد
قصة جيل سائر في فلك الضياع
قصة انسان يقود الوهم والصراع

ومقدسي .. سفينتي المنهوكة الشراع
تغوص في الصباح والمساء نحو القاع
وحولها جمع من القرصان ينظرون
جمع من الأوغاد يضحكون
أفكارهم مطفأة العيون
وحشية الظنون
يا اخوتي أفكارهم مطفأة العيون
تشم منها الحقد والصقيع والمنون
ويضحكون في ظلام الليل يضحكون
ويمضغون التبغ والنعاس والمجون
ويشربون الخمر .. والنساء يأكلون
ومقدسي .. سفينتي المنهوكة الشراع
تغوص في الصباح والمساء نحو القاع

★

والبحر يروي بعدها قصته العجيبة
قصة أسراب من السنين
قصة تاريخ من اللصوص والأنين
من الغزاة البرص والاحزان
تقذفها الامواج والرياح والشطآن
من الذين اشعلوا في الغابة النيران
في ساحة المدينة الجبارة
فروعوا الأطفال والنساء والحجارة
وفجّروا الأحقاد حتى في دم الجماد

فامتلأت دروبها بالسم والحداد
وأنهر الرماد
فقهقه المذهول ألفا .. قهقه الجلاد

★

وذات يوم يقبل الحصاد والتيار
يهاجمان الأرض والبحار
يهاجمان قلعة القرصان والأوكار
يهاجمان السفن المطفأة الأنوار
في ضربة وحشية مريرة
ليخطفا أرواحها الشريرة
ويسحبا مدينتي .. سفينتي الصغيرة
سفينتي المنهوكة الشراع
يا اخوتي من ألف ألف قاع

★

وسوف تمسي قصة الآلام والقوصان
اسطورة غابت مع الرياح في البحار
في عتمة البحار
في باطن الأرض وفي الأغوار
غيبها الحصاد .. والتيار
فاصبحت تقصها الجدة للصغار
في موسم الحصاد .. في دمدمة التيار



الكتاب والموضوعات

- التصوير الفوتوغرافي .. بين الصنعة والفن
  محمد نجاة العظم
- اديب اسحق والمسرح العربي
  عيسى فتوح

الفنون

التصوير الفوتوغرافي

بين الصنعة والفن

بقلم محمد نجاة العظم

١ ـ اولا ماهي رسالة الفن ؟ بـــل ، ماهو الفن نفسه ؟؟..

٢ ـ هل في معطيات التصوير الفوتوغرافي قيم فنية دائمة تحمل في طياتها عناصر رؤيا جديدة خلاقة ؟

٣ ـ وبالتالي ، هل في تلك المعطيات طواعية للتحليل والتركيب والتجريد؟

٤ ـ واخيرا ، هل التصوير الفوتوغرافي فن جميل ام انه فن غير جميل؟..

اذا كان للفن رسالة ذات صفة انسانية عالمية فلابد لهذه الرسالة من ان تبدأ من منطلقات محلية اصيلة ، تتدرج منها نحو معطيـــات الاخرين الفنية ، وهذا التدرج شرط رئيسي لفهم تلك المعطيات ،واقصد بها ، المعطيات الفنية الغريبة ، وبغير هذا التدرج ليس علينـا ان ننتظر لجمهورنا ان يجني غير الشعور بالعزلة والغربة الفنيتين تجاه تيارات ومعطيات الفن العالمي الهادرة حولنا من كل صوب

ونضرب مثلا بدوائر تتداخل في بركة ماء القيت فيها بحجر ، فهي لاتزال تتوسع وتتدرج انطلاقا من نقطة مركزها الذي وقع فيه الحجر ، حتى تندمج وبضيع اثرها في بركة الماء كلها ، ولا يمكننا ، طبعا ، ان نتصور هذه الدوائر ، باية حال من الاحوال ، تتسع وتتدرج من الخارج الى الداخل ، لان ذلك مخالف لطبيعة الاشياء . كذلك الامر في الفن فنحن إن شئنا ان نسهم حقيقة في بناء رسالة فنية لها صفة انسانية وعالمية ، فلا بد لنا من أن نبدأ من معطيات فنية محلية اصيلة ، تعبر عن هويتنا وطبائعنا وعاداتنا واغراضنا في الحياة ، تكون اساسا صالحاً لتركيز عواطفنا الجماهيرية وتوحيدها وتحقيق تآلفها وتعاطفها وتعارفها مع بيئتها وبالتالي انفتاحها على آفاق جديدة من الفهم العميق لمعطيات الفن العالمية .

وخلاصة القول ان رسالة الفن العالمية تبدأ من تحقيق رسالة الفن المحلي القومي ، هذه الرسالة التي تركز عاطفة الجمهور وروحيته على مواطن انبعاث الشعور القومي وتجعلها متوافقة مع معطيات بيئته وتاريخه وآماله واهدافه .

وقد يسأل سائل ما علاقة هذه المقدمة الطويلة العريضة في موضوعنا عن التصوير الفوتوغرافي...

الجواب ، بعد ان نميز بين الفن كرسالة انسانية عالية ، وبين الفن كرسالة قومية محلية ، وبعد أن ندرك ذلك ادراكا واضحاً ، نجدنا نقدر اهمية الوسيلة التي تسهم في تثقيف عاطفة جماهيرنا الفنية واغناء احساسها الفني والجمالي ، وتحقيق تآلفها وتعارفها مع بيئتها ، عندئذ تصبح هذه الوسيلة في نظرنا ، وسيلة فنية هامة ، وجديرة بالرعاية والتقدير .



صورة من الحياة

فاللوحة الفوتوغرافية التي تصور لنا راعيا يسبح مع اغنامه في البادية مثلا ، هذه اللوحة الفوتوغرافية اذا استطاعت ان تنقلني عبر رحلة فكرية الى الوطن الذي اخذت فيـــه تلك اللوحة ، واذا استطاعت ان تولد في نفسي الاحساس الحقيقي والعاطفة الصادقة اللذين من شأنهما ان يحققا ارتباطي بتلك البيئة ، اذا استطاعت تلك اللوحة ذلك ، يكون لها من وجهة

نظر رسالة الفن القومية ، قيمة فنية ثمينـــة وثمينة جداً ، ولا يهمني بعد ذلك موقف المدارس والمذاهب الفنية الاخرى من التصوير الفوتوغرافي .

بعد هذا ، هل التصوير الفوتوغرافي فن ام صنعة ، اي مهنة ؟؟

ولكن قبل هذا ، نحب ان نسأل ماهو الفن ؟؟...

ان الاصل الاشتقاقي لهذه الكلمة (الفن) ، كما هو وارد في اللغتين اليونانية واللاتينية، يعني « النشاط الصناعي والمهني » .

إلا ان تطور ظروف الحياة وتقدم الحضارة اعطى لكلمة (الفن) معنى روحيا مستقلا ، معنى جعلها فوق التقييم المادي المألوف للاشياء، خاصة بعدما تم للانسان من سيطرة كاملة على ظروف بيئته وفق ماتطلبه حاجاته الغريزية عبر التـــاريخ . وهكذا اصبح لكلمة الفن مدلول روحي وفكري يعبر عن حاجات الانسان الفكرية والروحية والجمالية . حاجات الانسان الى المتعة واللذة والتأمل والتجريد .

وهكذا نجدنا مع Santayana وهو يحدثنا في كتابه Reason,in,art عن الفن بمعناه الخاص فيقول ، انه ليس الا مجرد استجابة للحاجة الى المتعة ولذة الحواس وترويح النفس ومتعة الخيال . ويحذو حذوه Sydney colvin الذي كتب مقالا في الفن نشرته دائرة المعارف البريطانية ،حيث قال فيه : (ان الفنون الجميلة .. نبع ... اولا، من اجل اللذة الخاصة المستقلة عن المنفعة المباشرة التي يستشعرها — الانسان — في ادائه للعمل الفني ... ثانيا ، من اجل اللذة التي يستشعرها... غيره من الناس) . انتهى كلام Sydney .

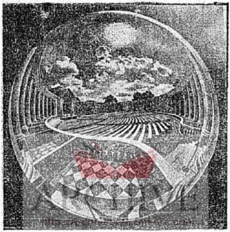
وثمة رجل اخر هو Kant الذي يقول في كتابه Critique du Jugement (الفن اداة تنقل لنا الجمال الذي احسه الفنان ، وهذا يصدق في الفنان الذي يصنع لوحة اوالمثال الذي يصنع تمثالا) .

ويعبرون عادة عن اصحاب هذا الاتجـــاه بمذهب الجماليين . والمذاهب الفنية في هذه الايام كثيرة، واكاداقول (الموضات والتقليعات الفنية)، فن التأثرية وما بعد التـــأثرية الى الحوشية وما قبل الحوشية والتكعيبية والمستقبلية والتجريدية والتعبيرية والسريالية وكلها تمثـــل مذاهب



متوحشة

ومدارس لها انصارها كما لها خصومها ، وكل مدرسة لها فلسفتها وطريقتها في التعبير عن طريق التأثير في الحجوم والاشكال والخطوط والاضواء والالوان . وبالتالي فان لكل منها موازينها الخاصة في تقييم العمل الفني ، فما يعتبر عملا فنيا رائعاً في نظر مدرسة ما قد لا يعتبر اكثر من عملية تجميع الوان وتركيبها في نظر مدرسة اخرى .



القصر — (أخذت بعدسة مقعرة)

وقد يكون نشوء بعض هذه المدارس نتيجة للتطور والاستجابة لظروف وبيئات فنية معينة ومحددة ، الا انه لا يمكن ان نعتبرها مرجعنا ومقياسنا لتقييم كل عمل فني اذ يجب ان يكون لنا مفاهيمنا ومقاييسنا الخاصة بنا ايضا .

الخلاصة، ان العمل الفني، هو الوسيلة الروحية التي تعبر عن الحاجات الروحية والجمالية لدى جمهور ما في بيئة معينة وظروف محددة في طريق انطلاقها نحو آفاق ارحب واوسع . وانا اقصد بالوسيلة الروحية هنا ، الذاتية التي يعبر عنها الفنان نتيجة لاتصال حياته الروحية واندماجها مع ظروف بيئته ، وعندما يعبر عن ذاتيته المنفعلة في عمل فني فانه يشبع في ذاتية الجمهور عين عواطفه ومشاعره ، فاذا ما تجاوب الجمهور مع عواطف الفنان ومشاعره تحقق التآلف والتعاطف بين الجمهور والعمل الفني عند ذلك فقط ، يمكننا ان نقول باننا امام عمل فني اصيل يعبر عن حاجات البيئة التي يعيشها كل

يعبر عن روحية الجماهير وعواطفها ويعمل على تعليتها وتهيئتها لتقبل الاعمال الفنية المصنوعة في بيئات اخرى .

ولما كانت شدة انطباع الاثر او العمل الفني في نفس الجمهور تتفاوت بحسب اختلاف مستوى تذوقه ، ولما كان هذا الاختلاف مرده الى نوعية وسيلة التعبير الفنية من اشكال وحجوم واضواء والوان ، لذا كان لابد لتلك الوسيلة من ان تكون نابعـــة مما ألفه الجمهور في بيئته ومما يعبر ايضا ، عن اغراضه واهدافه ، ومن هنا كان لابد للفن من ان يكون قوميا قبل ان يكون انسانيا عالميا .

هنا وفي ضوء ماتقدم آن لنا ان نسأل ، كرة اخرى ، هل التصوير الفوتوغرافي فن ام صنعة ؟

في اوقات متقاربة ، وفي اواخر القرن التاسع عشر عرف الناس التصوير الفوتوغرافي في اماكن مختلفة من العـــالم ، في لندن وباريس ، وغيرهما ، ولقد اكتشفه اشخاص عدة



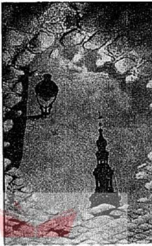
طبيعة

لايعرفون بعضهم ابدا، وكانت ابحاث كل منهم تكمل وتتمم ابحاث الاخرين، وبعد جهود كبيرة كانت تهدف الى تحسين وتبسيط طرق التصوير انتهى الينا هذا الفن الجميل كما نعرفه اليوم، هذا الفن الذي لايزال الكثيرون يأبون الاعتراف به كفن جميل بين بقية الفنون التشكيلية الجميلة ...

ولنسأل هؤلاء - لماذا تناهضون الفن الفوتوغرافي بهذه الضراوة الجميلة... وتسومونه هذا النكران الفني ؟؟..

واسمع من بعيد ومن خلف الاستار صوتا يقول لنا :

(التصوير الفوتوغرافي صنعة اكثر منه فن انه عمل آلي ليس فيه رؤيا جديدة، وهو نقل حرفي عن الطبيعة .



مئذنة وفانوس في نقطة ماء على الرصيف

ولكن دون الوان، تغلب عليه العمليات الآلية والكيماوية، ويكاد يقتصر دور المصور الفوتوغرافي، المقصود الفنان الفوتوغرافي، على المراقبة والتوجيه .

ونحن نسأل متى كانت الفنون الجميلة على اختلافها خلوة من الصنعة ؟...

لنأخذ لوحة فنية مصنوعة بالزيت مثلا او بالكواش او بالمائي، فهل مثل هذه اللوحة خلو من الصنعة التي نعيبها على التصوير الفوتوغرافي ؟ وبالتالي هل يمكن ان نتصور لوحة فنية من صنع الحياة الشعورية المحضة، من صنع الوحي والالهام دونما اى تدخل واضح وصريح من جانبي الفكر والعمل ؟

ولنضرب مثلا، اللون الذي هو ابرز سمات اللوحة الفنية، ما هو اللون ؟ وكيف يستطيع الفنان ان يركبه ويحيط باسراره وخصائصه اذا لم يكن ملما بنظريات اللون العملية وبالتالي بتطبيقاته في التكامل والتنام والتباين الخ ... وليس لنا، طبعا، ان نحتج بالقلائل الذين امكنهم التوصل الى تركيبات لونية ترضي الذوق الفني، دون سابق علم بنظريات اللون، ولكن من يدري، فقد يكون احدهم قد انفق جزءاً كبيراً من حياته في تجارب خلط الالوان وتركيبها حتى توصل الى موهبته تلك، التي يصر البعض على اعتبارها موهبة إلهية .

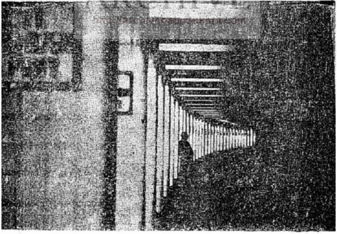
وهكذا نجد ان بعض الفنون الجميلة ، بل كلها ، تقف مع التصوير الفوتوغرافي على خط المساواة من ناحية التكنيك والصنعة . وهذا هو Rodin يشهد لنا في كتابه L , Art (حقا ان الفن عاطفة ولكن بدون علم الاحجام والنسب والالوان وبدون المهارة اليدوية ، لابد ان تظل العاطفة القوية الجياشة عاجزة خائرة مشلولة .)

وهنا نجـد ان Rodin يضيف على صنعة الالوان التي تحدثنا عنها صنعة الاحجام والنسب والخطوط والاشكال .

ثم ماذا عن خلو اللوحة الفوتوغرافية من الالوان ؟..

اثبت عـــلم النفس بالادلة العلمية الناطقة ان الانسان الذي يقف امام لوحة فوتوغرافية ــ لوحة غير ملونة ــ ان هذا الانسان يحس في خياته اللاشعورية بالوان هـذه اللوحة كما هي في الطبيعة . ويقل لنا يوسف همام في كتابه (اللون) .

(ان ذا كرتنا ملأى بالالوان الطبيعية كخضرة الزرع وزرقة السماء ونحوهـا ، وبذلك تنتبه تلك الذكريات عند نظرنا الى تلك الصورة الشمسية وتتمشى مع طبقات لونها البني او لونها الرمادي فنحس في ذات الوقت بالالوان الطبيعية التي طالما متعنا نظرنا بها في الطبيعة قبل رؤية هـــذه الصورة)





اوراق الخريف

فالجمهور الذي يقف امام لوحة فوتوغرافية والذي كان قد خبر بنفسه الالوان على الطبيعة يضيف من عنده الى هذه اللوحة الالوان كما خبرها وكما احسها ، لا كما وجدها في الطبيعة حرفا بحرف ، وهو بهذا يضفي على اللوحة الفوتوغرافية شيئا من ذاتيته ، من حواسه من رؤياها الخاصة فيعطي اللوحة الفوتوغرافية قيمة لعلها تكون في بعض الاحيان اكبر من قيمة لوحة زيتية الالوان ، فقط بسبب هذه الخبرة التي تعتمل في نفس الجمهور والتي سبق وتفاعلت على نطاق الحياة الروحية للفنان الفوتوغرافي حين سجلها عن الطبيعة اول مرة .

اما ان تكون آلة التصوير الفوتوغرافي ، آلة صماء بكماء لا تعرف الا النقل الحرفي عن الطبيعة . فاننا نقول « ان العبرة ليست في آلة التصوير بل في الفنان الذي يقف وراءها ، كما ان العبرة ليست في الفرشاة بل في الفنان الذي يستخدمها ، العبرة في عملية الاندماج الحسي العميق ، تلك العملية التي تتم بين الفنان الفوتوغرافي والطبيعة قبل ان يقف هذا الفنان وراء الآلة الصماء البكماء ، تلك العملية التي تتطلب من الاستغراق الحسي والاندماج العاطفي اكثر بكثير مما يتصوره

انسان عادي ، وقد يكون فنانا ، يقف هادئاً بارداً امام لوحة فوتوغرافية لا يفعل اكثر من ان يثبت انظاره عليها ويقول : (انها جميلة ...)

صحيح ان آلة التصوير تسجل الموضوع كما تراه ولكن بعد ان يكون موضوعها قد اشبع نضجاً وتركيزا في اعماق الفنان الفوتوغرافي من حيث الموضوع والاجزاء التي يريد ابرازها اكثر من غيرها ، من حيث الاضواء والظلال وتدرجها ، والزوايا ومقدار انفتاحها او انغلاقها ، ومجموع هذه العناصر هي تقديرات فردية لايدركها ولا يطلع عليها غير الفنان نفسه ، فضلا عن انها تختلف من فنان الى آخر ، كل ذلك يفعله وهو لا يرجو من ورائه ارضاء احد الا نفسه ، والتعبير عن اعجابه بالطبيعة وجمالها بعيدا عن كل مصلحة او منفعة مباشرة .

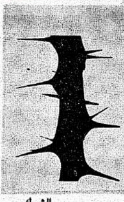
ولعلنا لن ننسى ان نذكر شيئا عن درجة حرارة قلب الفنان الفوتوغرافي التي ترتفع طرداً مع طول فترة الترقب والانتظار التي تسبق تسجيل موضوعه ، وقد تطول هذه الفترة حتى تبلغ في بعض الاحيان سنة باكملها ، وذلك ليسجل موضوعاً واحدا في لحظة حاسمة واحدة قد لاتمر خلال العام كله الا مرة واحدة .

وبعد ، فهل لازلتم تصرون على ان دور الفنان الفوتوغرافي يقتصر على التوجيه والمراقبة؟؟

اما الرؤى الجديدة فلها في التصوير الفوتوغرافي مجالات تكاد تند عن الحصر والتحديد دنى عريضة واسعة ، وامكانات مرنة مطواعة ، غاية المرونة والمطاوعة .

فاذا كنت فنانا اصلا استطعت ان تعبر بالفوتوغراف عن جميع المدارس الفنية الحديثة ، وان تتوصل الى لوحات فنية آية في الابداع والتكوين . فانت تستطيع مثلا ان تعمد الى موضوع ما وتحلله الى عناصره التكوينية الاصلية في ذهنك ، ثم تتناول آلة التصوير لتركب هذه العناصر حسبما يمليه عليك ذوقك الفني وفكرتك التي تريد ان تعبر عنها ، ليكون بين يديك بعد ذلك ، خلق جديد في شكله وتكوينه ، لايمكن لقائل ان يقول عنه بانه نقل حرفي عن الطبيعة . لانك لن تجد له في الطبيعة مثيلا .

ولعل المعرض الفوتوغرافي الذي سيعقد قريباً في المتحف الوطني بدمشق سيقنع الكثيرين بالامكانات الضخمة التي ينطوي عليها التصوير الفوتوغرافي من هذه الناحية بالذات .



الشوك

ونحن لانريد ان نقول اكثر من ذلك عن امكانات التصوير الفوتوغرافي ومقدرته على التعبير عن الاتجاهات الفنية الحديثة لاننا لسنا هنا في معرض الدعوة الى تلك الاتجاهات ومدارسها، لانها لاتنسجم مع اذواقنا ولاتعبر عن حاجاتنا الحياتية فنحن امة لاتزال نفوسنا تحن الى الجمال الذي وضعه الله في الطبيعة وفي كائناتها الحية . الجمال المتناسق المتناغم في حجمه وشكله . نفرح ونطرب لالوان طبيعتنا ، لخضرتها المنورة وزرقتها الصافية والوان الاصفر والاحمر والبني التي تملأ بيئتنا واجوائنا وكل حياتنا .

من هذه الطبيعة بالذات ، جاء حبنا للصورة الفوتوغرافية الفنية لانها اذ تعبر عن بيئتنا ووجوه انساننا وشكل حيواننا ونباتنا . انما تعبر عن اشهى الجمال ، لان موضوعاتها نابعة كلها من بيئتنا الجميلة . في كل لوحة منها قصة وفي كل قصة رسالة نابضة بالحب والحياة والجمال ، وهي فوق كل هذا عامل الفة وتعاطف وتوحيد فهي تعرفنا بارضنا بشعبنا بآثارنا بتاريخنا ، تقرب الشقة بيننا وتحملنا من المشاعر واحاسيس مالايحتاج بعدهـا الى لسان او ترجمان كل ذلك في اطارات من الفن والابداع والجمال ، الجمال الذى هو روح الفن .

لهذا كله ، ومن وجهة نظر رسالة الفن القومية ، على الاقل فاننا نعتبر التصوير الفوتوغرافي فناً جميلا ، يجب ان يحظى برعايتنا وعنايتنا . دائماً ، وفي كل الظروف ..



اديب اسحق

والمسرح العربي

بقلم عيسى فتوح

نشأ المسرح العربي ، أول ما نشأ ، في لبنان على يد اسرة النقاش ، التي كان منها مارون ، الرائد المسرحي الاول ، ثم جاء بعده اخوه نقولا ، وابن اخيه سليم الذي الف (١) فرقة في بيروت ، كانت اولى الفرق التي وفدت على مصر من لبنان ... ولذلك عندما استقر به المقام في الاسكندرية ، كتب لصديقه اديب اسحق في بيروت ان يلحق به ليساعده في التأليف ، والاخراج والتمثيل ، فحمل اديب على الفور مسرحيته « اندروماك » التي كان قد ترجمها عن الشاعر الفرنسي راسين ، بعد ان اجرى فيها قلمه ، ونقحها ، وزاد عدد ابياتها الشعرية .

(١) المسرحية في الأدب العربي الحديث للدكتور محمد يوسف نجم ص (٤٤)

ترجم اديب هذه المسرحية نثرا سنة ١٨٧٥ بطلب من قنصل فرنسا في بيروت وعمره تسعة عشر عاما ، واضاف اليها شعرا نظمه في اخبارها [١] ، وجعله الحانا ، وعلم ادوارها في مدة ثلاثين يوما ، ورفعها الى القنصل ، فمثلت على مسارح المدينة ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان يعود ريعها الذي بلغ خمسة وثلاثين الف قرش ، لمساعدة البنات اليتيمات ، واعتقد بأن خمسة وثلاثين الف قرش ليست بالمبلغ اليسير في عملة ذلك الزمان .

وصل اديب الى الاسكندرية وهو يلبس مسرحيته حلة قشيبة غير الحلة التي كانت لها في لبنان ، وبعد تهيئة الجو مع صديقه سليم النقاش ، باشرا في تمثيلها ، فلاقى عملها نجاحا كبيرا ، وصفق لهما جمهور الاسكندرية مبديا اعجابه بذلك الفن الجديد الوافد لأول مرة من ارض لبنان ، فانطلق اديب في نشوة الظفر الغامرة يترجم مسرحية « شارلمان » ... وما هو غير حين من الزمن حتى كانت المسرحية الثانيـــة تمثل ادوارها ، وتلاقي نفس النجاح الذي لاقته اختها « اندروماك » ، ثم اعقبها بتأليف رواية جديدة اسمها « غرائب الاتفاق » ، وكان في ذلك كله مؤلفا ومخرجا بآن واحد .

مسرحية اندروماك

يقول الدكتور محمد يوسف نجم في كتابه « المسرحية في الادب العربي الحديث » ان اديب اسحق حافظ [٢] على الاصل الراسيني ، من حيث التنسيق الخارجي للفصول والمشاهد محافظة تكاد تكون تامة ، الا انه نظر اليها على انها مسرحية حوادث ، واهمل التحليل النفسي العميق لأرق العواطف وادق

(١) قدماء ومعاصرون الدكتور سامي الدهان ص (٢٠١) .
(٢) المسرحية في الادب العربي الحديث للدكتور نجم ص (٢١٥) .

الاحاسيس ، كما اهمل القلق العاطفي الذي كان يسم تصرفات الشخصيات. وبذلك عدا على اهم صفة من صفات المسرح الراسيني ، وخاصة في هذه المأساة. التي قال فيها الناقد الفرنسي جول لوميتر : « انها المدخل الى مأساة الواقع النفسي. والهوى الغلاب » .

وقد كان المترجم يجزىء المقاطع الحوارية الطويلة التي كان يسهب راسين. فيها في وصف العواطف البشرية والاحاسيس الانسانية ... ويعلل الدكتور نجم ذلك بأنه انما كان يريد ان ييسر مهمة الاداء التمثيلي على ممثليه ، خاصة وأكثرهم من الهواة الناشئين . كما كان يلخص بعض القطع الحوارية والمواقف. التمثيلية ، ويحذف اجزاء من الاصل ، كما فعل في المشهد الثالث من الفصل الثالث ، اذ حذف هذا المشهد برمته ، وادمج جزءاً منه في المشهد الثاني. وقد كان من نتيجة هذه الجرأة في الحذف والتلخيص ، ان فقدت المأساة بعض المواقف الضرورية في تطور العمل المسرحي ، ومنها اسباب حقد اندروماك على بيروس ، فقد كانت هذه الاسباب من العوامل الرئيسية في تحريك المأساة. وكذلك تصرف المترجم في نقل العبارات . وترجمته وان كانت وافية بالمعاني التي تناولها راسين في حواره الا انها لم تلتزم الدقة والمطابقة السليمة لبعض المعاني الشعرية المركزة التي جاءت في مواضع كثيرة من الحوار، وقد كان يستعيض عنها احياناً ببعض الابيات الشعرية التي ترتبط بالاصل ارتباطاً واهياً ، وان كانت تعبر عن المعاني بصورة عامة . ونحن اذا أخذنا مثلا على ذلك المشهد الاول من الفصل الاول، حيث يخاطب اورست بيروس ، نجد ان ترجمة اسحق جاءت مؤدية المعنى ، دون اخلال ، وان نأت عباراتها عن الاصل الى حد بعيد :

اورست :

سلام ايها الملك الهمام ودام لك ارتفاع لايرام

علوت بهمة ليست تضاهى   واجداد هم القوم الكرام..

«اليك يامن فتحت بحسامك طروادة ، بعد ان بلغ والدك الهمام من هكتور مراده ، اتيت سفيراً من امراء اليونان ، احمل اليـك عتبا وأرجو ألا يحمل على العدوان . وذلك انهم يرون ان شفقة غير سديدة ، حملتكم على حفظ بقية حرب شديدة . اعني بذلك ابن هكتور ألد اعدائكم الذي جعلتموه في حماكم . ان ذلك لمن العجب العجاب ، فكيف نسيتم هكتور وما حملنا من العذاب . لعمري ان شعبنا يذكر ذلك البطل ، وفي كل قلب منه وجـل . وما من بيت الا ويطلبه بثار ، وما من يوناني الا وفي قلبه منه نار . ومن يدري والغلام سر ابيه ، ماعسى ان نعانيه منه ونلاقيه . فنراه بعـــد حين مهاجما مراكبنا ، كما رأينا أباه داهماً مراكبنا . واني أخاف ان تكون عقبى اهتمامك به واعتنائك ، ملاقاة بلائك . وان الحية التي تربيها تجرعك السم من فيها . دارك امر غدك قبل فوات يومك ، وابعد عنك عدواً يستنجد بك على قومك[1] »

على هذا النحو يرد هذا الجزء من الحوار ، عند اديب اسحق . ولننظر اليه في الترجمة الدقيقة المتقنة التي اضطلع بها الدكتور طه حسين ، حيث نلاحظ ان المعنى بصورته العامة كان مطابقاً لما جاء في الاصل ، وان الاختلاف كان في التعبير اللفظي ، وفي تغيير مواضع الجمل فقط .

اورست ــ قبل أن يتحدث اليك اليونان جميعاً بصوتي ، ايذن لي في ان أجرأ فافاخر بهذه السفارة ، وان اظهر لك سروري بان ارى ابن اخيل وقاهر طروادة . نعم وانا كما نعجب ببلائه نعجب بوقفاتك . لقد اودى بهكتور واودى بطروادة ، وقد اظهرت بشجاعة بارعة ان ابن اخيل خليق وحده ان يقوم مقامه .

(١) الدرر لعوني اسحق ص (٥٣٧)

ولكنك تأتي شيئاً لم يكن ليأتيه فان اليونان يرونك تقبل عثرة الدم العارودي ـ تركت نفسك تتأثر بشفقة خطرة ، فعنيت بما ابقت هذه الحروب الطويلة . ألم تعد تذكر يا مولاي ماذا كان هكتور ؟ ان شعوبنا المرهقة ما زالت تذكره . ان اسمه وحده ليبعث الرعدة في اراملنا وبناتنا . وما في بلاد اليونان من اسرة الا وهي تتقاضى هذا الصبي الشقي ثأراً لاب او زوج قتله هكتور . ومن يدري ما عسى ان يحاول هذا الصبي يوما ؟ لعلنا نراه ينزل الى شعورنا كما رأينا اباه يحرق سفننا ، يتبعنا على الماء والجذوة في يده . أاجرؤ يامولاي على ان اقول ما ارى ؟ احذر انت جزاء هذه العناية بهذا الصبي ، وان هذا الثعبان الذي تربيه في حجرك ، يعاقبك يوما ما لانك ابقيت عليه . وبعد ، فحقق امل اليونان جميعاً ، آمنهم على انتقامهم ، وآمن نفسك على حيـــاتك . اهلك عدواً مضاعف الخطر ، لانه سيجرب قوته بقتالك ، قبل ان يقاتل اليونان . »

والى جانب عدم الدقة في الترجمة ، نراه يدخل الغناء في عدة مواضع ، ويكاد يختم كل فصل من فصول المأساة بمشهد غنائي ، وقد اضاف مشهداً غنائياً كاملا ، وهو المشهد الخـــامس من الفصل الاول ، وهو في ذلك يساير الذوق المسرحي العام الذي اعتاد السماع الى الغناء مقحما في المسرحيات التي كانت تقدم اليه مؤلفة او مترجمة .

وقد التزم المؤلف في الترجمة اسلوبا هو مزيج من النثر المسجع والشعر ، واختار لتعبيره في هذين الفنين الفاظا جزلة واسلوباً فخماً ، وتلك صفة يحمد عليهـا ، لان هذا اللون من التعبير اللفظي كان شرطاً اساسياً في كتابة المأساة .

يبلغ عدد صفحات المسرحية اربعين صفحة مزج فيها (١) بين النثر والشعر

(١) قدماء ومعاصرون للدكتور سامي الدهان ص (٢٠١)

على عادة ذلك الزمان ، وخرج على حرفية الرواية الى التعريب والاقتباس ، وجعلها في مستوى الجمهور العربي يستسيغها لجمال بيانها ، وعذوبة الفاظها ، ورقة شعرها ، ولكنه الح على السجع في نثرها على غير عادته ، والسجـــع كان زي ذلك العصر الذي تكبله القيود من كل جانب .

مسرحية شارلمان

تدور حوادث هذه المسرحية حول ملك فرنسا (١) ، وتقع في أربعة فصول ، عربها نثراً ، ووشحها ببعض الابيات الشعرية من نظمه ، ولكنه لم يعرج فيها على السجع ، بل ابتعد عنه كل الابتعاد ، كما خلت الجمل من التكلف والتصنع ، وان كانت لم تخل من ضعف في بعض الاستعمالات والتراكيب فهو يقول فيها :

« لقد افتكرت ياسيدي وقست هذا المرتقى قبل الصعود اليه ، فرأيت ، بل لا ازال ارى في تصوري المتقد (رولان) شهيد الحرب الفارس المنتخب الذي جاد بروحه حباً بفرنسا ... » .

ومهما يكن من امر البيان والتعريب في هذه المسرحية ، فاديب اسحق قد شارك الى حد بعيد في النشاط المسرحي خلال القرن المنصرم ، وساهم فيه باوفر نصيب تأليفاً وترجمـــة وتمثيلاً . لم يمش مسرح سليم النقاش واديب اسحق في الاسكندرية غير عام واحد (٢) ، لأن ميول اديب الادبية والسياسة طغت عليه ، وانتقلت العدوى الى زميله وصديقه ، فآثرا التخلي عن الفرقة لزميلها يوسف خياط الذي لم يلبث ان انتقل بها الى القاهرة ، وظلت فرقته تعمل بين نشاط وضعف حتى سنة ١٩١٥ ، اما هما فالتفتا الى الصحافة ، وكان السوريون آنذاك من فرسانها ،

(١) المصدر السابق ص (٢٠٢)

(٢) الفنون الادبية واعلامها لانيس الخوري المقدسي ص (٥٣٥)

حتى ليقول السيد محمد رشيد رضا : « وبعد ذهاب المنشيء الكاتب اديب اسحق الى الاسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة المغفور له سليم النقاش ، سنحت عوارض قضت بالغاء التمثيل فاصبح اديب خالي الوفاض ، باديء الانفاض ، فبعث به المرحوم حنين خوري الى القاهرة مصحوباً بكتاب وصاة الى جمال الدين (الافغاني) فاحسن هـذا لقياه ، لما توسمه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ، ولزمه ثمة ملازمة اللام للألف، واقبل عليه اقبال العاني الكلف، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكانا بباب الشعرية ، هيأ له فيهـا من ادوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ، ما قوى معه على اصدار تلك الصحيفة ، فكانت ترد مودعـة فصولا ، واما لي منسوجة بيراع جمال الدين ، ومنشورة باسم (مظهر بن وضاح) ، اصارت لتلك الصحيفة شأناً مذكوراً . ثم رأى ان ثغر الاسكندرية اقرب لاصطياد الاخبار ، فوفق بين اديب وسليم واوعز اليها بنقل الادارة اليها ، بعد ان مكنهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ».

هذا ما كان من امر الزميلين ، ولكن ما مصير فرقتهما التي تعتبر اول فرقة دخلت ارض النيل والاهرام ؟ وما هو اثرها في حياة المسرح المصري ؟... لقـد قلنا انها تنازلا عنها ليوسف خياط ، فوسعها هذا وضم اليها بعض الممثلين المصريين كسليمان القرداحي الذي انشق عنها فيا بعد ، والف فرقة خاصة به في الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، اما فرقة الخياط فاستمرت تعمل حتى سنة ١٩١٥ كما تقدم .

---

(١) المسرحية في الادب العربي الحديث للدكتور محمد يوسف نجم ص (١٠٠) .
(٢) تاريخ الاستاذ الامام لمحمد رشيد رضا ـ الجزء الاول ص (٤٥) .

- كتاب المعرفة — مقالات في الفلسفة الشعبية
- مقابلات المعرفة — مع الشاعر والاديب المغترب جورج صيدح
- المكتبة العربية — حضارة الاسلام وحضارة أوروبا في افريقيا الغربية — حول ديواني: أقول لكم، لم يبق الا الاعتراف — نشيد الثوار
- القصة العربية — غروب في القمر
- كتب جديدة
- اخبار ثقافية
- النقد والرد
- فنون — معرض الصوان — معرض الزجاج المشق
- جولة الشهر — مع الاشتراكية الافريقية

كتاب المعرفة

مقالات

في الفلسفة الشعبية

Essays in Popular Philosophy

تأليف وليم جيمس

William James

عرض وتلخيص ندرة اليازجي

تعريف بوليم جيمس

هو صاحب فلسفة الـ Pragmatism اي الذرائعية ، وتعني هذه الكلمة العمل او الفعل في اللغة اليونانية . وتعيد هذه الفلسفة كل علم الى التجربة Empiricism ، ويصف اتباعها العقل قبل التجربة بأنه صفحة بيضاء ، كما يعتقدون ان العقل يتفاعل مع الموضوع الخارجي فيتشكل التفكير وقد أخذ وليم جيمس هذه النظرية عن ساندرز برس الذي أخذها بدوره عن كانت ، عندما قرأ مقاله « كيف نجعل افكارنا واضحة » اذ قال : « ان معتقداتنا هي بالحقيقة قوانين لأعمالنا ، ولكي نظهر معنى فكرة ما لا تحتاج الا لتقرير المسلك الذي تستطيع تلك الفكرة ان تسلكه » وقد قال جيمس بنظريته هذه من اهمية النعالية ، Transcendentalism .

عانى جيمس في شبابه آلاماً جسدية كما عانى من نوبات اليأس . وبعد ان حصل على شهادة الدكتوراه في الطب ذهب الى اوربا ليجد

علاجاً لاوجاعه . ولم يتخلص من حياة القلق وعدم الاطمئنان والخوف من الظلام الا عندما قرأ رينوفييه وتأثر بكتاباته عن الارادة . يقول رينوفييه : « الارادة هي الوسيلة التي تنيلنا ماتتمناه في الحياة » ومن هذا التأثر نشأت عنده نظرية العادة .

يعتبر كتاب «مبادىء علم النفس » الذي اصدره جيمس عام ١٨٩٠ اهم كتبه ، فهو يقع في ١٤٠٠ صفحة وأنجزه خلال ١١ عاماً ، اي بعد ان أصبح استاذاً للفلسفة في جامعة هارفرد ويمكن القول ان فلسفته سادت الربع الأول من القرن العشرين . درس جيمس التجارب المختبرية في علم الفسيولوجيا واهتم بالابحاث الموجهة اي مايسمى الظواهر النفسية .

ويعتبر جيمس علم النفس حركة ديناميكية . ويرتكز هذا العلم على اساسين :

١ ـ العادة وهي الدفة التي تسير الحياة لأنها تنقلب الى طبيعة ثانية .

٢ ـ تيار الشعور الدائم الذي يقضي على الذات الساكنة . فيقول جيمس ان التيارات العصبية هي التي تؤثر في الدماغ ، ويترك اضعف تيار عصبي اثرا فيه ويحفر ممراً . واذا تعمق هذا الأثر فإنه يترك فيه عادة ، وهذه العادة تسهل الأمور . وكلما كان الجهاز العصبي مرناً كانت العادات جيدة . والعادة تقلل من الاهتمام

الادراكي . وبواسطتها تتعلم المراكز الدنيا في الجهاز العصبي وتتسلم مهام انجاز الامور وتكمل عملها اوتوماتيكياً . فلا يقوم الدماغ وحده بتخزين المعلومات ليستعملها وقت الحاجة ، بل يشاركه الجهاز العصبي والعضلي . والجسم بأسره بالامكنة حيث الاعصاب والعضلات تعلمت دروسها الاولى ثم سارت عليها . فالمعدة مثلاً تقوم بعملية الهضم ، وكما يقول جيمس ان دماغنا قد نسي هذه العملية . والعقل جهاز من الاحاسيس موحد بقوانين المشاركة . ومادته هي الادراك الذي يصبح سلوكا . ويمكن القول ان فلسفة جيمس كانت فلسفة سلوك ، ويدل هذا على انه تأثر بداروين لأنه ربط تطور سلوك الانسان بتطور سلوك الحيوان .

وان ظهرت مع النصف الثاني من القرن العشرين تيارات فلسفية جديدة ، اكثر احاطة بالعلم ، تبقى فلسفة جيمس فلسفة علمية رائدة في القرن العشرين .

الكتاب

يتألف هذا الكتاب من مواضيع متعددة القيت كمحاضرات على طلاب الفلسفة وعلم النفس في جامعة هارفرد . وتمتاز بسلاستها وسهولتها كما تعتبر غنية بالأمثلة الحية . وهي ترتكز على ثلاث نقاط مهمة : ارادة الاعتقاد ، حرية الاعتقاد ، واعتماد الاعتقاد على النزعة التجريبية . وتبدو هذه النقاط واضحة في مقالتين هامتين القاهما وليم جيمس تحت عنوان : ارادة اليقين ، وهل الحياة تستحق العيش .

The Will to believe

او

ارادة اليقين

يعتبر هذا المقال تبريراً للايمان ودفاعاً عن حق الانسان في اتخــاذ موقف مؤمن في الامور الميتافيزيقية وغيرها . ويقوم هــذا التبرير على شرعية اعتناق الايمان من حيث الارادة . وعلى الرغم من هذه الشرعية ، فان المعتقدات التي يعتنقها الفرد يمكن ان تكون مجرد فرضيات Hypothesis . وكل فرضية تكون حية او ميتة . وتتوقف حياة الفرضية او موتها على موقف الشعوب التي تدين بها أو على الافراد الذين يعتنقونها ، وتقاس عندئذ بارادتهم للعمل Willingness to act . فالارادة اذن تعني الاعتقاد .

وعندما نقرر موقفاً ازاء موضوع يعني اننا قمنا بعملية اختيار . فالتقرير بين معتقدين هو اختيار . ويقع هذا الاختيار تحت ثلاث فئات :

١ — اختيار حي او ميت :

ويقسم هذا النوع الى فرضيتين . عندما يقال لي : « كن وثنيا او برهمانياً » فان هذه الفرضية لاتعني شيئاً . اما عندما يقال لي : « كن مؤمناً او كن ملحداً » فان للفرضية معنى .

٢ اختيار اجباري او اختيــار يمكن تجنبه :

عندما يقال لي : « اخرج بمظلتك او بدونها » تكون الفرضية اختيارية وذلك لأنني اقدر ان اتجنب الخروج . وعندما يقال لي : « احبني او اكرهني » فتكون الفرضية اجبارية ، كما يمكن ان اتجنبها بأن ابقى لا محباً ولا كارها . اما عندما يقال لي : « تقبل هــذه الحقيقة او ارفضها » فان الفرضية تحمل طابعاً اجبارياً .

٣ — اختيار آني أو ثانوي :

عندما يعرض عليّ مرافقة بعثة علمية لمكان مجهول او غير معروف ، فان خسارتي تكون اكيدة اذا لم اقرر بسرعة ، وتكون الفرضية آنية . لكن عندما تكون امكانيــة الاختيار مفتوحة فانها تصبح ثانوية .

لا يكتفي جيمس بهذا التقسيم لليقين او الاعتقاد بل يعرض علينا نقطة هامة وهي دراسة سيكولوجيا الفكر الانساني . هناك وقائع ، في نظره ، تقابلها طبيعة ارادتنا التي تتبع سبل المحاكمة . لكن هذه الوقائع لاتعني افكارنا عندما نقوم بتبديلها متى شئنا واردنا . فالانسان يستطيع ان يقول مايشاء من انواع التفكير لكنه لايكون قادراً على تصديقها ، مثلا لانستطيع ان نقول ، كما يظهر لنا هيوم ، ان الشيء موجود وغير موجود في آن واحد ، أو كما يعتقــد باسكال « اما ان تؤمن ان الله موجود او أن لاتؤمن » .

وينتقد جيمس وجود ميل مسبق للاعتقاد . فاذا وجد هذا الميل فان الفرضية تكون ميتة ، ولكنه لايعني ان هذا الاعتقاد يوجد بدون هذا الميل . وعلى هذا الاساس تكون ارادة اليقين عملا سخيفاً لأنها تقف امام الوقائع بدون حكم مسبق . وهو يوافق لكيفورد عندما يقول :

« يسقط الاعتقاد عندما يخضع لأقوال لايبرهن عليها بالبرهان الكافي ، وعندما تكون نتيجة أهواء الفرد » .

* * *

يشدد جيمس على الارادة الحرة Free will التي توجد في طبيعتنا المريدة Willing nature لكنه يعود ليعطينا فكرة جديدة عن مواقف الارادة الحرة المختلفة . فالانسان يرى نفسه مصدقا Believing ، ونكاد ان لانعرف لماذا يأخذ موقفاً كهذا . وهنا يقدم جيمس عدة مواقف يتخذها الانسان متأثراً بعوامل مختلفة :

١ ـ هناك اعتقاد يتولد من البيئة ويكون بمثابة السلطة أو الحجة Anthority .

٢ ـ هناك اعتقاد كايمان في شيء ما .

٣ ـ هناك اعتقاد كايمان في ايمان شخص ما .

٤ ـ هناك اعتقاد بالحقيقة ذاتها ، اعتقاد انه توجد حقيقة وانها وعقولنا قد وجدت بعضاً لبعض .

يعتبر وليم جيمس ان هذه الأنواع من الاعتقاد يمكن أن تنتج عن تأكيد عاطفي Passionate للرغبة ، وتسند هذه الرغبة انواع مختلفة من الدوافع . لكنه يوافق على ان كل واحد منا يريد ان تكون عنده حقيقة ويريد ان تصل دراساته ومباحثاته الى درجة افضل وهي في سيرها نحو الحقيقة ، فتعيش افكارنا عندئذ في المركز الذي تصل اليه ، وينطلق الى مركز افضل ، ويقوم هذا الانتقال على التجربة . ومع ذلك يعتقد جيمس بصعوبة الوصول الى هذه الدرجة . فالانسان المنطقي لايستطيع ان يعطي جواباً لاعتقاده ، وكل مايمكن ان يقدمه هو عمله الارادي الذي أوصله الى عمل او موقف Act of person .

وكقاعدة لايعتقد الانسان بكل الوقائع والنظريات التي لاتعمل معه . فالعالم المادي لايتقبل فكرة تأثر الافكار ببعضها Telepathy لأنه يعتقد انها تسيء للعلم . والمنطقيون Logicians يقيمون القانون الذي يفرضونه علينا على رغبة طبيعية محاولين ان يبعدوا كل العوامل التي لاتنفع بحثهم . ويستنتج جيمس ان طبيعتنا اللاعقلية Non - intellectual تؤثر على محاكاتنا لأنها تلعب دوراً هاما في تشكيل معتقداتنا . لذلك يرى ان وضع الاشياء بعيد عن ان يكون بسيطاً ، فالتبصر Insight والمنطق لايشكلان العاملين الوحيدين اللذين ينتجان معتقداتنا .

وبعد معرفة هذا الوضع الشائك لليقين يتوجب علينا ان نعلم كيف يمكن ان نعتبره عاملا لتشكيل عقولنا ، فنحن مازلنا نصطدم بعقبتين ، اولاهما هي طريقة المفكرين المطلقين Absolutist الذين يقولون انه بقدرة الانسان ان يصل الى الحقيقة ويعرف من يصل اليها ، وثانيتهما طريقة المفكرين التجريبيين empiricist الذين يقرونانه بالرغم عن امكانية التوصل الى الحقيقة لكننا لا نعرف متى نصل ، كما يفرقون بين معرفة الشيء وبين التأكد من معرفته . وتظهر هاتان الطريقتان ، على الرغم من انهما ليستا مشككتين بالمعنى الحرفي للكلمة ، درجات مختلفة . من الاعتقاد . ويخاف جيمس من ان يتورط الانسان في الارثوذكسية ، التي هي نظرة مطلقة في شكل ما ، وذلك لأنها تؤدي الى نفي المواضيع الاخرى وتثبيت ذاتها ،

ولكي يقضي جيمس على هذه الصعوبات القائمة يعترف انه عندما يقبل الموضوع تماما في العقل ، لا يعود يوجد مجال للشك ، ولا شيء يعمل حقاً الا الموضوع والعقل . وهذا هو استنتاج واضح البرجاتية أو الذرائعية .

ولكن ، بما ان الناس هم مطلقون بشكل أو بآخر ، فماذا يمكننا ان نعمل ؟ هل نعتبر الفكرة المطلقة قوة ام ضعفاً ؟ ان جيمس تجريبي ويعتقد انه سيستمر في التجربة والتفكير بها ، ويعتبر الفكرة المطلقة ضعفاً . وعلى هذا الاساس تصبح افكارنا اكثر دقة وصحة ، وبالاضافة لكل هذا لا يتعلق بأية فكرة لأن هناك حقيقة اخرى ، هي حقيقة ادراكنا Consciousnes ؟ بالذات .

ويتساءل جيمس : اين يوجد الجواب الحقيقي ؟ هل في الفرضيات التي تخبرنا شيئاً عن الواقع الحسي الملموس Concrete اذ انه لحد الآن ، لم يتفق على تجربة مادية واقعية واحدة كحقيقة . فالبعض يجعلون ان القانون خارج عن الوعي من لحظة الادراك ، والبعض يجعلون لحظة الادراك موضوع تجربتها . وبالرغم من كل هذا يبقى البرهان الموضوعي شوقاً Aspiration يشير الى المثال البعيد لحياتنا المفكرة . اذ عندما نفكر ان شيئاً ما صحيح فكأننا نقول اننا نعتمد على برهان موضوعي . لكن تفكيراً كهذا ليس الا نقطة موضوعية تضاف الى الكل . ودليلنا على هذا هو الاخطاء الفكرية التي تقع فيها المذاهب الموضوعية والمطلقة . ويقدم لنا جيمس نماذج من هذه الاخطاء ...

يوجد اله شخصي – لا يمكن ادراك اله شخصي – يوجد عالم مادي عقلي يدرك حالا – العقل يعرف افكاره فقط – القانون الاخلاقي موجود – الواجب هو نتيجة الرغائب – المبدأ الروحي الابدي موجود في كل انسان – توجد حالات انتقالية للعقل – توجد سلسلة لاتنتهي للعلل – توجد علة مطلقة اولى – يوجد الواحد الاول – الاول المتعدد – استمرار طبيعي – لا استمرار في الاشياء – لانهاية – نهاية – يوجد هذا – لابل يوجد ذاك .

اما جيمس ، مع انه يظهر لنا هذه الاخطاء ونقط الاختلاف ، لكنه كعالم تجريبي لايهمل الحقيقة مع انه يمكن ان يهمل الحقيقة الموضوعية بعض الاحيان . فهو يتعلق بالحقيقة ويدركها كلما اضاف طبراته الى بعضها ، وهو يختلف عن اتباع المطلق ، مع انه لا يتنكر له ، في أن قوة طريقته تقع في النتاج وليس من اين تأتي بل في التقرير الى اين تؤدي ، بينما تقع طريقتهم في المبادىء ، ويشيد جيمس بطريقته التي تجمع بين الاثنتين بعد تأكيد العقل اي الارادة في اليقين .

اما في المسائل الاخلاقية ، وذلك لأنها تقف امامنا ولا تنتظر برهاناً حسياً ، فان اليقين يختلف لأنه ليس مسألة ملموسة ، بل هو مسألة ماهو جيد وصالح . وفي حالة كهذه لانستشير العلم الذي يخبرنا عما يكون ، بل نستشير القلب الذي تكلم عنه باسكال . ولا ينكر جيمس ان العلم ذاته يستشير قلبه عندما يقرران تأكيد الواقع وتصحيح الخطأ هما الخير الاسمى للانسان .

Is Life Worth living

هل تستحق الحياة ان نعيشها

تتوقف الحياة على من يعيشها On the liver ، هذا مايقوله وليم جيمس. لكن هذه الحياة تتراءى بمظاهر متعـــددة وتختلف بمفاهيمها وصورها . ولكي يبرهن لنا جيمس على هذا التعدد والاختلاف فانه يقتطف عدة مقاطع من اقوال المفكرين الذين عبروا عن اتجاهاتهم في الحياة . فيقول شكسبير في احدى رواياته :

لن اجعلك تضحك بعـــد الآن لأن الاشياء اصبحت تتمثل في جهة رصينة وجـدية ، جهة كئيبة وعالية ومليئة بالحزن .

ويتضمن قول شكسبير هذا مسحة من التشاؤم ، مسحة تظهر ان في اعماق قلوبنا توجد زوايا يحمل بها لغز الحياة بحزن .

ويقتطف وليم جيمس مقطعاً من قصيدة لجيمس طومسون يتحدث فيها عن الحياة ، عن عـــدم تفهمنا لها ، وانها لاتحمل الخير لنا ، ويستطيع الانسان ان ينهيها متى شاء . وتعتبر هذه القصيدة تعزية لمن هم في مثل حالة هذا الشاعر ، ولمن تكون الحياة لهم مصدر خوف لامصدر ابتهاج .

ومن جهة ثانية يقتطف جيمس اقوالاً لعـــدد من الكتاب الذين ينظرون الى الحيـــاة بشيء من التفاؤل ولو انهم يعتقدون بوجود الشر . وهاهو والت هويتمان يصف لنا مراحه في الحياة :

ان انتشق الهواء ـ كم هو جميل !

ان اتكلم ، ان أمشي ، ان امسك شيئاً بيدي ،

كم هو جميل !

ان اكون الاله الحي ـ كم هو جميل !

بالعظمة الاشياء ، بالعظمة اصغر جزيء في الوجود !

بالروحانية الاشياء !

انني لاأرى نقصاً واحداً في الكون ،

ولا أرى سبباً واحداً يدعو للبكاء والكآبة .

ومـا هو روسو يصف تسع سنوات قضاها في آنسي :

« كيف اصف ما لااستطيع ان اقوله او اعمله او افكر به ؟ اني احس به . . . بشعوري ذاته . . كنت انهض مع شروق الشمس وكنت سعيـــداً ، كنت امشي وكنت سعيداً ، كنت اتجول في الغابات والوديان وكنت سعيداً . . . كنت اقرأ واعمل في الحديقة وكنت سعيداً . . . كانت السعادة تتبعني الى كل مكان . . كانت فيّ ولم تتركني لحظة واحدة » .

لو كانت مشاعر كهذه دائمة لما تكلم الفلاسفة عن قيمة الحياة . لكن الحياة هذه تتبعها اوقات في السوداوية العصبية ، وحتى روسو ، كاتب هذه السطور ، كان فريسة لها .

* * *

يعتبر وليم جيمس التشاؤم مرضـاً تسبب في أصله عن تساؤلاتنا الميتافيزيقية . فهنـــاك اسئلة لاأجوبة مقنعة لها ، وترمينا في حيرة وقلق شديدين . ويعتقد جيمس أن على الانسان ان يمارس الشعور الميتافيزيقي بحرية اكثر ، وان ينتقـل من المنظر الليلي للحياة الى منظرها النهاري . وعلى الرغم ان الاسئلة التي لاجواب لها تؤدي الى التشاؤم كمرض ، لكنها تعتبر الدواء لتشاؤمنا . ولكي تتحول الى دواء يلزم ان نكون اكثر حرية في ممـــارسة

تفكيرنا دون ان نخضع لفرضيات ميتة ، كما يلزم ان نعمل دوماً لأجل تحقيق حياة افضل تقوم على امرين رئيسيين: ١ ـ ان نترك الوقائع قائمة بذاتها عندما نقرأ الحقائق الميتافيزيقية او نعتقد بها . ٢ ـ ان نعتقد بوقائع مكملة لهذه الحقائق، ولا تتنافى معها .

تحدثنا النظرية الطبيعية عن وجود قانون طبيعي خير ، ويشيد مارك اوريليوس بهذا القانون عندما يقول :

ايها الوجود ! ماتريده اريده .

ويعتبر هذا النداء دعوة رصينة لاتباع القوانين الطبيعية والعمل بها لابل وتقليدها . والطبيعة ، حسب هذه الدعوة ، صالحة وخيرة . ولكن ، بالرغم عن هذا الصلاح ، توجد تناقضات تفصح عن واقعها : فالقبح والجمال ، والمحبة والكره ، والموت والحياة ، يجتمع بعضها مع الآخر في شراكة لاتنفصم . وتعتبر هذه النظرة للحياة خاطئة .. ويقع الخطأ في اجتماع شيئين لايتفقان . وعدم الاتفاق هذا يؤدي الى تناقض ينطوي على مأساة ـ مأساة موت الحياة .

ونحن نلمس المأساة في ضياع الانسان عبر التناقضات المريرة . ويعبر كارلايل عن هذا الضياع على لسان احد اشخاصه ، « أعيش في خوف دائم غير محدود ، ولا اعلم كيف . ويبدو لي ان جميع الاشياء في السماء من فوق وعلى الارض من تحت تؤذيني ، كأن الارض والسماء مكانان مخيفان ، وانا اقع بينهما » هذه هي التجربة التي تنبع من شعور لاديني فتؤدي الى تناقض قاس نتيجة لعدم اقامة التوازن بين الموجود واللاموجود . ويخبرنا جيمس انه باستطاعة الانسان ان يحس بمأساة العالم دون ان يكون الضحية . وذلك اذا استطاع ان يواجه الصعوبات بحكمة وأناة . فباستطاعتنا ان نعتقد ان شيئاً ما في اعماقنا يخبرنا عن وجود « روح » للأشياء نرتبط بها ونقدم لها الولاء ، ولأجلها نحافظ على مواقفنا الجدية .

ان عدم التوافق الذي ينبع فينا يجعلنا ان نتنكر للقيم الطبيعية عندما نجعل الطبيعة مصدراً للخير والشر معاً . حقاً ، ان الخير والواجب ينبعان من الطبيعة ولكن الشر لاينبع منها . فالطبيعة غير منحازة لأنها ذات جوانب اخلاقية متعددة وليست هي طبيعة اخلاقية واحدة . ونحن لانرتبط بها لأنها حيادية ، لذلك نحن احرار في تعاملنا مع اقسامها المتعددة ، واحرار ان نهدمها او ان نطيعها ، ولا نتبع في عملنا هذا الاطريق الحكمة التي تجعلنا ان نتفق مع مظاهرها عندما تساعد أهدافنا الخاصة . وعندئذ نطرد الخوف نهائياً لكي نكون انساناً جديداً . فالتخلص من اله الخوف يكسبنا سعادة عظيمة . ويلزم ، في حال تخلصنا من اله الخوف هنا ، ان لانعيد صنم الطبيعة لأننا ، بعبادتنا هذه ، نعود للخوف . ففي اعماق الانسان توجد حيوية تستجيب تماماً للحياة عندما يبطل عامل الخوف . وهكذا نعبر عن الحرية ، حرية الارادة والاعتقاد في اعمالنا .

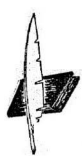
وفي سياق حديثه ، يتكلم جيمس قائلا ان صعوبات الحياة لاتقلل من حبنا لها بل على العكس تثيرنا وتحيينا ، وبالتالي يمتلىء الفراغ الذي يؤدي بنا الى الضياع . فالتفاؤل ينبع من الجهاد والعمل

والرضى على العيش ينبعث في وسط الحياة الصعبة ، ويتعلق الناس بالحياة عندما تشتد وطأتها . وقد كان الناس اكثر حيوية وتحقيقاً لامكاناتهم واكثر تعلقاً بالحياة عندما هددوا بالأمراض والكوارث والحروب .

وبالاضافة الى هذه الحيوية التي تبعثها فينا الحياة كطبيعة مريدة لها ، تبقى مسألة الشر قائمة. ويرى جيمس ان الشر لا يقف عقبة امام الانسان لأنه يستطيع ان يتجنبه أو يبعده طالما ان الطبيعة محايدة ، وطالما انها نظام يشكل جزءاً من عالم غير منظور لايرى ، نبني ايماننا عليه . لهذا يجب ان نعيش ونقيم الحياة . وعلى الرغم ان العقل الانساني لا يتقبل الوقائع التي لاتلمس ، فان معرفتنا لاتزال متضمنة في عالم اوسع نعتمد عليه كبرهان حسي لمعتقداتنا ! وفي حال عدم توفر هذا البرهان ، فليس لنا الحق ان نشكل فرضية .

ولا يستطيع الانسان ، في نظر جيمس ، ان يصبح ملتزماً لأن الشك واليقين يعملان معاً ، فهناك حاجة داخلية عند الانسان غيرها فينا ولا يقوم علم بدون هذه الحاجة . ان عالم الطبيعة هذا هو علامة لشيء اكثر روحانية ، وتبدو الحياة ذات قيمة للعيش اذا « تأكدنا » من شجاعتنا وصبرنا عليها ، واذا علمنا أهمية ملكاتنا التي تسير بنا من ساعة لاخرى نحو المرنة في طريق خطر تقوده الحكمة التي تؤدي اخيرا الى الاعتقاد بصواب حاجاتنا . ويوجز جيمس هذا بقوله ؛ « اعتقد ، تكن على حق لأنك تنقذ نفسك » .

ان مسألة كون الحياة تستحق العيش تتوقف على الذي يعيشها ، وصلاح حياتنا كلها يقوم على ايماننا بصلاحية عالم غير منظور يلهمنا الجهد والشجاعة التي تجعل هذا العالم المنظور صالحاً . ويتساءل جيمس ، بعد هذا الاعتقاد ، هل ان ايماننا بهذا العالم غير المنظور يحقق ذاته ! من يدري؟ انها مسألة ممكن ؟ والعلم كله مسألة ممكن؟ ولكنه يتخلص من كل هذا ما يلي : « لاتخف من الحياة ، واعتقد انها تستحق العيش » .



مع الشاعر والأديب المغترب : جورج صيدح

قام بالمقابلة ـ ابو طالب زيان ـ

القاهرة

لم يعد خافيا على الناطقين بالضاد ، مكانة الشاعر والاديب : جورج صيدح ، الذي حاول في هذا الحديث ـ دون مواربة ـ أن يضع النقط فوق الحروف ، دون الهروب من الواقع الذي عايشه هذه السنين الطوال .

وفي هذا اللقاء ، الذي تاقت نفسي اليه على بعد الشقة ، وطول السفر ، كثير من الايضاحات التي ترين على دنيا المغتربين ، التي هاموا اليها ، ورحلوا ، وفي نفوسهم حب لأوطانهم ، ولفتة حلوة نحو منبتهم وأصل أرومتهم الضاربة في تراب الوطن العزيز .

فلقد ارتسمت علامات ، وحلقت استفهامات فوق سماء المغتربين ، وتضاربت اقوال ، حول الهجرة والمهاجرين ، وان تكن شكلا لاموضوعا ، تنقض من جهادهم ، وتقلل من عزمهم ، وترمي حلمهم بما لاتحبُّ أن يكون فيه ، من استكانة أو عدم صبر على المكاره ، او حب العيش الطري ، او الدنيـــا البهيجة ، وغير هذا مما قيل ولا يزال يقال ...!!

الا أن الذي لامشاحة فيه ، أن هؤلاء المهاجرين ، قد أثبتوا انهم اجدر بالحياة ، واولى بالتكريم ، وأقمن بالحفاوة من غيرهم .. الذين يعيشون عيش الكسالى ، ويُعَوِّلُون على انفسهم ، ويتمنون أن لو سلكوا طريق الهجرة ، وعملوا مايعمله هؤلاء المهاجرون ...

فالواقع ، أن هؤلاء المهاجرين ، لم يطلبوا العيش لسد الرمق وحسب ، بل كان رائدهم ، وهم عطاش ، أن ينحتوا في الصخر مجرا ، يعب منه أبناء يعرب في كل مكان ، وان جاء هذا الجهد على حساب لقمتهم المبللة بالدم والدمع والاغتراب.!!

والمطلع على هذا الثبت الذي نظمه الاستاذ جورج صيدح في هذا الحديث ، يأخذه العجب ، ويلفت نظره ماتولد عن المهاجرين في ديار الهجرة ، على تباين العيش فيها ، واختلاف اللغة بين ابنائها .. ولكن نرى عصبة أقامت من نفسها حارسا على اللغة ، وصرحا للأدب ، لاتعترف بهذه الامجاد ، وتحاول ـ وهيهات ـ أن تعصف بها ، اوتشكك في نفعها ، او جدواها على مدى الحياة ، لكن ليتهم يضعون لبنة في دولة الأدب بأقلامهم هم ، ولا يعيشون عيش الطحالب على حساب الآخرين.!!

ان جورج صيدح، الشاعر والأديب، يتحدّى الزمن، ويجعل من قلمه نوراً يهدي الادباء، ويعمل على استمرار دولة الأدب في المهجر، بالرغم من المعاول التي تضرب في هذا الصخر، لكن دون جدوى. وحسبه كفاه، ماقد قدم من زاد الى ابناء العرب، وما حند له هؤلاء الابناء بعد الري، وما ظهر على اقلامهم بعد الشبع ...

القاهرة ـ أبو طالب زيان

ـ منذ متى فكرت بالهجرة ؟

—— هجرتي الاولى التي اسميها الهجرة الصغرى من سورية الى مصر، لم تكن نتيجة تفكيري واختياري، بل وليدة ظروفي العائلية، اذ كان عليّ عند انتهاء الدراسة في كلية عنطورا عام ١٩١١، أن ألتحق بأسرتي التي استوطنت القاهرة. بدلاً من العودة الى دمشق، أما الهجرة الكبرى من مصر الى بلاد الغرب عام ١٩٢٥، فقد وقعت وقوع الصاعقة على غير انتظار، بلا تصميم سابق ولا تخطيط للمستقبل.

ـ هل كان هــــذا لأسباب، أم للسياحة وتبديل الصحاب ؟

—— مانزحت عن القاهرة الا لأسباب، مثلها قاهرة طرحتني في لجة اليأس وسدت في وجهي منافذ النجاة الا من طريقين: الانتحار او الاغتراب، فاخترت الطريق الثاني نزولاً على حكم أسرتي، وفارقت مصر مثبولاً مذهولا، أسعى الى مجهل انزله مجهولا، وارمم فيه ماتصدع من صحتي وكرامتي بعد افلاس تجارتي.

ـ ماذا لقيت من المصاعب عند نزولك ديار الغربة ؟

—— لقيت الشقاء بجميع اشكاله والوانه ككل مهاجر عربي ينسلخ عن كل مايحب ليجد نفسه في فراغ مخيف، يحد اليه النظر فلا يبلغ اعماقه، ويسفك فيه عافيته من اجل بلغة العيش فتتأبى عليه. غيري من مواطني اضطر الى حمل «الكشة» وقرع الابواب والايغـال في البرور في مطلع هجرته. اما انا فقد توهمت ان ثقافتي وخبرتي التجارية تعصماني من هذا الذل، وتفتحان امامي باب الوظائف المحترمة، فسعيت اليها وخاب أملي، لأن جهلي للغة الاسبانية، وجهلي اساليب التجارة المحلية، عطلا بقية مؤهلاتي. الى ان جاء يوم كان فيه جيبي على آخر رمق، وكنت اعرض خدماتي على صاحب متجر كبير، فسألني هذا الرجل: ان كنت احسن قيادة السيارات، فأجبته بالايجاب. فرافقني الى دائرة السير لامتحان كفايتي، فنجحت في الامتحان، ونلت رخصة القيادة، وتم الاتفاق مع التاجر على أن أحل محل سائقه المريض، وأن ارافق معتمده في جولته الدورية لزيارة العملاء في داخلية البلاد، ابتداء من صباح الغد، ولكنه لما القى نظرة فاحصة على ملابسي الانيقة من الرأس الى القدمين، أرجأ موعد السفر بضعة ايام، ريثما يهيء لي جهازاً كاملاً من الملابس يتناسب مع مهنتي السامية .. وإن أنس لا أنس ساعة تلبست شخصيتي الجديدة، وتأملت هندامي المسخري في المرآة، فضحكت على الاقدار التي كانت تضحك عليّ.

في مخيلتي صورة الشاحنة (كيون فورد عتيق الايام) التي قدتها في شهر نيسان من عام ١٩٣٧ محملة بصناديق المساطر والبضائع عبر وعور لم يعبد فيها طريق، ومستنقعات تغطيها الحشرات، وتسبح فيها الحيات. وفي ذاكرتي المآزق التي وقعنا فيها لما دخل موسم الامطار، وأغرق السهول بفيضاناتها، فكانت الشاحنة تعلق بالاوحال اللزجة، او تقف أمام سد من الحجارة انهارت أمامها، أو تغرق في منحدرات تحولت الى برك عميقة، وليس لدينا من وسائل الانقاذ غير سواعدنا، فان دهمنا الليل قبل استطاعة السير، تركنا الشاحنة في مكانها القفر، وحمل كل منا مرجوحته Hamaca ليربط أطرافها الاربعة بأربع شجرات متقابلة من أشجار الغابة، وينام ليلته على مهدها تحت نجوم السماء فوق سطح الماء.

وأذكر ما حييت عذابات الاسبوع الاخير من رحلتنا حين تعطلت الشاحنة، فأعيانا اصلاحها وأعيانا دفعها، فأهملناها وخطونا في الوصول على أقدامنا الى اقرب قرية آهلة، ومنها أرسلنا من يستحضر الشاحنة إلينا مجرورة بزوج من الثيران فلما وصلت كان النهر العريض الذي يجتاز القرية حائلا دون مرور السيارات، لأنه لا جسر عليه وقد ارتفع ماؤه الى مستوى متر ونصف متر، فأفرغنا الشاحنة من محمولها واستأجرنا قافلة من الأحصنة والبغال لنقل ذلك المحمول الى آخر مدينة نقصدها على مسير يومين من محلتنا، كما استأجرنا عدداً من رجال القرية لمساعدتنا على عبور النهر مع ركائبنا وأمتعتنا دون ان نتعرض لغرق أو تلف. فقام الرجال بالمهمة بعد أن تعروا تماما، وفرضوا عليّ وعلى رفيقي ان نتعرى ونجعل من ثيابنا صرة نشدها الى الرأس ونقطع النهر غائصين في الماء الى أعناقنا بينما يقطعونه هم حاملين السروج والأمتعة على رؤوسهم، وتقطعه الدواب سابحة بالقرب منا محدوة بغريزة البقاء.

مشهد مأسوى غريب، أشبه ما يكون بالمشاهد التي تخيلها دانتي في الكوميديا الالهية، أو التي تعرضها لوحة التلفزيون عن المعارك الوحشية في أدغال الكونغو. وقد تلاها مشهد أعجب لما بلغنا الضفة المقابلة، ووقفنا صفاً واحداً ناشرين أجسامنا في مجرى الهواء حتى تجف. ولما جفت وارتدينا ثيابنا كان الغروب قد ادركنا والعياء قد أنهكنا فبتنا تلك الليلة في العراء، قرب الركائب والرواس، على الصناديق المصطفة على ضفة النهر، وقمنا قبل الفجر فجمعنا أمتعتنا وحزمناها على ظهور الدواب، ثم اندفعت القافلة في سير بطيء على الطريق الشاق. الركائب تضرب في الطين العميق غائصة الى الركب، وأنا منبطح على ظهر الجواد، لا أقوى على رفع رأسي من شدة الحمى الراعدة في عظامي..

تلك كانت الخطى الاولى التي كتبت على المهاجرين، وصفت لك خطوة واحدة منها لتقيس على صعوبتها الصعوبات الاخرى التي لا يتسع المقام لوصفها.

ـ هل أثر ذلك في نفسك ؟

ـــ تنوعت التأثيرات. فكانت على صحتي أمراضا ثلاثة (الملاريا، والدوسنطاريا، والفتق) قضيت شهرين في مداواتها، وكانت على نفسي درساً قاسياً، اعتبرته قصاصا سماويا عادلا على ما اقترفته من هفوات في طيش الشباب. فاستمتت

براحة في ضميري، أنعشت معنوياتي وأرهفت عزيمتي لكفاح جديد ، اذ كان من حسنات الرحلة انها علمتني الرجولة ، وعودتني على خشونة العيش ، وعلى احتمال الحرمان بصبر ، وأتاحت لي في الوقت ذاته ، أن أتعلم اللغـــة الاسبانية ، وأتمرن على أساليب التجارة المحلية، فأصبحت اكثر استعدادا لشق طريقي ، وبناء مستقبلي ، واستغلال ناحية أخرى من مؤهلاتي غير قيادة السيارات ...

أما من الجهة العاطفية ، فحدث ولا حرج عن لواعج الحنين التي أثارتها في نفسي تلك المحنة ، وعن قصائد الندم والشكوى التي نظمتها وقتئذ ، مبللة بدموع العين ، ومخضوبة بجراح الفؤاد .

ـ هل كنت تشتغل بالأدب قبل هجرتك أم طرأت عليك هذه الصناعة وأنت في المغترب ؟

ـــ لم يكن الادب شغلي لاقبل الهجرة ولا بعدها ، بل كان العلة الدائمة في ذاتي الحقيـــة ، تظهر أعراضها من حين الى حين كأدوار الحمى تنتابني ولا تفارقني حتى اكتب أو أنظم شيئاً ، فتجدني أمارس الادب منذ حداثتي دون ان أتفرغ له يوما من الأيام ، او ان اتوفر على دراسة شئونه وفنونه في الكتب ، نظمت الشعر في المدرسة الابتدائية في دمشق ، وفي الكلية الثانوية في عنطورا ، وبدأت بارساله الى الصحف منذ عام ١٩١٠ ، فنشرت جريدة « البرق » في بيروت قصيدتين ، ومجلة سركيس في القاهرة قصيدة ، ومجلة « المقتطف » قصيدة، واشتهرت قصيدتي : « نجمة الليل » التي لحنها الموسيقار كميل شامبير ، وذاعت كأغنية مطبوعة على اسطوانات دون أن يعرف اسم ناظمها لأني لم أوقعها باسمي ، بل بثلاثة أصفار بين هلالين ، ثم كانت الهجرة الصغرى الى مصر والانهماك في هموم التجارة ، فلم انقطع عن نظم الشعر ، حتى انك لاتفتح مجموعة من مجلة سركيس بين عام ١٩١٢ الى عام ١٩٢٥ ، دون ان تجد فيها بعضا من قصائدي ، وربما عثرت على قصائد من شعر المناسبات في مجلة « الاخاء » ، ومن شعر الرقاعة في مجلة « الكشكول » ، والى ذلك الحين لم يطرأ على شعري الصناعة التي تشير اليها في سؤالك ، بل بقي مدرسيا ساذجا كما كان في زمن الحداثة حتى الى مابعد الهجرة الكبرى الى فنزويلا التي لم أطالع فيها كتابا عربيا واحدا ، أو احتك بأديب عربي مدى عشرين عاما ، فلم يتطور شعري الا بعد انسحابي من ميدان التجارة وانتقالي الى الارجنتين حيث وجدت للغة العربية منابر في الاندية والصحف والمجالس والسفارات فهرعت الى سوق الادب ، ودخلتها من الباب الواسع .

ـ هل قلت الشعر وأنت في المهجر ؟

ـــ أقل الملم بصحافة المهجر في الامريكتين الشمالية والجنوبية ، يجيب عن هذا السؤال . ويكفي الرجوع الى مجلة «الاديب» البيروتية ، فقد نشرت الكثير من شعري . ولو أحصيت الدواوين المهجرية لوجدت ثلاثة منها تحمل اسمي : « النوافل والنبضات وحكاية مغترب » ولعجبت من ضخامة إنتاجي في السنوات الخمس التي قضيتها في بوئنس ايرس ، مع اني لم اقصر في

الدواوين سوى جزء صغير منه . أما الجزء الكبير فقد نشرته في حينه صحف نيويورك « السمير بنوع خاص » وديترويت ومكسيكو وسان باولو وبونس ايرس وسانتياغو شيلي .

ـ من من الادباء في المهاجر كنت تعده هادياً لك ؟

— ايليا ابوماضي ، كان لي بمقام الهادي والموحي والقدوة المثلى مدى هجرتي ، وكان منزله محجتي . أزوره كلما حملتني أشغالي الى نيويورك ، وأتزود من روح الشاعر مايبعث أنفاس الادب المحشرجة في صدري . وقبـــل الهجرة كان لي صديق آخر يقوم بمثل هذا الدور في دمشق هو جرجي موسى حداد ، معلمي ومرشدي ورفيقي في المنازلات الاولى لعرائس الشعر ، وأحد الشهداء الخالدين الذين شنقهم السفاح التركي جمال باشا ، إبان الحرب العالمية الاولى .

ـ من هو الشاعر الذي يعجبك من أبناء المهاجر ولماذا ؟

— أعجب بعدد عديد من شعراء المهجر الكبار — الكبار حقا — وأطرب لشعرهم ، وأحاول ان أقتفي أثرهم ، وان كان لابد من التخصيص ، فأخص بالذكر شاعرين : ايليـــا ابوماضي ، وشفيق معلوف . لكل منهما عبقرية ينفرد بها ويتفوق ، ولكل منهما شخصية تملأ شعره .

ـ لماذا اقتصرت الهجرة على اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين ، مع أن الوطن العربي كبير ؟

— لأن بواعث الهجرة كانت أشد وقعاً على اهل لبنان وسوريا وفلسطين من وقعها على اهل مصر والعراق وغيرهما . فالهجرة كانت ولم تزل نتيجة لضرورات لامهرب منها ، تحتم نفسها على المرء حين لايجد مايفرج ضيقه سواها .

وأهم اسباب هذا الضيق : الفقر ، يأتي بعده الاضطهاد من اي نوع كان وبعده جور الحكام واستبدادهم بالأعنـاق والأرزاق ، واخيراً الطموح الموروث من أجداد خاضوا البحار ، وجابوا القفار : طموح الى العيش الكريم الحر ، والى الثراء والجاه والبذخ .

وهذه العوامل تختلف فاعليتها في سكان بلد عنها في سكان بلد آخر ، فلا تعجب ان اقتصرت الهجرة على أهل لبنان وسوريا وفلسطين ، الذين عانوا نكبات التنكيل والتشريد والتجويع أثناء ثوراتهم على حكم المستعمرين ، اكثر ممـا عاناه سواهم من الشعوب العربية ، ثم أنسوا في نفوسهم الشجاعة الكافية لركوب الأخطار ، فبادروا قبل سواهم الى النزوح عن الديار .

ـ ذكرت في كتابك : « أدبنا وأدباؤنا » كثيرا من الشعراء والادباء وخاصة امين الريحاني وجبران خليل جبران ، فهل كان لك اتصال بهذه الكثرة في بلاد الغربة ، أم هو الاتصال الروحي الذي يجمع بين الأدباء ؟

— شخصيا لم أعرف جبران ، ولم أعرف نعيمة إلا في لبنان، ولم أعرف الريحاني الا في مصر، ولكن اتصالاتي برفاقهم في الرابطة القلمية في نيويورك كانت شخصية ، ومثلها كانت اتصالاتي بعشرة ادباء آخرين من خارج الرابطة . فكنا نلتقي في فترات قليلة متباعدة حينما ازور نيويورك ونتراسل عن بعد من حين الى حين ، ولما تواترت أسفاري الى نيويورك ابتداء من عام ١٩٣٩ كان جبران قد انتقل الى رحمة ربه ، ونعيمة استقر في بسكنتا ، والريحاني في الفريكة ، فلم تتوثق صلات المعاشرة والمراسلة الا مع ايليا ابو ماضي من ادباء الشمال . اما ادباء الجنوب في البرازيل والارجنتين بنوع خاص ، فقد عشت بينهم ، وعاشرت كل فرد منهم تقريباً ، وعرفت احوالهم وسيرتهم على مدى السنين بطبيعة الحال دون ان أتعمد البحث والاستطلاع ، فجاءت دراساتي عنهم اوسع واعمق . وقد اصاب نعيمة بقوله : اني كنت متعباً في كتابتي عن ادباء الشمال ، ومستريحا في كتابتي عن ادباء الجنوب .

ـ هل في المهاجر الامريكية نهضة أدبية ، ومتى بدأت ، وعلى يد مَنْ ؟

— بزغت النهضة الادبية في المهاجر الاميركية بزوغ الفجر على الافق المظلم في العقد الاول من هذا القرن ، حين كانت الصحف العربية هزيلة ، والاقلام خاملة ، والبيان قوالب محنطة ، والشعر صناعة المقلدين . فلما أطل الريحاني مبشراً بالثورة الاصلاحية ، وهزّ العصا في وجوه الجامدين المترمتين ، كان جبران يبث في الأدب العربي روح التجديد والتجويد ، وينثر بذور النهضة الحديثة بمقالاته وقصصه ابتداء من عام ١٩٠٥ . وفي أنسب وقت حلّ نعيمة في نيويورك لكي يلعب الدور الرئيسي في تركيز النهضة الادبية على دعائم متينة، ولكي يحدد جوهر الادب الجديد وشروطه ومناهجه ، ثم نهض الشعر اروع نهضة على يد أبو ماضي ، مدعوما بنسيب عريضة ، وندره حداد ، ورشيد ايوب ، فعزت دولة الشعر الى جانب دولة النثر ، وتكونت من الفريقين تلك الرابطة القلمية التي طبقت شهرتها الآفاق ، وكانت للجوالي المغتربة ، النور الهادي ، وللأقطار العربية الصوت الحادي .

ـ هل أثرت هذه النهضة في حياة الادب، وهل استفاد منها الأدباء العرب؟

— لايستطيع أحد أن ينكر تأثير النهضة المهجرية في الادب العربي العام . فقد تلقى أدب المهجر الى الاقطار العربية ، نشيطاً قويا ، وأثار الاعجاب مع شيء من الاستغراب ، ثم راح الاهتمام به يزداد على مر السنين حتى اصبح مدرسة المقلدين والمتأدبين ، وقضية النقاد والدارسين ، واطروحة الطلاب في الجامعات ... كثيرون من شعراء الوطن عاشوا وما زالوا يعيشون في جوه . واجيال من النشء الجديد يلتهمون الشعر المهجري غذاء روحيا ، لايرضون عنه بديلا .

ـ ماهي الآثار الادبية التي خلفتها المهاجر ؟

— احصاء الآثار المهجرية عمل عسير وطويل، فدعني أقصر جوابي على اهم تلك الآثار :

مؤلفات امين الريحاني العربية في المهجر : تاريخ الثورة الفرنسية ، المحالفة الثلاثية ، المكاري والكاهن ، زنبقة الغور ، خارج الحريم ، وقسم من سلسلة الريحانيات .

مؤلفات جبران خليل جبران : الموسيقى ، عرائس المروج ، الارواح المتمردة ، المواكب ، العواصف . يضاف اليها ترجمات كتبه الانجليزية كالنبي وحديقة النبي ويسوع ابن الانسان .

مؤلفات ميخائيل نعيمة : الآباء والبنون ، الغربال ، همس الجفون ، كان ما كان ، المراحل ، مذكرات أرقش .

مؤلفات ايليا ابو ماضي : ديوان ابو ماضي : الجزء الثاني ، الجداول ، الخمائل ، تبر وتراب .

مؤلفات نسيب عريضة : ديوان الارواح الحائرة .

مؤلفات ندرة حداد : اوراق الخريف .

مؤلفات عبد المسيح حداد : حكايات المهجر ، انطباعات مغترب .

مؤلفات رشيد ايوب : الايوبيات ، أغاني الدرويش ، هي الدنيا .

مؤلفات مسعود سماحة : ديوان سماحة .

مؤلفات نعمة الحاج : ديوان الحاج ، الشرق ، شمس الأصيل .

مؤلفات احمد زكي ابو شادي : من السماء ، النيروز الحر ، الانسان الجديد ، من أناشيد الحياة ، ايزيس ، غير المخطوطات وهي : عظمة الاسلام ، الاسلامي الحي ، من نافذة التاريخ ، شعراء العرب المعاصرون ، قضايا الشعر المعاصر ، قصة الأدب المهجري ، على مائدة منيرفا .

مؤلفات صفية ابو شادي : الاغنية الخالدة .

مؤلفات اسعد رستم : ديوان رستم : جزءان .

مؤلفات امين الغريب : جواهر العصور .

مؤلفات ابو علي خيرالله : ترجمة وديع فلسطين لكتابه « بعث جزيرة العرب » .

مؤلفات جميل معلوف : تركيا الجديدة وحقوق الانسان .

مؤلفات انيس بقلة : سبعة عشر كتابا وديوان شعر

مؤلفات راجي ظاهر : الشاعل .

مؤلفات توفيق فخر : تراجم الادباء المعاصرين في المهجر الشمالي .

مؤلفات أمين زيدان : ملكة سبأ .

مؤلفات رزق حداد : ديوان نفحات الرياض .

مؤلفات عبد الله يدي : ثمانية كتب لم تزل مخطوطة .

مؤلفات يوسف الخال : هيروديا .

مؤلفات محمد علي الحوماني : ديوان القنابل .

مؤلفات رشيد سليم الخوري : الرشيديات ـ القرويات ـ الاعاصير ـ ديوان القروي .

مؤلفات فوزي معلوف : ابن حامد وسقوط غرناطة ـ على بساط الريح ـ ومخطوطات عديدة .

مؤلفات شفيق معلوف : الاحلام ـ عبقر ـ لكل زهرة عبير ـ نداء المجاذيف ـ سندان الخليل ـ سنابل راعوث ـ شرارة .

مؤلفات الياس فرحات : الرباعيات ـ ديوان فرحات ـ أحلام الراعي ـ الربيع ـ الصيف ـ الخريف ـ رحلة الى الشرق ـ فواكه رجعية .

مؤلفات شكر الله الجر : بني اورنيس ـ المنقار

الاحمر ـ الرواق ـ زنابق الفجر ـ اغاني الليل.
مؤلفات عقل الجر : ديوان عقل الجر .
مؤلفات ابو الفضل الوليــد : الذميات ـ اغاريد في العواصف ـ الانفاس الملتهبة ـ نفحات الصور ـ المجد والوجـد ـ كتاب القضيتين ـ كتاب المسالك ـ التسريح والتصريح .
مؤلفات نعمه قازان : معلقة الأرز .
مؤلفات جوزيف ابراهيم الخوري : ديوان الشواطئ .
مؤلفات سعيد اليازجي : ديوان مراحل الحياة .
مؤلفات فائز السمعاني : ديوان شلال البيان.
مؤلفات فيليب لطف الله : ديوان نسمات الجبل.
مؤلفات توفيق قربان : منابت الصهيونية .
مؤلفات نظير زيتون : ذنوب الآباء ـ الجن الابيض ـ استقلال البرازيل ـ أين الله ـ الشعلة ـ روسيا في موكب التاريخ ـ من وراء القبر ـ الشهيدان الزهراوي وسلوم .
مؤلفات حبيب مسعود : جبران حياً وميتاً ـ مااجملك يالبنان .
مؤلفات توفيق ضعون : ذكرى الهجرة ـ من وحي السجين .
مؤلفات جورج حسون معلوف : أقاصيص.
مؤلفات داود شكور : روايـــة الاوانس والعوانس .
مؤلفات جورج ليان: روسيا ـ فتح الشام ـ الحياة في العالم ـ تاريخ سورية ـ فن التصبير والتحنيط ـ كنت في دمشق ـ دراسات ومحاضرات ـ بروتوكول حكماء صهيون .

مؤلفات يوسف اسعد غانم : البرج الاخضر.
مؤلفات نجيب حنكش : الحنكشيات ثلاثة اجزاء .
مؤلفات جميل صفدي : معجم اللغات الشرقية ـ دراسات في تبسيط اللغة العربية .
مؤلفات سامي واكم الراسي : الواجبات .
مؤلفات رشيد شكور : الشرق والغرب .
مؤلفات انطون انيس شكور : من المهد الى اللحد .
مؤلفات رشيد عطية : جزاء المكر ـ مقدمة ابن خلدون ـ اقرب الوسائل في انشاء الرسائل ـ ديوان البحتري ـ ديـــوان عنترة ـ سلسلة الاعراب من قواعد الأعراب ـ معجم عطية في العامي والدخيل .
مؤلفات خليل سعادة : فلسفة تأخر الشرق العربي ـ ومعجم انجليزي عربي .
مؤلفات قيصر معلوف : تذكار المهاجر .
مؤلفات شكري الخوري : قصة نينا نوى.
مؤلفات جورج مسرة : تاريخ الجزار .
مؤلفات جرجي الحداد : المسيح لم يوجد قط (ترجة) .
مؤلفات جورج عساف : ديوان النازح ـ العناقيد .
مؤلفات الياس قنصل : على مذبح الوطنية ـ العبرات الملتهبة ـ السهام ـ صديقي ابو الحسن ـ دولة المجانين ـ اصنام الادب ـ رباعيات .
مؤلفات زكي قنصل : سعاد
مؤلفات جبران مسوح : الكتـــاب الاول والكتاب الثاني .

مؤلفات احمد سليمان الاحمد : الديوان الجديد.

مؤلفات جورج صوايا : همس الشاعر ــ الاوراق المتساقطة :

مؤلفات توفيق شماس : المتمردات .

مؤلفات ملاتيوس خوري : الى المجد ــ سان مرتين ــ وترجمات ايفايرون وحبيب اسطفان .

مؤلفات محبوب الخوري الشرتوني : ديوان محبوب الشرتوني .

مؤلفات فؤاد الخشن : ديوان سوار الياسمين ــ غابة الزيتون .

على اني قد استبعدت من هذا الاحصاء ما كتبه ونشره أدباء المهجر في اللغات الاجنبية : اي الانجليزية والاسبانية والبرتغالية ، وفي تقديرنا أن مؤلفاتهم بهذه اللغات لاتنقص عن المؤلفات العربية كمية ، ولكنها تزيدها انتشارا وفعالية . فمن حيث الانتشار ، لقد صدر من كتاب النبي لجبران في مختلف اللغات عدد من النسخ يزيد على مجموع ما صدر من المؤلفات العربية كلها . ومن حيث التأثير لم يكن لدواوين الشعر العربي في المهجر الصدى العالمي الذي كان للملحمة « عبقر » وللملحمة « بساط الريح » بعد ان ترجما الى لغات الغرب ، أما في المحيط العربي ، فأروج المؤلفات هي : دواوين ايليا ابو ماضي ، يعاد طبعها كل عام أو كل عامين .

ــ هل كان الأدب العربي بحاجة الى الآثار المهجرية حتى يستكمل وجوده ويثبت كيانه ؟

ــــ لم تف الآثار المهجرية بكل حاجات الادب العربي لاستكمال وجوده ، ولكنها سدت جانبا من هــذه الحاجات . كانت الجوالي المغتربة والاوساط الادبية في الوطن مفتقرة اليه ، بدليل أن المدرسة المهجرية قامت بدعوة التجديد والتحرر حين كانت الدعوة نفسها تنطلق في مصر من أقلام: العقاد والمازني وشكري في « الديوان » ولولا الحاجة الملحة الدعوتين لما لقيتا التجاوب العام ، ولما أتيح لهـــما البقاء والرسوخ والامتداد ، فأصبحتا دعامتين لكيان الادب العربي المعاصر ، كتب الدكتور أبو شادي من نيويورك بعد ان تشبع من الادب المهجري : « إن هــذا الادب قد بلغ مكانة يعتد ويقتدى بها . وسيبقى منارا حرا وهاجا لاجيال وأجيال ، لان تقاليده عميقة كالجذور المتمكنة للارواح السامقة الفناء . ومدرسة الادب المهجري بشطريها : الشمالي والجنوبي تعد في الطليعة حقا » .

ــ يتسم الأدب المهجري بخصائص تميزه عن غيره . فما هي هذه الخصائص ؟

ــــ الميزة العامة للادب المهجري ، هي الطموح الى التجديد في قالب الكلمة ، وفي مضمونها ، انتقالا من الاتبــاع الى الابداع ، ومن عبودية التقليد الى الاستقلال بالشخصية الادبية . وإنك لتلمس خصائصه في طابعه العاطفي وطابعه الصوفي وطابعه التأملي وطابعه الخلقي وطابعـه الواقعي وطابعه القومي وطابعه الانساني ، وهو أدب يشع بروحانية الشرق ، يتطلع بروحه الى المثل العليــا في الحياة ، ويتعاون مع قوى الخير لخلـق عالم أفضل ، شأن الأدباء العالميين ، والأدب المهجري

على ضوء خصائصه هذه ، كتب رسالته شعرا ونثرا وعرضها على محكمة التاريخ .

ـ يقال ان للأدب المهجري رسالة فما هي الرسالة التي أداها ؟

ــ الشعر المهجري أدى رسالته للشرق العربي كاملة ، فكل ماجاء بعده فهو نور على نور . وأدباء المهاجر بعامة ، أدوا رسالة الادب الى المجتمع ، ورسالة الادب الى اللغة العربية، فجبران ونعيمة والريحاني وأبو ماضي وعريضه ، أعطوا للانسانية من مواهبهم وأرواحهم ، وبشروا بتعاليم سامية نفذت منها روحانية الشرق الى البيئات الاجنبية ، وذلك غير رسالة الاصلاح التي اشترك في أدائها كل شاعر وكاتب في المهجر على نسبة مكنته وأهليته ...

ولقد كان للأدب المهجري فضل في رسالته الى اللغة ، ليس في الكلمة العربية نسبا ، المتينة جسما ، السليمة اشتقاقا ، بل في الكلمة الجميلة الفتانة اللماحة ، الساحرة ، المسحورة ، السافرة ، المقنعة ، تشد اليها أهداب القارىء ولا ترخيها حتى تلج قلبه ، ويلج قلبها ، غير رسالة الادب المحلية الى الجوالي العربية النازلة في المهاجر الاميركية، وهي الرسالة التي استفادها المغتربون واستفادتها اللغة العربية ، ثم آلت فائدتها الى الوطن الأم .

ـ هل أثر الأدباء المهجريون في المهاجر ، أم كانت اقامتهم لطلب العيش؟

ــ في الأصل كان هدف الادباء المهاجرين تأمين العيش الكريم لأنفسهم ، ولما خلفوا في الوطن من عيالهم ، ولأجل هذه الغاية كبتوا نزعتهم الادبية زمنا ، ولكنهم لم يستطيعوا كبتها دوما ، لأن سجيتهم غلبت عليهم واستعبدتهم ، فاستسلموا لهواها الطاغي على كل هوى، مضحين بالأدب بالرزق وبالواجب وبالامر المعقود على الهجرة ، **كتب شفيق معلوف في « مجلة العصبة الأندلسية » : « لولا أن الأدب متفش في أعراق الشعراء والكتاب المغتربين لما طلعوا على الفن بأثر ، ولا سخوا على الفكر ببارقة حيث لا مجال الا لجولان الارقام في الرؤوس، ودوران الرغيف امام الابصار، ودوي الحديد في المسامع »**

وأكد محرر « العصبة » حبيب مسعود : « ان الانصراف الى الادب في المهجر ، هو نوع من الاستشهاد الأديب المهجري هو الأديب الضائع الذي أفنى عمره من أجل قومه ولغته. أنشأ الصحف وأصدر الكتب واعتلى المنابر ، وعمر المحافل ، وحمل لواء العربية ، وناضل في سبيل القومية ، وواكب قوافل عشيرته فكان حاديها ورسولها وبشيرها ومؤاسيها، مستشهداً كل يوم في سبيل أدب لا يكفل له حتى الكفن ! »

ويقول الياس قنصل : « الواقع اننا وقفنا على مفترق طريقين : الأدب مشدود اليه الفقر أو التجارة في طيها الاثراء، فلم نتردد لحظة في الاختيار، وما كان ليزيد في سؤددنا ان يكون بيننا مئة غني اكثر، بين ان المئة اديب الذين ربحناهم هم أعلام مجدنا الفكري الباذخ اليوم ».

هذه هي الشواهد تغنيني عن الافاضة في تأثير الادباء في جوالي المفتربين . انهم سهروا على اوضاعهم وعلى منزلتهم الاجتماعية، وروحوا عنهم هموم العيش، ورفعوا معنوياتهم بتمجيد عنصرهم، وتقدير جهادهم، واوثقوا صلاتهم بأصلهم ولغتهم، وعرّفوا العالم العربي بأغنيائهم وسراتهم، وانشأوا الصحف لتكون مدارس تعلمهم العربية والوطنية، وتقوم بالدعاية لكل مشروع جليل، وتستدر الاكف لقيام المنشآت الخيرية التي يحتاجونها او تحتاجها اوطانهم.

ـ لو قدر لهؤلاء الادباء أن يعودوا الى اوطانهم، فماذا ينتظر منهم للأدب العربي في بلادهم ؟

ـــ يخطىء من يظن، أن أدب المهاجرين هو ثمرة انتقالهم الى المحيط الامريكي، وما هو بالحقيقة الا ثمرة موهبتهم الطبيعية. ويخطىء من يظن انه اقتباس من ادب الغرب . والواقع أن معظم الادباء لم يقرأوا مؤلفات الغرب، وأن الشطات في البيئة الغريبة، كانت اكثر من الميسرات، وأومن بأنهم لو عادوا الى الوطن وعاشوا بين زملاء ينافسونهم في الانشاء والنظم والخطابة، والضاد تجري على السنتهم، وترن في مسامعهم ليل نهار، لأنتجوا أدبا قد لا يحمل الطابع المهجري، ولكنه يفوق ما أنتجوه في المهجر روعة وجزالة.

وحسبنا دليلا على ذلك، ما انتجه الريحاني ونعيمة بعد رجوعهما الى احضان لبنان.

ـ هل يحتوي الأدب المهجري على اسرار ؟

ـــ السر الوحيد، هو الموهبة الفطرية التي رافقت الادباء من اوطانهم الى المهاجر.

يقول شفيق معلوف : « ان العبقريات التي تجلت في المهجر، كانت كامنة فينا، لا في البيئات التي عشنا فيها » يضاف الى هذا : الجد والاجتهاد والتأمل العميق.

يقول الاستاذ نعيمة في حديث جرى بيننا : « ان أدباء المهجر ـــ بما فيهم اعضاء الرابطة القلمية ـــ لم يكونوا من ذوي الثقافات العميقة. لم تهيئهم المدارس في وطنهم للمركز الممتاز الذي شغلوه في عالم الأدب، ولا البيئة الاجنبية أثرت فيهم ذلك التأثير الذي يتوهمه الكثيرون. ان الفضل في تبريزهم هو الموهبة الطبيعية، والموهوب هو الذي يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة ».

ـ ينحو الأدب المهجري مناحي متعددة. فما هي ؟

— ضرب المهاجرون في كل مناحي الادب النثرية والشعرية ، مستلهمين نواحي الحياة المتنوعة وحاجات المجتمع المختلفة والطبيعة والأساطير ، وخبايا النفس الانسانية ، فكانت لهم كتب فلسفية ودواوين شعر ومقالات وروايات وقصص ومسرحيات وملاحم .

كان نشاط أدباء الشمال متجها الى حقول لم يطرقها أدباء الجنوب . وعالج هؤلاء أبوابا لم يعالجها ادباء الشمال ، فالابحاث النفسية والتعاليم الروحية والقصص الجبارة والمطولات الشعرية كانت من نتاج أعضاء الرابطة القلمية . أما اعضاء العصبة الأندلسية فتفردوا في نظم الملاحم الاسطورية ، او مايشبه الملاحم والروايات التمثيلية ، غير ذلك الادب الذي لايضاهيه في الوقع البليغ أدب : وهو ادب المناسبات الذي ازدرى به المقيمون ، فنعوا على أبوماضي ما نشره في ديوانه الاخير « الخمائل » من قصائد الترحيب والتكريم والرثاء .

ولقد زود نعيمة ، الخزانة العربية بتحفة نادرة هي كتابه « الغربال » الذي قابله « المنقار الاحمر » للشاعر شكر الله الجر ، وان كان للشعر المنثور الذي ابتدعه الريحاني ومارسه جبران ، مكان ملحوظ في ادب المهاجرين . فضلا عن الترجمة التي عني بها ادباء البرازيل والارجنتين .

ـ يغلب على أدب المهجر ذكر الحفلات ، مع أن المهاجرين يشكون الضيق ، ويئنون من شظف العيش. فما رأيك في هذين النقيضين ؟

— الفقر والغنى نقيضان ، ولكن وجودهما جنبا الى جنب في هذا الكون لاريب فيه . وفي المهاجر الاميركية ، كما في كل مكان من العالم أغنياء يقيمون حفلات الترف الاورستقراطية ، وفقراء يلبون دعوة ناد أدبي ، أو جمعية خيرية ، او مؤسسة وطنية لحضور حفلة خطابية ، لاتكلفهم مالا ، بل تجود عليهم مجانا بما يجود به الخطباء مجانا لوجه الله والوطنية . هذه هي الحفلات الشعبية التي تتردد اخبارها وتخلد آثارها في صحف الوطن وبطون الأسفار ، وليست حفلات الرقص و « البريدج » .

والواقع ، ان هذه الحفلات ، لم تكن من الكماليات في حياة المهاجرين ، بل كانت من الضروريات لبقائهم كتلة بشرية ذات شخصية عربية ، وكيان اجتماعي متصل بكيان الوطن الأم ، وأن الأدب المهجري الصادق الشعر الموجه المغذي ، لم يكن له مجال لأداء رسالته القومية إلا في الحفلات الشعبية .

ـ هل عمل المهاجرون جلّهم في حقل الأدب ، ام انصرف بعضهم الى ممارسة الحرف الاخرى ؟

— بداهة أن المليوني مهاجر عربي ، لم يكونوا مليوني اديب محترف ... ومن هو المعتوه الذي يتعمد الهجرة الى البلد الاجنبي ، ليحترف فيه الادب العربي . ان نسبة عدد الادباء في اي مهجر كان مهما بالغنا لايتجاوز نسبة واحد الى الف ، واذا استثنينا المشتغلين بالصحافة ، وبعض المؤلفين باللغة الانجليزية كجبران والريحاني ، فاننا لانعرف من المهاجرين أديباً واحداً عاش من ادبه باللغة العربية ، بل نعرف فيهم صاحب المتجر ، وصاحب المصنع ، وصاحب المطعم ، وصاحب المزرعة ، وصاحب المصرف ، ومالك العقارات ، وحامل

« الكشة » ومعلم المدرسة، والموظف، والعامل، والخادم، والسمسار، والطبيب، والقاضي، والمحامي، والمهندس، والزعيم السياسي، كلهم يأكلون من عرق جبينهم بممارسة مختلف المهن اليدوية او المهن الحرة، ويكون أسوأهم حظا من وضعه القدر في مكتب جريدة ليعاقر خمرة الادب، ويستعطي القلم لقمة ملوثة بالحبر والدم.

ـ ترجمت في كتابك: « أدبنـــــا وأدباؤنا » لبعض الشخصيات، فلماذا ؟

ــــ لأني اكتب تأريخ الادب العربي في المهجر. وهؤلاء الادباء الذين ترجمتهم هم صانعو ذلك التاريخ.

ـ إن قيل ان كتابك هذا ... جاء وافياً بكل مناحي الأدب، فهل توافق على ذلك ؟

ــــ لا أوافق .. لأني أعرف بعض عيوب كتابي، فهو لم يبلغ درجة الكمال، ولكنه غير بعيد عنها.

ـ اذا تناول كتابك هـــذا ... اديب من الادباء بالنقد، فهل تغضب ام ترضى عن بعض الحقائق ؟

ــــ كيف اغضب على من يهتم بما اكتب ويتطوع لمعاونتي في الخدمة التي توخيتها لمن يقرأني؟ هذا إن كان الناقد منصفا ومخلصا لقضية الادب. فالناقد المنصف المخلص، هو عندي بمقام المعلم الكفء، ومن علمني حرفاً كنت له عبداً.

ـ هل لك امنيات تريد ان تحققها وتقف دونها عقبات ؟

ــــ كنت اتمنى لو ألفت كتابي هذا أثناء اقامتي في المهاجر بين الادباء المترجمين فيه، او على الاقل لو عنيت بتدوين مذكرات عما استقيه أو يعرض لي من اخبارهم وآثارهم، وجئت الى الوطن مزودا بها.

ولكن مع الاسف، لما قدر لي بعد أن تأمركت ثلاثين عاما أن اعود الى العالم العربي، وأن اقف محاضراً على احد منابره، جئت خالي الوفاض من مادة الكتاب، فجهدت واجهدت ذاكرتي لاستحضار المعلومات اللازمة لمحاضراتي، وبقيت دون ما أصبو اليه من التجويد والتركيز والاتقان.

ـ بماذا تنصح ادباء المهجر ؟

ــــ أنصحهم بالصبر على المكاره الى أن يقضي الله امرا ... ففي أعناقهم البقيـة الباقيـة من آمال العروبة في مليونين من ابنائها سلختهم المهاجر عنها، وكادت دولاتهم تقطع لسانهم العربي.. فلا تنشىء لهم مدرسة عربية، ولا تكفل لهم صحافة عربية. طوفوا يا أدباء المهجر على زعماء الجـــالية وأغنيائهـــا، وطالبوهم بالمدرسة والصحافة اللتين لاغنى لأولادهم عنهما، ان ارادوا استبقاءهم عرباً في مهاجرهم. أليس في مقدورهم الاستغناء عن مدد حكومات حديثة النعمة، قليلة الخبرة مشغولة عنهم بشؤون الساعة، فان تحركت عواطفها نحوهم مرة، لاتعرف أن تضع الاشياء في موضعها، فاعذروها واعفونا من ذل الاستعطاء باسمكم حين لايجدي الاستعطاء.



مجلة المعرفة　　من احياء دمشق القديمة　　احمد وليد عزت

وثائق الفن

اللوحة :

« من احياء دمشق القديمة »

لوحة بالالوان المائية للفنان عزة .

عرف منذ سنوات في محاولات جدية دائمة لفهم الطبيعة من خلال الالوان الشفافة، حيث يترجم احساسه بأرق الالوان وابسطها

اسلوبه واقعي ، يعتمد في اعماله على الايهام بالبعد الهوائي. على طريقة التأثيريين .

يركز في بعض اجزاء اللوحة على قيم لونية اساسها التضاد بين الفاتح والغامق حيث تؤكد الملامح الحضارية والمكانية للموضوع الذي يرسمه .

الفنان

- احمد وليد عزت .
- بدأ في ممارسة هواية الفن عام ١٩٤٩ .
- اشترك في معارض الدولة الرسمية .
- اختص بالالوان المائية وله اسلوب خاص به .

حضارة الاسلام وحضارة اوروبا في افريقية الغربية

تأليف نعيم قداح

عرض وتحليل الدكتور زكي المحاسني

لقد كان الرحالة العربي ابن بطوطة ، اول من زار الديار الافريقية ، مستطاعا ومؤلفا يصور رحلاته في الاسفار والبلاد ، واصفاً ركوبه البحر وعبوره البر ، فقد توجه في شهر المحرم عام ٧٥٣ للهجرة الى (مالي) ولقي سلطانهـا «سليمان» فوصف عدله واستقامته وعجيب بلاطه ، وكيف خرج لصلاة العيد ، ثم توجه الرحالة القديم الى « تمبكتو » حتى بلـغ نهر «النيجر» فرأى التماسيح فيه ، وأشبه واحدها بالقارب الصغير ، كما عجب لفرس البحر في بعض الخلجان وقد بلغ أماكن لم يصل اليها سائـح قبله ، فكان كتابه الجليـل (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) خير ما ألف في تراثنا العربي في تاريخ الرحلات ، وكانت تنزع ابن بطوطة الأندلسي نزعة علمية بأكثر ماتجلى الادب عند سابقه الرحالة ابن جبير .

كل هذا مر بخاطري ، وأنا ابتهج بقراءة كتاب حديث ظهر هذا الشهر ، في وصف افريقية ودراسة حضارتها ، ألفه الاستاذ المؤرخ « نعيم قداح» وسماه (حضارة الاسلام وحضارة اوروبا في افريقية الغربية) ولم يكن هذا هو الأثر الاول للاستاذ « قداح » في التأليف التاريخي والجغرافي لأفريقيا ، فان له سابقة كتاب سنة ١٩٦١ سماه (افريقيا الغربيـة في ظل الاسلام) نشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي .

وقد أكون ماوفيت المؤلف حقه اذا لم أقل إنه جغرافي الى تاريخه ، فان الحركة الانبعاثية التي هبت في افريقيا ، كانت ظاهرة كبرى من الظواهر الاجتماعية والسياسية في القرن العشرين. فلئن كان القرن التاسع عشر قد اتصف بالسباق لاستعمار الشعوب ، فان عصرنا نفض عن كاهليه المظالم الأممية ، ليتنسم مظلوموه من الشعوب نعمة الحرية . وكان منتصف هذا العصر هبة أفريقيا الى مطالب الحكم الذاتي ، فاذا نحن نشاهد بين العشايا وضحاها بروز شعوب افريقية الى مصاف الامم الحرة والقريبة ، تعتمد أمكنتها في هيئة الامم مع العرق الابيض ، ولم يعد اللون الاسود لون الخدم والحشم في الوجود ، ولست أعلم ماهو موقف أبي عثمان الجاحظ في بعض رسائله حين يتكلم على البيضان والسودان ، لو عاد الى عصرنا ، وشاهد مانشاهد اليوم من قيام الثورات والحركات التحررية في البلاد الافريقية بغية الوصول الى الاستقلال وانتزاع الحكم من المستعمر الابيض ، ولو أن الجاحظ أبا عثمان عاد الينا اليوم لكان له في هذا الامر شأن جديد .

لقد افتتح المؤلف الاستاذ « نعيم قداح » كتابه بكلمة لابن خلكان بأن البشرة السوداء لاتقلل من شرف النفس الطاهرة ولا تنتقص من علم العالم ولا من سمو المفكر ، وقرن كلمة الاديب العربي القديم بكلمة « لريتشارد رايت » يمجد فيها الحضارة الافريقية في الصناعات والموسيقى والشعر الشعبي والرقص .

وفي المقدمة أراد المؤلف بين يدي كتابه ان يبين منهجه في هذا التأليف ومقاصده فوجد أن القارة الافريقية قد أتيح لها الاتصال بالحياة الاسلامية خلال العصور السابقة وحتى اليوم ، وقد بعث الدين الاسلامي نهضة ثقافية بأفريقية الغربية كانت شعلة حملها ابناء القارة السوداء وأصبحت هذه الشعلة عنوانا لمجدهم الخاص وتراثهم الماضي .

وقد صور المؤلف مرحلة الانهيار القبلي الذي يعم الآن افريقيا ، وهي بسبيلها الى الاستقلال والوحدة ، وكيف أن مواكب المستعمرين والكاشفين قد غزت القارة الافريقية ، بدراسة اخلاق السكان وعاداتهم ومهاوي نفوسهم ودياناتهم ومعتقداتهم الأسطورية ، لكي تتمكن من التسلل الى حكم ديارهم ، وقد جعلوا الدين العنصر الاساسي في دراساتهم ، فكانت البعثات التبشيرية تترى على افريقيا بغية الوصول الى تثبيت الاقدام الاوروبية فيها .

ومقدمة المؤلف وكتابه لايعوزهما نقص في الصراحة ، فانه كتب كتابه بروح شجاعة بانية فبين مثالب الاعمال التي قام بها الغربيون ، وما تم على ايدي المسلمين من غرز الفضائل في بناء افريقيا بالدين والعلم والتجارة وفي توابع مقدمته بين تقاسيم الشعوب الافريقية ومواطنها والوانها في الداخل وفي الساحل .

وجرى في كتابه مجرى التأليف الفلسفي والاجتماعي في تربية الانسان وسلوكه منذ تفتحت الاعين البشرية على الوعي العلمي فأخذ في الفصل الاول من كتابه يؤرخ الاحوال الافريقية في العبادة القديمة والغيبيات والآلهة والمجتمع الوثني ، ثم كيف دب التطور الى هذه المجتمعات البدائية

مستقصياً مواطن المدنيات القديمة في « نيجيريا والكاميرون والداهومي وفي غانا وساحل العاج » وشاقته بلاد غانا ، فتبسط في الكلام على نشوء دولتها وحضارتها وحياتها الدينية والاجتماعية ، ونهضتها الاقتصادية ، ولم تفته نهضة الفنون الافريقية ، فان الجمال الافريقي نسبي ، وربما كانت الشفاة الغليظة والانوف القطس المنفرجة ، وعظام الخدود البارزة اشهى في المرأة الافريقية لدى الرجل الذواقة الافريقي من اولئك البيضاوات الحسناوات الغربيات الشقر في الشعور ، الزرق في العيون . وأما النحت الافريقي ، فكان المؤلف يصفف تماثيله في سطوره وكلماته ، وقد وقف موقف علماء النفس حين يشاؤون امتلاك قلوب القراء ، فانه جعل ذلك البحث كله مؤدى للكلام على الفتح الحضاري للاسلام في افريقية الغربية ، وكان من الطبيعي أن تكون الفتوح الاسلامية الافريقية متحدرة من الاندلس لقرب الشطوط الافريقية منها ، فان المجاز الذي كان يسميه العرب بذلك بين البر الاوروبي والافريقي هو الفاصل الاقرب بينهما ، لكن دولاً كانت اقرب الى الفتح وهي الدول الاسلامية التي أقامت حضارتها في الشمال الافريقي كدولة المرابطين ، وقد وفى المؤلف المتمكن حق هذه الحملات الفتحية من الذكر والتحليل والحكم باسطاً صوراً ريّا من انتشار الاسلام في السنغال والنيجر وسواهما .

ومن التوضيح الذي عني به المؤلف لحمة أقواله بين البحث والبحث ، وسرده القصص وحشده الصور الفوتوغرافية للسمات الافريقية والمواطن والرقم التخطيطية والمصورات الجغرافية والآثار وصور المخطوطات الاسلامية في افريقية.

وقد استمر الاستاذ قداح يسلسل بحوثه ضمن منهج علمي ودراسة ذات تتبع حتى بلغ الحوادث التي قامت بسبيل الدعوة الاسلامية في الربوع الافريقية ، وكيف هب الاستعماريون يناضلون لوقفها ، وما كان من أمر دعاة الدين الحنيف من رجال البلاد وحكامها من المسلمين ، وكيف تحولت هذه الدعوات الى تقيّات لبست أقنعة السياسة حيناً والطرق الصوفية والتيجانية حيناً آخر . وكان للطريقتين المباديتين العمرية والعريفية أثر كبير ، مبطن ، حارب الاستعمار وقلقل جوانبه الراسية . ودخلت افريقية الاسلامية في دور النضال مع المبشرين والمستعمرين ، فبين المؤلف ذلك بحذق ودربة وصراحة ، مستمداً مصادره من التواليف العربية والفرنجية . ولم يكد مؤلف هذا الكتاب القيم ينفض قلمه من هذا الغمار ، حتى اندفع الى الكلام على الوجود التجاري والحياة الاقتصادية والاجتماعية في افريقية الاسلامية ، ملماً بوصف العادات الشعبية والفنون الفولكلورية الافريقية ، خاتماً مراحل كتابه الاخيرة ببحث في الرق وتاريخه الافريقي والنخاسة الذميمة ، ثم أبرز نهضة التحرر من بيع الانسان لأخيه الانسان ، متخذاً من التعاليم العربية شكلاً دينياً ، وأريد بهذا التعبير ان ادل على عمله الجسيم في القيام بتصنيف هذا الكتاب الذي يعدّ جديداً في الدراسات الافريقية المعاصرة .

لقد كنت احسب حين بدأت هذا الكلام بالتحدث عن ابن بطوطة ووصوله الى افريقية ،

←

حول ديواني

أقول لكم : لصلاح عبد الصبور

لم يبق الا الاعتراف :لاحمد عبد المعطي حجازي

عرض وتقديم غازي الجندلي

تعتبر الفترة الحاضرة من أغنى فترات الشعر العربي الحديث من حيث التجربة والمعاناة ،فالتجربة التي يعانيها الشاعر الحديث تجربة كاملة يعيشها بكل أبعادها ، إنهـــا تعتمل في اعماقه ، تهز مشاعره وأعصابه يعيشها بصدق وإخلاص عجيبين انه يقتات نفسه ويعيش في صراع مستمر والتحام مضن مع واقعه ووجوده ، حتى اذا أحس أن هذه التجربة تطلق الأحرف في صدره خط قصيدته على الورق وهو في حالة شعورية معينة يخلقها جو التجربة المحيطه بها :

أريد أن اقول ان الشاعر الحديث يكاديكون سيزيف العصر الحديث فما كان يقال عنه وحياً في الايام الغابرة تعادقصته هذه الأيام ، لأن الشاعر الحديث يقدم ذاته ضحية لوجوده بملء ارادته ومن تلقاء نفسه ولأنه قادر كل القدرة على خلق ذاته متى إراد وفي الشكل الذي يريد .

الشعر الحديث اذا آت الينا من أعماق النفس الانسانية الصافية ، انه يجتاح السدود والعوائق والحواجز ليكون صورة واضحة لفتى العصر وهو يطل على عالمه المفجوع بقيمه وأحاسيسه وحريته وشرف كلمته .

ومن القطر المصري يطل علينا شاعران اثنان .

→

اني ادخلت على الموضوع جديداً ، واذا بي اعثر في هامش من هوامش هذا الكتاب على ذكر المؤلف الرحالة العربي القديم وكيف كان يرسل الرسائل الى من يعرفهم في افريقية ليهيئوا له أمكنة نزوله ودور سكنه وبيته فيها حين يصل في رحلته اليها .

فاذا كان الاستاذ « نعيم قداح » قد وطد نفسه على تاريخ افريقية ، وتخطيط مابلغته نهضتها المعاصرة ، فانه قد دخل زاوية جديدة من زوايا التأليف في البلد السوري لم يدخلها من قبله سواه ، وما أحسبه ببارح لهذا الموضوع الذي تخصص فيه في هـذه المرحلة من عصرنا التي اشتد فيها الطلب على الحضارة السوداء .

وقديماً قد حوى تشريعنا الحكيم وأقوال نبينا الكريم محمد بن عبد الله مايفتح مجال الحرية امام الشعوب السود ، في قوله المأثور : **(أنا جد كل تقي ، ولو كان عبداً حبشياً)** .

حمأتها ومماً اتجاهاً ومماً تطورا ، ليس من تفاوت بينهما ، وان كان أحدهما بدأ قبل الآخر بفترة وجيزة، وآخر انتاجهما كان ديواني شعر على مستوى الخلاص، على مستوى الحياة الصلبة تتفجر من الموت المهترىء يحملان في طياتهما صورة حية للنضال الصلب دون آه، لأن صاحبيهما أقوى على حمل الآلام من أي انسان آخر .

« اقول لكم » « لم يبق الا الاعتراف » كأنما يقولان في عنواني ديوانيهما جملة واحدة وقولاً واحداً .

عبد الصبور : أقول لكم

حجازي : لم يبق الا الاعتراف

« هذا واقعنا ، يجب ان نعترف أننا اتهينا وأن عالمنا يقف على شفير الهاوية »

وشجون عبد الصبور في « أقول لكم » تكاد تلامس شجون حجازي في « لم يبق الا الاعتراف » مساً رقيقاً ، انهما يعانيان تجربة متشابهة في محيط متشابه . على أن الذي يميز بينهما أن عبد الصبور صلب العبارة قاسيا ، كله شرسة في الكشف عن البثور والصديد والديدان بينما نجد حجازي في الضفة المقابلة حنوناً .. حالماً رقيقاً ، أصابع عبد الصبور مشدودة حول الوجود شداً كالوتد، بينما اصابع حجازي مسترخية كغصن طري ، كأن عبد الصبور يقول : العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم ، وكأن حجازي يقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، عبد الصبور ناقم يريد الثأر من كل شيء ، حجازي يائس من كل شيء .

والكآبة ومعاناة الضياع هي القاسم المشترك بين الاثنين كلاهما في عينيه ضباب ، وكلاهما في الدرب موجع تملأ قدامه الأشواك والمسامير الحادة، انهما تائهان فر منهما جواداهما وكسر رمحاهما وسيفاهما .

هكذا نجد الفارسين ضائعين ، مسلوبي التحكم بمصيريهما ومع ذلك فهما يتحديان الشمس والسماء وآلهات الأساطير والخرافات .

على ان الذي يفرق بين الشاعرين في بعض قصائدهما ان عبد الصبور اكثر ذاتية ، بل هو في كثير من قصائده منغلق على نفسه يضم قلبه بين راحتيه ويطبق عليه ، بينما نرى حجازي في بعض قصائده قد انطلق الى مجتمعه وعانى تجارب أمته ، اذ نجده يقف جرح الأمة العربية النازف بنكبة الانفصال المشؤوم وقفة المفجوع المجروح المطعون حتى الأعماق .

لكن الذي يوحد بينهما من جديد « الوجود بشكل عام » فهما ينظران اليه من زاوية واحدة، على ان نظرة عبد الصبور نظرة حادة قاسية بينما نجد نظرة حجازي نظرة ناعمة عاتبة .

وعبد الصبور يكشف الستار بعنف عن وجه الحياة :

هذا زمان السأم

نفخ الاراجيل سأم

فالسأم كما يراه عبد الصبور هو صلب الحياة المعاصرة ، هو روح انسانها المفجوع .

انسان هذا العصر سيد الحياة

لانه يعيشها سأم

يموتها سأم

ويوضح عبد الصبور فردية الانسان وانعزاله في هذه القصيدة التي تعد من القصائد البارزة في الديوان .

قلتم لي

لا تدسس أنفك فيما يعني جارك

لكني أسألكم ان تعطوني أنفي

وجهي في مرآتي مجدوع الانف

وتند عن الشاعر صرخة مرعبة ، انه يرى الاشياء على حقيقتها يكشفها ، يمزق عنها الأستار قطعة قطعة ، يعريها فيجمع العالم كله بما فيه من مآس وضياع على رؤوس أصابعه المشدودة ، كان في ظنه زهرة قرنفل ، فاذا به زهرة صبار مليئة بالشوك والخوف والانتحار

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك

فتحسس رأسك

اذا كان هذا ما كان يريد قوله عبد الصبور ، فماذا يريد حجازي إذن في اعترافه :

هذا الذي أحكي لكم قصته القصيرة

مات ، وضاع وجهه الى الأبد

لأنه كان وحيداً . . لا أخ ، ولا ولد

وقد بكيته كثيراً حين مات

وعندما أمضني الحزن ، تصبرت وقلت

هذا لأنني وحيد في مدينة كبيرة

لكنني . . حين يمر العمر بي

وحينما يكثر موتاي سأنساه

فان ذكرته صمت ثم قلت

يرحمه الله

الموت إذن هو الاعتراف ، هو الحاقة غير السعيدة ، الموت أهم جذور الشعر الحديث ، بل هو قائم على أجفان الشاعر الحديث يرى كل شيء من خلاله ، الوجود والخلق . انه نظرة الوعي الى اللاوعي ، والشعور الى اللاشعور والاحساس بشيء ملموس الى شيء غير ملموس .

والأسئلة الصامتة تملأ الديوانين ، الانسان أبداً ، الانسان وجحيم الآخرين ، الانسان والصدفة المقلقة .

— عبد الصبور :

رووا يا صحبتي الأحرار فيما حدثوا

من قال

بأن الطفل يولد مثل نسيم الريح

وحين يدب فوق الأرض تثقل ساقه الأغلال

بقيده الى الدنيا تراب شمه الأجداد

وغطوا أنفهم فيه

إلى أن يقول :

أقول لكم بـــأن الموت مقدور ،
وذلك حق
ولكن ليس هذا الموت حتف الأنف
تعالوا خيروا الأجيــال أن تختار
ما تصنع

لكي توسع
لن يتبع
فلن تختار غير الموت

— وحجازي :

عموا مساءً ! أيها الأموات ، وابدأوا
العزاء
عموا مساءً
الضوء يمحو خلجات الوجه ، فالأصوات
أصداء تدور
والنغم الخافت في ركن بعيد
يجعل البسمة شيئاً كالرثاء

ها هو الشبح المرعب الذي يخطف الأحلام والضحك والبكاء ، ويوري في الثرى من كان بالأمس يبتسم ويصلي ويضحك .

ولهذا نرى شعر عبد الصبور وحجازي شعر مأساة وكآبة وحزن ان الأشياء الجميلة في الحياة لها وجه آخر كئيب . الحب حين ينتهي أو يموت أو يطعن مأســـاة ، والحياة حين تنتهي مأساة ، والوجود حين ينهار مأساة ، ومن نهاية الاشياء وانهيارها تنطلق قصائد الشاعرين ، انهما يقفان موقف الاتهام من الوجود والانسان والموت .. وكلاهما يخوض معركته بوسائله وأسلوبه ، معركة ضد الاشياء المزيفة والخادعة، ضد النفاق والباطل والسرقة والاغتصاب فعبد الصبور حين يصرخ :

« ما أتعس الانسان حين يموت في أعماقه الانسان »

فهو يريد أن يؤكد لنا أن مخلوق العصر الحديث قد جرد كلمة الانسان من معناها وشحنها شريعة الغاب. وهو يرى هذا منتهى التعاسة والمرارة .

وبقلت حجازي باحثاً عن وجه انساني فلا يجد :

رأيت نفسي أعبر الشارع ، عاري
الجسد
أغض طرفي خجلاً من عورتي
ثم أمده لأستجدي التفاتاً عابراً
نظرة إشفاق علي من أحد
فلم أجد .

الى ان ينتهي الى صرخته المدوية في ختام الديوان :

« هذا الزحام .. لا أحد »

كلتي بعد ، كلمة عاجزة أن تفي هذين الديوانين

نشيد الثوار

ديوان شعر لصابر فلحوط
عرض وتحليل اسماعيل عامود

لقد كان للشعر القومي ، والحماسي أثر كبير في تنمية الوعي الوطني لدى الشعب العربي في العصر الحديث .. مما حدا بهذا الشعب الى المطالبة بحقوقه ، واعتباراته ، فينالهـا بطولة وفخر واعتزاز .. إذاً فدور الشعر القومي والحماسي له

حقهما ، انها تعني بعض الانطباعات لا أكثر ، ومع هذا فهي قادرة على أن تقول أن عبدالصبور وحجازي أبرز رواد الشعر الحديث وأذكرهما المناسبة كلة لسقراط « لقد أدركت أن الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء بل لان لديهم طبيعة أو هبة قادرة على أن تبعث قيم حماسة »

الى أن يقول :

« اذن فالشعراء لا يختلفون عن الكهنة الذين ينطقون بالكلام الحسن دون أن يعرفوا ماذا يقولون »

لكن الشاعر الحديث « فيما يبدو » يعرف ماذا يقول ..؟

مسألة فيها نظر .

ترى ماذا قال عبد الصبور ، وعاذا اعترف حجازي ؟ .

فعالية خارقة كباقي الاعمال النضالية الاستقلالية .. ومازال الشعر القومي العربي ، يلهب .. ويدفع بالجماهير المثقفة الى ساح النضال الفكري والعملي معاً ... هذا وفي رأيي بأن الشعر الحماسي كثيراً ما تخلقه المناسبات .. ولذا فهو خلو من الفنية الشعرية التي تطلب من الشعر الوجداني والنفسي والوصفي .. وهو أيضاً فقير الى المفردات التي تحمل أبعاداً حارة ملونة ، اذ يعتمد — في أكثر اعماله — على الـكلمات .! التي لها مدلولها المعنوي المباشر ، وربما الوقتي السريع .. ومن ثم يصبح ذكرى في الاحاديث ..

وشعر « نشيد الثوار » لصابر فلحوط ، يحمل في مضمونه « المناسبة » ومن ثم (الاثارة) المعنوية لحادثة ما .. ولكن سرعان ما تتلاشى الرغبة الفنية في زحمة التعابير المتلاصقة ، فتبدو أكثر المعاني تقريرية المدلول ، صارمة ، لم تدخل كهف القضية الشعرية لتخرج بها الى «المعاناة» والحياة القاسية في معالجة المصير .. غير أن الشعر الحماسي في هذه المجموعة يظل المسيطر على كل صفحاتهـا من النواحي التعبيرية ، والزخم ، والشكوى ، ووصف جراحات الريف ، والجياع

من الفلاحين ، في وصف ذهني لا يخرج عن حدود النظر المتسلسل لمشهد من المشاهد الطبيعية في تساؤل لما يدخل قلب المأساة الشعرية بعد . .

« البحر عصف مائج الشطآن مجنون
العباب »
« والموج محمر العيون كأنه دامي
الحراب »
« والقى عمامته غضوبا وانتخى . .
« والارض جمر ، كالمواقد ، حام ..»
« وكأنما العشرون عادت في صبا
« متوهج متألق بسام . . »

وسبب ذلك ربما يعود — على ما اعتقد — الى ان المناسبة عند الشاعر صابر كانت تأتيه سريعة ، ومستعجلة تطلبه اليها .. ولذا ، فهو مضطر على تناولها بقضها وقضيضها شعراً حماسيا يعتمد على المرادفات من الكلمات والتعابير المقطوفة من هنـــا ، ومن هناك .. دون التأكد من نضوجها ، ومكانتها على مائدة القارىء ..ولكن منظرها الجمالي الخارجي يظل في الآنية الشعرية مقبولا برضاء فكري معقول .

ومهما يكن مستوى شعر صابر فلحوط فان من أقسى الاحكام الــتي يطلقها النقاد التثبيط بالانتاج .. وتمزيق جهد الآخرين ، واصدار الآراء المشوهة لاعمالهم .. ذلك لأن من مقومات النقد أن يكون الناقد جسراً بين المؤلف والجمهور ورصيفا بين الابداع والعطـاء ، يظهر للناس ما كمن في انتاج الفنان من روائع ، ويومي بما قصر عنه ، ويبرز الاصل .

وشعر صابر ، شعر عربي حماسي بالدرجة الاولى ، يتضمن كلـمات الالم ، والتشرد ، والاكواخ الفقيرة ، والمآسي .. والقصور الاقطاعية التي تلطخت حجارتها بدم الكادحين الجائعين .

الجائعون ، ألست تعرف من همُ
وجراحهم في مقلـتي تدمدم
ابناء اكواخ التشرد والاسى
انا منهم ، والشعب شعبي منهم
لا لاتغرنك القصور شوامخاً
اسأل حجارتها يحدثك الدم

وفيه أغنيات ثائرة ضد الاقطاع والتسلط والتفيين المتخبين بالمال والنساء .. أغنيات ثائرة ترفع بالشعب الكادح الى مصاف العلياء في افكار الشاعر .. ولم لا ؟ مادام الشعب يقتات بالجراح العميقة ، فكأن مطعمه دماء ..

يامالكا مثل السما قصرا يضيق به
الفضاء
ارأيت شعبي بين امواج التعاسة
والشقاء
يشكو ويصرخ لامجيب ، ولا
معين ، ولا رجاء
نقتات بالجرح العميق كأن
مطعمنا دماء

قلت ان الشعر الحماسي لايعتمد على الفنية الشعرية بقدر اعتماده على الترادف اللفظي لاثارة المعنويات المباشرة — ان صح التعبير — وهذه الايات وان كانت شعراً موزونا عذب التناسق الموسيقي واللفظي بعض الشيء الا ان الجمالية الفنية فقيرة فيها ، فكلمات :

(رجاء ، صراخ ، مجيب ، معين) كلها كلمات جامدة لاتحتوي على أبعاد فنية حارة ، فيها شفافية الفن .. لكنها تعطي اثارة معنوية مافي لفظها شعراً ، ضمن ترادف موزون سرعان مايتلاشى ليظل ذكرى في الاحاديث المناسبة .

كل هذا دون تعمق جذري في المشاعر .. كما أن بيت (ابناء اكواخ التشرد والاسى ..) فيه ترادف لفظي ممل — بعض الشيء — اذ ان كلمات : (اكواخ .. التشرد .. الاسى ...) جاءت متزاحمة هنا لتقتل الرغبة الفنية في إحياء صورة الكوخ الجمالية وصورة التشرد الحادة المصير في افكار القارىء .. ولكن مع هذا فالكلام هنا يلهب وان كانت المعاني مستنفدة في الشعر العربي ، لا في هذه الايات فحسب ، بل وفي معظم أيات المجموعة هذه .

لكم يارفاق الطريق الطويل
تغني الرمال
لحون الجمال
يموت اذا ماسرتم المستحيل
وتعنو الجبال
لانكم من ضمير الحياة
هتاف بطولاتنا الصامدة
وموج رسالتنا الخالدة
واجيال امتنا الواحدة
(تزيح الظلام) ...

هذا كلام فيه شعر من الناحية الموسيقية ، ولكن هل كان للابداعية فيه مكان ؟

الجواب : لا ! وهذا مايحيرني إزاء المشكلة الراهنة في الشعر الحماسي ، ولكني أعود ، لأقول: ان « احمد شوقي » مثلاً — قال :

(وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق..)

وماجت الجماهير العربية في دمشق ، وبغداد ، والقاهرة: وفي كل مكان — آنذاك — تناضل وتطلب الثأر من المستعمر الفرنسي الغاشم ، لأن في هذا البيت بالذات معنى رائعاً وجديداً للحرية ، وفيه أبعاد رؤية شعرية خارقة . . . وان كان استعمال شوقي لكلمة (يد) في غير محلها هنا ، وجامدة ! اما كلمات صابر في هذا المقطع ، خاصة ، فانها تبدو تقريرية . . ولكن مضمون فكرتها ينقذها ، ويبرر للشاعر تقصيره التعبيري في شعر حديث يتطلب — على الأقل — الرؤية البعيدة لناهات الفكر الشاق . . وهذا المقطع بالذات — كغيره — فيه ترادف للكلمات أقحمها الشاعر كلها ، ليقول (تزيح الظلام) وتمزق ليل الطغام ، لنبني الحياة .. الخ .

وما هذه الحياة ياترى ؟ . . الجواب في باقي الكلمات . . (من جباه تناطح شم النجوم . . الى عزم يهز رواسي التخوم ..؟) الخ .

. . قديماً ، وفي الشعر الجاهلي العربي ، كان الشاعر يتحمس ، وينشد شعراً بطولياً فذاً تعتز بـه وتفخر (الى يوم الدين) ولكن الشاعر ــ في تلك الايام ــ كان لا يتخلى عن شخصيته في شعره وكانت هذه الشخصية الخارقة تكمن في كل بيت من شعره ، لا تفارقه قط مهما كانت النوعية والهدف الذي يبني من اجله شعره العظيم . . . وهذا ما ابقى لشعرائنا القدامى العرب مكانتهم في التـاريخ :

« واني لامضي الهمّ عند احتضاره
بهوجاء مرقال تروح وتغتدي »
« اذا القوم قالوا: من فتىً؟ خلتُ انني
عنيتُ ، فلم اكسلْ ولم اتبلد »
« ولست بحـــلال التلاع مخافة
ولكن ، متى يسترفد القوم ارفدِ »
(طرفة بن العبد)

أما شعر اليوم ، فانه يبتعد عن الفردية الشعرية وهـذا ما لا أقره من الناحية الحضارية لمفهوم الامة التي يمثلها الفرد الشاعر ، لان الشاعر مرآة الحياة في الفرد والجماعة .. في الطبيعة والتكوين؛ وحبذا لو تضمن شعر صابر شيئاً عن شخصيته كفنان ؛ ولكن ــ على ما يبدو ــ شموليته وحبه للجماهير جعلاه يكرس كل قريحته له .. ولذا فليس في المجموعة خصائص نفسية لصابر بالذات :

« لكم ايها الحاملون السلاح
قرابين فجر الكفاح الرهيب »
« ارتل شعري بليل الجناح
وارسل لحني تحيّن[1] الجراح . » الخ .

ولكن صابراً يعترف :

« انا لا اطعمكم شعراً ولا
املأ الكأس عطايا قافياتي »
« انا يكفيني ويرضي خاطري
أذن تصغي لهمسي ، لشكاتي »

وهنا يمس أطراف ذاته الشعرية بشيء من التعابير المقبولة ...

« لي كرسيٌ على خدّ السما
وصبايا النجم بعض الساقيات »
« ملكي الكون وما أرحبه
والندى والشعر صحبي ولداتي »

هذا ، وفي المجموعة قصائد لا بأس بمستواها الشعري في المضمون والشكل ؛ كـ « انشودة اشتراكية ، خلود ، همسات ، شهاب في الظلام » وكلها تتضمن أبياتاً جيلة معبرة ..

بقي ان نعرج على نوعية شعر هذه المجموعة، وما مدى فعاليتها في الشعر الثوري . . أنا اقول عن هذا الشعر ــ كشعر ــ بأنه ليس ثورياً بالمعنى الكلي في مضمونه الشعــري واللغوي والفـكري .. وانما هو مجرد كلمات حماسية قيلت في مناسبات خصبة ، وجد فيها الشاعر متنفساً لشاعريته الغزيرة التي لا يجوز انكارها أبداً .. ذلك لان من مقومات الشعر الثوري وصفاته أن يكون حرباً على الانماط التقليدية الجامدة في الروح والبناء والادوات .. لكن الشاعر صابر يظل مخلصاً لشعره والقضية ، وهذا منتهى الغاية في مجموعة « نشيد الثوار » عند الشاعر . . قد يكون وقد لا يكون ؟!

(1) وردت في المجموعة (سخين) بالسين

غروب في الفجر

مجموعة قصص تأليف وليد مدفعي

عرض وتحليل ياسين رفاعية

يعتبر وليد مدفعي من بين الكتاب الشبان الذين مازالوا يطورون ابعاد القصة العربية في سورية . ومجموعته القصصية «غروب في الفجر» تعتبر بحق لبنة جيدة في بناء قصتنا القصيرة .

وان كان ثمة من ملاحظات . فهي كأي عمل أدبي لابد ان يرسم حـوله القارىء أي قارىء ملاحظة ما، تختلف باختلاف وجهة نظره في العمل الفني من جهة وفي نظرته للحياة كواقع حي من جهة أخرى .

وقصص هذه المجموعة تكاد تلتقط أهم جوانب الحياة التي نحياها. فالفتاة التي تعمل في احد اجنحة المعرض ، يسقط التمثال وهي تعرضه على زائرة حسنة الى الارض ويتحطم لأن ثمة رجـلا دلف للتو من باب الجناح فاذا بهـا أمام صورة طبق الاصل عن عادل الذي كان حبيبها الى سنين خلت لكن النكبة الفلسطينية افقدتها اياه مقتولاً او اسيراً او ضائعاً تحت كوكب ما .

لكنه هل هو ..؟ وحين اسرعت خلفه منادية إياه كان ثمة صوت آخر يناديه والتفت بدهشة . لكن صوت طفل صغير هو الذي شده منادياً له : بابا . وتفقد الفتاة عن ملاحقة الرجل ، ربما هو نفسه الذي تركته في الارض المسروقة . ربما هو غـيره .. ان حبيبها ستكون اشد لو التفت به وعرفت حقيقة أمره . هل هو حبيبها وقد تزوج غيرها .. أم هو آخر يشبهه ..؟

وفي « الساعة لاتدق في بور سعيد » يؤكد المؤلف ان الفنان بقدرته ان يتجاوب مع أي حدث له علاقة مباشرة به . . وهل كان أهم من حدث بور سعيد يوم تعرضت للعدوان بالنسبة لأي مواطن عربي . . هذا ماحاول الكاتب ان يؤكده ، على ان الاحداث التي قدمها ضمن اطار هذه القصة ، قـد تكون متخلخلة لانسان عاش المعركة في قلب ميدانها ، وهذا ما لااستطيع أن أؤكده ، فالقصة فيها جهد فنان واخلاصه وفيها احساس صادق بالمأساة

قصة « كل عام وانتم بخير » هي عبارة سحرية بالنسبة لطفل .. قالوا له انها كفانوس علاء الدين او كخاتم سليمان تجلب نقوداً وهدايا للاطفال في صباح العيد .. ولكنه رددها الف مرة دون أن يقدم له أحد شيئاً . لان ليس من يقدم له هدية العيد ، انه يتيم ، ويقدم الكاتب احلامه من خلال مشاهدته واجهات المخازن في ليلة العيد ومن خلال الآباء الذين يشترون لابنائهم الملابس الجديدة . . وينجح في تقديم هذه الصورة البلهاء التي تؤطر افكار الطفل متسائلا عن سبب عدم وجود أب له يهتم به كما يهتم آباء الاطفال الذين يراهم فرحين جذلين .

فاذا انتقلنا الى قصة « نظرات حائرة » نجد ان حب الارض أقوى من حب البيت المفروش الانيق ، وحب الوطن اقوى بكثير من حب الزواج والغرام ، فهذا الصراع المتولد بين انسان يحس ان حبيبته تشفق عليه اكثر مما تحبه ، يجعل البطل يحاول كشف هذا السر ، وينجح في المحاولة ليرى ان حبيبته عضو في منظمة مؤلفة من الشباب والنساء تبغي محاربة المستعمر ، وما كانت نظرات الرثاء التي تحيطه بها الا كونه ليس عضواً في هذه المنظمة ، وانه لايهمه الا الاستقرار المادي والعيشة الهنيئة .. ويدرك السر فيثبت للمنظمة انه اكثر حماساً لوطنه منهم جميعاً ، حين ذاك يحس بدفء النظرات والحب العميق الذي تكنه له فتاته .

وينتقل المؤلف بعد جولته هذه الى قلب الشباب المثقف الذين يعانون ضياعهم الابدي لانهم لا يعرفون ماذا يريدون ، فنجد ان « الحر في الدم » هي قصة شباب المدينة الذين تجاوزوا المرحلة الثانوية في دراستهم واخذوا يقلدون ابطال قصص اجنبية سبق ان طالعوها مطالعة سطحية فانغمسوا في التردد على الملاهي الليلية ومعاقرة الخمرة والتشرد حتى الخيوط الاول من الفجر ، وتنبثق قصة واحد منهم يجاريهم في حياتهم ليواجه والده كل ليلة صارخا مزمجراً دون استطاعته الرد عليه. تلك الليلة تأخر أكثر من كل ليلة فواجهه والده

ـ كم الساعة الآن يابني ؟. لم يستطع الاجابة . .

وبعد جهد قال الابن : ـ الوقت متأخر . .

بينما كانت اعصاب الاب تفور . . ها هو الابن يتمرد لاول مرة . انه يقول : الوقت متأخر .. انها البداية لفقد سيطرته عليه . ويطرد الاب ابنه . . من الآن يجب ان يتصرف هكذا . . والا سوف يتمادى اكثر . ولقد ازمع الشاب ان يغادر المنزل فاجدره الاب بوابل من الشتائم ولكن الوالدة تدخلت : ولدي الى اين انت ذاهب ويصرخ الاب : دعه لقد طردته بنفسي . ويثور الابن متهماً والده : بأنه رجعي . . وبأنه لايفقه معنى الحياة وبأن امه كانت مظلومة في حياتها معه. وتتأزم الحالة بين الاب والابن حين يتهم الاخير والده بأنه بخيل ولذلك لم يعرف طعما للمتعة ولذة الحياة وانه يغار منه . وهنا شحب لون الوالد واسرع الى صندوق خشبي مقفل كان قد حرص على العناية به ، فتحه ورماه الى الارض فتناثرت محتوياته فاذا فيه اسطوانات واقداح زجاجية دقيقة الصنع تدل على ذوق عال . وصندل مذهب لقدم ناعمة ومناديل مزركشة ورسائل وازهار ذابلة وصورة لصبية جميلة ، ولم يفهم الابن شيئاً لكن الام فهمت كل شيء .. لقد كان الى سنين

خلت يغيب عن منزله حتى الصباح وتذكرت الليالي المسهدة التي قضتها مع وحيدها خلف النافذة تنتظر عودة زوجها . . ونظرت الام الى الابن بحنان وتطلعت نحو الاب بعداء . ويحس الاب بمركزه الحرج فيعاود طرد ابنه بشكل سمج ويحاول ضربه ، واخذت الام تبكي حين علا صراخ الاب واخذت نوافذ الجيران تفتح : لقد اهانني ابنك .. انه يتهمني انني اغار منه .

ـ ابتعد عني ايها الجلف

ـ كان سكران . . ألم تشمي رائحة الخمر تفوح من فمه ومن انفاسه . .

ـ لقد شممتها.. لكنها اخف وطأة من رائحة العطر التي كنت تضمخ بها جسدك قبل كل سفرة . .

وتكشف الام عن ألمها المكبوت من خلال مغامرات الزوج . وهنا اخذ الهدوء يلف الرجل ، ثم ابتعد الى دهليز المنزل وقد داس في سيره على محتويات الصندوق . واخذ يتحدث بصوت هامس عن أبيه ، وكيف كان يحترمه ويخافه ولا يغضبه ، وكان الابن قد غادر المنزل ، حين لحق به الاب ، اما الام فقد أخذت تعد الشاي لعودتهما فالجو بارد في الصباح .

هذا ملخص لابرز قصة في المجموعة ، انها صورة صادقة للصراع الازلي بين الاب والابن الذي أصبح شاباً ويريد ان يستقل بشخصيته والاب الذي يتناسى ماضيه ايام شبابه فيحاسب ابنه عن كل شاردة وواردة ، انها قصة جيل برمته قلائل من الكتاب عالجوها .

وننتقل في هذه المجموعة الى الريف حيث نجد علياً في قصة « أمي » مرتبطاً بالارض ، ويتلقى رسالة من المهجر تدعوه الى حضن امه وكنف ابيه بعد أن حرم منهما طيلة سبع سنوات . ويحس بالصراع في اعماقه بين الاستجابة لهذه الدعوة وبين وفائه للارض ، لكن القرية تتناقل قصة الرسالة ، ويتمنى حلاقها على علي لو يأخذ معه ابنه الى المهجر. لكن علي يلقي على الحلاق خطاباً يبين له فيه عدمية هجر الوطن . ان الانسان يستطيع ان يبني ثروته من ارضه ، من وطنه .

ويبلغ الصراع اشده في نفس علي فيبرق الى ابويه « والدي العزيز : أعشق شروق الشمس في ضيعتي واعشق الغروب فيها ، اعشق حتى قبري والجيزة التي تظلل رفاتي » .

وتكاد قصة « الابواب الثرثارة » تكون فريدة من نوعها في المجموعة فاسلوبها الساخر يغاير بقية القصص . وابطالها مجموعة ابواب وشبابيك تغلق وتفتح على مفارقات عجيبة في الحياة . لقد استخدم الكاتب من الابواب والمقاعد والطاولات ألسنة تتكلم وعقول تفكر ليكشف من خلالها مايحدث من فضائح واكاذيب ونفاق خلف الجدران والابواب المغلقة ، وسرعان مايضج صاحب الفندق من اصواتها وصريرها المزعج فينادي النجار كي يصنع غيرها .

ولنتجاوز قصة « النبع » وقصة « الاب آدم » لنجد قصة « قدمان حافيتان » القصة الاخيرة في المجموعة . وهي قصة ابوين فقيرين لم يستطيعا ان يشتريا لابنهما حذاء يلبسه قبل ذهابه الى المدرسة ، ولقد اعتاد الطفل على لبس القبقاب الخشبي ولم يكن موضوع الحذاء بالنسبة اليه ذي اهمية ، لكنه يكتشف اهمية ذلك حين يتسلل

الى حفلة نهاية السنة حافيـا ليجد لجميع اقدام الطلاب أحذية ترتديها ، وحين سمع مدير المدرسة يخطب في الطلاب ان المدرسة ستفخر باسم طالب عبقري هو غسان لانه حاز على علامات مدهشة، شعر بالفخر والزهو واقترب من الصفوف الاولى غير آبه لنظرات التلاميذ الى قدميه العاريتين ، وقدم له المدير علبة فيها هدية ، ولما فتحها ، صرخ اكثر من واحد « ياله من حذاء رائع » ثم علا الضحك من كل مكان ، فلم يكن الحذاء الا حذاء صغير مصنوع من اغلى الاقمشة الموشاة بخيوط ذهبية وفضية ، وهو يمثل حذاء لاعب كرة قدم وهو من اندر التحف واثمنها ولكنه لايصلح لقدمي غسان الحافيتين ..

هذه قصص وليد مدفعي في مجموعته « غروب في الفجر » فاذا كان ثمة من ملاحظات كما قلت . فهي على سبيل المثال لا الحصر : نجد قصة أمي : ان الابوين تركا ابنهما وحيداً في القرية وهو بعد طفل وهاجرا الى المهجر ، وبعد أن تأصل الوحدة واستطاع ان يبني لنفسه حياة جديدة أبرقا له يطلبان منه اللحاق بهما الى المهجر ، فمن غير المعقول هنا ان يتخليا عنه وهو صغير ليبرقا له وهو كبير كما اننا نجد ملاحظة أخرى في قصة « قدمان حافيتان » انه ليس هناك مدير اي مدرسة يفعل مافعله مدير مدرسة غسان ، فهو الطفل الفقير الذي لايملك ثمن حذاء جديد ولكنه يتفوق على كل اترابه ولا تكون هدية المدير مقابل ذلك الا حذاء رمزي للاعب كرة قدم .

هناك حوادث اخرى في بقية بعض القصص نحس بأنها مفتعلة لم تنضج في ذهن الكاتب بعد، كما ذكرت في قصة « الساعة لاتدق في بورسعيد » وقصة « الخمر في الدم » حين يتحدى الاب ابنه بعرض ماضيه أمامه . وقصة « كل عام وانتم بخير » حين يعرض البائع على الطفل الفقير الصغير هدايا العيد بلهجة خطابية كما لو انه فوق منبر « تعال يابني لايهمني ابن اي اب انت ؟ كلنا نذكر بألم خطيئة شبابنا الاولى ..؟ الخ »

ان ثمة مقدمة مطولة قدمها الكاتب في مطلع قصص مجموعته يحدد فيها مقاييس القصة القصيرة ومقوماتها ، ويبدو انه كتبها ونشرها بعد ان نشر قصص المجموعة في عدة مجلات وصحف قبل جمعها في كتاب .. والا لكان قد اعاد النظر على ضوئها بكثير من قصص المجموعة .



التسيير الذاتي ـ تأليف الدكتور صلاح وزان ـ نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي

التسيير الذاتي في ضوء التجربة اليوغوسلافية عنوان الكتاب الاول في سلسلة كتب قومية التي اعدتها وزارة الثقافة والارشاد القومي للقارىء العربي بأسعار زهيدة ، وهذا الكتاب من تأليف الدكتور صلاح وزان .

يختلف التطبيق الاشتراكي من مجتمع لآخر باختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية لكل مجتمع من المجتمعات. ومع ذلك ، فان الطابع المميز للتطبيق الاشتراكي الذي تفرضه الظروف الخاصة بكل مجتمع لا يعني فقدان مبرر دراسة التجارب الاشتراكية المختلفة بل على العكس . ان دراسة تجارب الآخرين ، ومتابعتها وتحليلها ، والتعرف على مقومات نجاحها ومواطن ضعفها ، تعتبر ضرورة اساسية لاغناء التفكير الاشتراكي ، واختبار الطريق الاسلم لتطبيق الاشتراكي .

من هنا تبرز الاهمية النظرية والعملية لدراسة تجربة التسيير الذاتي اليوغوسلافية التي مضى على تنفيذها مايقارب الخمس عشرة سنة . ان هذه الفترة من عمر التجربة بما تحمل في طياتها من جوانب ايجابية وجوانب سلبية ، تشكل تراثا هاما ودليلا يمكن الاستفادة منه في اثارة وتمهيد طريق البناء الاشتراكي في هذا القطر .

وقد اعدت الوزارة عدة بحوث لتنشر في هذه السلسلة التي تصدر حلقاتها شهرياً منها التخطيط الاشتراكي للدكتور عبد الله عبد الدايم ـ صدر منذ ايام ـ المغتربون العرب في امريكا الشمالية الدكتور جورج طعمة ، أدب الوحدة

العربية للاستاذ فؤاد الشايب ، الفن والقومية للدكتور عفيف بهنسي . الموقع الاستراتيجي العربي للاستاذ هيثم الكيلاني ، عدا عن بحوث اخرى سوف يقدمها الأساتذة الدكتور جميل صليبا ، الدكتور أحمد السمان ، اديب اللجمي ، شاكر مصطفى ، أنور الرفاعي ، سلامة عبيد ، خليل الهنداوي ، توفيق برو ، عبدالله مكسور .

خطوات على الشلال — تأليف محمود تيمور

كتاب جديد صدر للاستاذ محمود تيمور . يصف فيه المؤلف موطن « السد العالي » وما هنالك من آثار ومعالم الى وصف مشاهد أخرى مقسم الى فصول منها : في عيد الماء — الى اسوان — في ضيافة النيل — الى معبد أبي سنبل — سلطان الزمان — الى مدينة النصر — ابو الهول يتكلم .

يقول الاستاذ تيمور في احد فصول الكتاب اني أزور السد اليوم ، وهو في بطن النهر جنين يتخلق ، ارهف السمع الى نبضات قلبه ، فكأنما اصغي الى هزيم رعوده تدوي في جوانب الافق . واشحذ شعوري نحوه فأحس روحه الجياشة امواجاً تتصاول وتتصارع وفي الغد المرتقب ازوره ليستقبلني على بعد بالترحيب من هديره الدفاق .

اتركه الآن غرسة لاجذع عن قريب دوحة . تظلل الوادي الامين ، وتؤتيه اطيب الثمرات .

اتركه الآن بيضة في ضمير الغد ، لاراه من بعد نسراً يحلق بجناحيه في سماء النيل ، ليحمي شاطئيه ويحرس سكانه واهليه .

فسلاماً ايها السد العظيم ، والى لقاء وشيك .

في البدء كان الصمت ، شعر علي الجندي — اصدار المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر — بيروت .

« في البدء كان الصمت » عنوان الديوان الثاني للشاعر علي الجنـــدي سبق ان صدر له ديوان بعنوان « الراية المنكسة » والديوان الجديد هو صورة ناطقة لتطور الشعر الحديث ، فعلي الجندي واحد من ابرز الشعراء الحديثين الذين ضمنوا شعرهم مواضيع جديدة في عالم الشعر لم يكن هذا النوع من الادب قد اعتاد عليه .

ولقد عبر علي الجندي في الديوان ذاته عن رأيه في الشعر الحديث قائلاً : لم يعد للشعراء مكان في عصر الجماهير ومتى كان لا صفيائهم مكان هناك ؟ ! الجماهير وقود تمايل تبحث عن الخبز والخبز وحده وما كان للشعر يوماً ان يغدو رغيفاً وزيتوناً .

لقد اشهر الشعراء سيوفهم المتخمة بالحبر الأسود . على طواحين الهواء وكل يركب رأسه وينادي : على الجهاد .

انا نقف - اصحاب الشعر الحديث - في ساحات الاديرة المهجورة ونهتف لطللنا ، ونخاطب جمهوراً من الظلال .

لقد حضرنا العرس بعد العراف المختفين .. فأكلنا البقايا والفتات وماضرسنا ، وجمعنا العظام العجفاء بتشفي الحاسدين ومع ذلك فانا نلقي بالودع وتنبأ بعلم الغيب ومعرفة المصير .

فارس الخوري وأيـــام لاتنسى ـ تأليف محمد الفرحاني ـ نشر دار الغد ـ بيروت

يبحث هذا الكتاب في شخصية العلامـــة المرحوم الاستاذ فارس الخوري وتفصيل لأهم الأحداث السياسية والقومية والنضالية العربية الكبرى التي عاصرها من خلال ترجمة مكثفة لحياته وشرح موجز لسيرته ، وتبسيط لآرائه ونظرياته ، وتلخيص لبعض المهم من مذكراته ، وموقفه الايجابي من القضايا القومية المتحررة في العـــالم ومن الصهيونية كمذهب مخرب مدمر وكنزو عنصري رهيب ، مع تقديم نماذج مختارة من شعره وطرفه ونوادره ولمحـــة عن حياته الخاصة وصورة مفصلة عن مرض نهايته مزداناً بالصور التي تمثله في مختلف فترات حياته

ومؤلف الكتاب محمد الفرحاني لازم المذكور له فارس الخوري طوال فترة مرضه بالاضافة الى معرفته به قبل مرضه بعشر سنوات تقريباً معرفة صميمة ، ولذلك فان ماورد في الكتاب مدعوم بالوثائق الخاصة التي حصل عليها المؤلف من مصادرها الأصلية .

وممـــا قاله المؤلف في المقدمة : ان فارس الخوري رجل من كبار رجالات سورية ، وقد عرف عنه دفاعـــه عن حق الشعوب في تقرير مصيرها ونشاطه الدائب لتحريرها من اغلال الاجنبي الدخيل ومطامعه مستعيناً بما وهبه الله من عقل وافر ورأي سديد وعلم غزير وبعد في النظر وسلامة في الاحكام وتضلع في القانون وبلاغة في المنطق والبيان ، فكان في الاوساط الدولية التي لمع اسمه فيها والشهادة القوية والحجة الدامغة ضد التخلف الذي كنا اتهم به ، والتأخر الذي كنا نوصم فيه .

والكتاب يروي قصة جهاد الرجل العربي السوري منذ ولادته ١٨٧٣ حتى وفاته ١٩٦٢ يقع في ٥٢٨ صفحة من القطع الكبير .

فوق الحدود والسدود ـ تأليف وجيه جبر ـ

بين دفتي هذا الكتـــاب مجموعة مقالات ودراسات وآراء وخواطر كتبها المؤلف في ازمنة مختلفة . انه يحوم فوق المظاهر والاحداث لينشد منها القيمة الخالدة واللوحة الجميلة والكلمة الناعمة

والمؤلف في كتابه هذا يريد ان يعبر عن مشاعره بصدق واخلاص في قلب يهفو الى الوحدة . فينشدها للاسرة الواحدة وللحي الواحد وللقرية الواحدة وللمدينة الواحدة وللامة الواحدة وللانسانية الواحدة . لا حدود ولا سدود في المكان . لا حدود ولا سدود بين ابناء الامة الواحدة او المجتمع الواحد . لا أسوار بين قطر وقطر على ارض آبائنـــا واجدادنا . لا حواجز بين فئة وفئة او بين مجموعة ومجموعة من ابناء مجتمعنا . لا طبقية . لا تعصب ولا تزمت ولا احقاد ولا انعزال ولا استئثار . ولا عالماً للمرأة مغلقاً عن عالم

الرجل . كذلك كان حكم مؤلف هذا الكتاب فوق الحدود والسدود .

وقد قسم الكتاب الى عدة اقسام : القسم الاول مع الفكر والاحداث والقسم الثاني : رسائل وخواطر ، والقسم الثالث : نزعة العروبة الانسانية ، والقسم الرابع : استعراض لتاريخ سورية العربية الحديث ، ثم : المرأة وعقد الجنس .

والمؤلف موظف في الدولة ، ساعدته خبرته الوظيفية ، في تحليل كثير من الاحداث السياسية والاجتماعية ، بقلم نقاد ، وروح صافية .

هكذا عرفتهم ـ تأليف جعفر الخليلي ـ بغداد

هذا عرض موجز لجانب من حياة بعض الاشخاص الذين كان لهم ذات يوم بعض الشأن في الحياة العامة والخاصة ، او هو في الواقع عرض موجز لبعض ما احتفظت به ذاكرة المؤلف ومن عرض له في طريق الحياة . وكيفية تعرفه بهم وماهية هذا التعرف ولونه ، وهو لون من الادب والتاريخ المبتكر . وهو لون قائم بنفسه ، ولم يجار المؤلف في عرضه احداً من قبل ولم يسبق لنا نحن ان قرأنا عرضاً على هذا النسق يجمع بين الادب والتاريخ ، ويربط بين النواحي الخاصة والعامة . جمعاً وربطاً لا تكاد تتبين او لا تكاد تعزل ما يخصك منه وما يهمك وما يخص اصحابك وما يهمهم وما يخص الناس ويعنيهم .

والاشخاص الذين قدمهم المؤلف ربما لم يكونوا مشهورين كلهم او ان شهرتهم لم تتجاوز منطقتهم ، لكن الصورة التي رسمها المؤلف لكل واحد منهم صورة قصصية أليفة لدى كل انسان في كل أرض . لانه يجد فيه بعض ما يجد في نفسه ويجد في نفسه بعض ما يجد فيه .. نماذج الكتاب هي نماذج الانسان في كل مكان .

والشخصيات العراقية التي عايشها المؤلف وحللها : مير علي ابي طبيخ ـ رضا الهندي حميد خان ، الشيخ جواد الشبيبي ، الشيخ محمد حسن حيدر ، ابو الحسن الاصفهاني ، الشيخ محسن شرارة ، المحامي عبد المحسن القصاب ، الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء ، عبد المحسن شلاش ، سعد صالح ، محسن الامين ، محمد الحسين كاشف الغطاء ، عبد الحسن الحلي ، قاسم محي الدين ، الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي : علي بحر العلوم عبد الستار القرغولي ، عبد الله القصاب ، اسكندر جريق ، الشيخ عبد الكريم الجزائري ، الشيخ محمد جواد الجزائري .

كباريح ـ شعر حارث طه الراوي ـ نشر دار مكتبة الحياة ـ بيروت

تحوي هذه المجموعة الشعرية ، مجموعة اقاصيص مؤطرة باطار شعري وقافية معينة ، هو شعر سلس اعتمد مؤلفه في اكثر قصائده التقليد القديم . ولقد أراد أن يخلص منه الى عبرة اجتماعية تحمل معنى الانسان المخلص لانسانيته ، وهو بالتالي شعر بسيط صاف .

قدمه شاعر لبنان أمين نخله بهذه الأبيات :

وألذُّ الكلام معنىً طريفٌ
جلّلته الفصحى بمبنى تلادِ
فهو بين العيون «طائيُّ» حسنٍ
جاء في « بحترية » الابراد
أمه الضاد يوم يفخر بالسن ، ـ
واكـــرم بالأم والاولاد
وعفاء على الجديد من الشعر
إذا ما أتى بغمط الضادِ ...

دعوة الادباء لزيارة الريف

طلب السيد وزير الثقافة والارشاد القومي من امين المجلس الاعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية في اجتماع المجلس الاستشاري لوزارة الثقافة والارشاد القومي الذي يضم مديري الوزارة . طلب منه توجيه الدعوة الى الادباء لزيارة المحافظات والارياف، ضمن برنامج مدروس، وذلك لكي يكون لهم اتصال مباشر مع الريف ومع الموضوعات التي يتناولونها في كتاباتهم ، كما تقرر خلال الاجتماع أيضاً .

— اقتراح بفتح مكتبات في مختلف المدن والارياف بمساعدة الوزارات المختصة .

— زيادة الصلات بين المراكز الثقافية والمدارس والجمعيات والاندية وضرورة تنسيق العمل بينها بما يعم النشاط ويوسع آفاقه .

— اقامة معارض فنية في المراكز الثقافية بالمحافظات كما تقرر ايضاً وضع دليل للمراكز الثقافية يضم جزئين : الاول للقوانين والانظمة والثاني للتعميات والبلاغات وذلك في مضمار الحملة الجادة لزيادة نشاط المراكز الثقافية وحددت في الاجتماع مهمة المرشد الثقافي الموجود في بعض المراكز الثقافية .

محاضرة الدكتور نقولا زياده

القى الدكتور نقولا زياده محاضرة في قاعة المركز الثقافي العربي استمرت ساعة ونصف الساعة ، لمس خلالها ، وبعمق واقع المغرب العربي الثقافي ، وكشف فيها عن بذور وروافد التيارات الدينية والاجتماعية والوطنية والثقافية بعامة .

كان التعليم الديني العربي في الجزائر ، رغم أنف الاستعمار الفرنسي ، عاملا اساسيا من عوامل النهضة الفكرية هناك بالاضافة الى عوامل اخرى

هامة : احتكاك الجزائريين بالمشارقة — المؤسسات الثقافية الافرنسية — ذهاب الشباب الجزائري الى فرنسا لاستكمال التحصيل الجامعي — احتكاكهم هناك بالطلاب العرب — الصحف الشرقية المهربة . وهكذا حدث في بقية بلدان المغرب .

وبكلمة صغيرة ، فقد القت المحاضرة الاضواء الدقيقة على مختلف العوامل المؤثرة على حياة الثقافة في المغرب العربي الكبير بنزاهة وصدق وبموضوعية جيدة . والدكتور زيادة مؤرخ عربي معروف وفوق ذلك فهو مختص بمنطقة المغرب العربي تاريخيا وحضاريا ، وقد قام بعدة زيارات لاقطاره واطلع عن كثب على كل مايتعلق بالمغرب العربي .

محاضرة حسام الخطيب

« كيف يواجه العرب الدعاية الصهيونية » عنوان المحاضرة التي القاها الاستاذ حسام الخطيب في المركز الثقافي في دير الزور وفي المركز الثقافي في القامشلي ، وقد استعرض المحاضر نشاط الدعاية الصهيونية في ارجاء العالم ، وحلل طبيعة هذا النشاط واغراضه ونتائجه بالنسبة للقضية الفلسطينية ، ثم رسم الصورة المقابلة للدعاية العربية ووازن بين الدعايتين في كل من المناطق التالية : ١ ـ الغرب ، وقد تناول بحديثه كلا من انكلترا والمانيا واسبانيا واميركا ـ ٢ ـ دول اوروبا الشرقية ـ ٣ ـ الصين ـ ٤ ـ دول العالم الثالث (آسية وافريقية) » .

واوضح السيد المحاضر انه عمد الى هذا التقسيم بعد دراسته لخريطة انتشار الدعاية الصهيونية والح على ضرورة العناية بالدعاية العربية في دول آسية وافريقية حيث تبلغ المعركة الدعاوية أوجها وقد أفرد جانبا كبيراً من المحاضرة لدراسة عوامل هذه المعركة الدعاوية وارتباطاتها السياسية ونتائجها المرتقبة ، ودور الاستعمار فيها ، كما بين أهمية هذه المعركة ضمن المنظور العام للقضية الفلسطينية ، مستشهداً بأقوال كبار السياسيين العالميين معتمداً على الارقام والاحصاءات الموثوقة .

مشاهدات في الصين

عنوان المحاضرة التي القاها الاستاذ أنور الرفاعي في قاعة المركز الثقافي العربي ، وهي وصف حي لرحلة وفد الصداقة السوري الى جمهورية الصين الشعبية الذي ترأسه وزير الخارجية ووزير الثقافة والارشاد القومي ومشاهدات هذا الوفد في بلاد الصين ، من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية مع لمحة عن آثار ومعالم الصين وقصور اباطرتها ومكتباتها . وفكرة عن التطور الحديث في الصين وعن مدنها ، ومعالم التقدم فيها ، مشفوعاً ذلك كله بعرض مصور لمعالم الصين .

لوركا سنفونية اندلسية

القى الدكتور بديع حقي في قاعة المركز الثقافي بدمشق محاضرة بعنوان « لوركا سنفونية اندلسية . فقدم فيها صوراً واضحة عن نشأته وحياته ، ثم تكلم عن شعره ومسرحياته واردف نماذج من شعره تشير الى شاعرية لوركا العظيمة وأنهى محاضرته بالفاجعة التي ألمت بلوركا وبعض التفاصيل لتلك الفاجعة انتقاها من اوثق المصادر في هذا الموضوع.

رسائل بلزاك

القى السيد جان لوكيليه محاضرة باللغة الفرنسية في قاعة المركز الثقافي عن الكاتب الخصب بلزاك الذي يعد بدون خلاف المعيار الذهبي لكل ادب جيد ، وقد اعتبر المحاضر بلزاك من اعظم الروائيين الفرنسيين ، وهو يدعونا الى الانحناء على « مراسلات » بلزاك التي تجعلنا اكثر معرفة بالكاتب، وتعطينا عن الانسان وحياته معلومات قيمة ، فظهرت لنا موقفه من عائلته ، وتارة من الحب ، واخيراً من مهنة الكتابة ، ولقد عرفنا المحاضر مدى التصاق بلزاك بالعمل وهدفه الحقيقي كانت حرفة القلم .

ندوة قصصية شعرية

في قاعة نادي جمعية الشبان السريانية اقيمت ندوة قصصية شعرية قدمها مدحة عكاش والقى ياسين رفاعية قصة من قصصه والقى اسكندر لوقا قصة كما القى اسماعيل عامود بعض شعره .

الأدباء في مؤسسة السينما

دعت مؤسسة السينما كتاب القصة والرواية في القطر السوري وطلبت منهم التعاون المثمر من اجل كتابة قصص للسينما السورية الناهضة ، من الذين حضروا هذا الاجتماع : السيدة الفت الادلبي ، السيدة كوليت سهيل الخوري ، نجاة قصاب حسن ، الدكتور بديع حقي ، عادل ابو شنب ، ياسين رفاعية، صلاح الدهني ، حسام الخطيب ، الدكتور رفيق الصبان ، اليــاس مقدسي الياس ، فارس زرزور ، اسكندر لوقا ، بالاضافة الى بعض مخرجي المؤسسة منهم محمد شاهين وخالد حمادة .

معرض الفنون التشكيلية

قدم مركز الفنون التشكيلية بدمشق في اواخر الشهر الماضي معرضاً لاعمال طلبة مركز الفنون التشكيلية بدمشق ضمت اعمال الطلاب من رسم ونحت وحفر .

معرض الخانجي

وفي قاعة المركز الثقافي بدمشق افتتح معرض الفنان الدكتور نعيم امجد الخانجي . ضم المعرض بعض اعماله الفنية .

الى الاستاذ نوري حمودي القيسي

من منير العادي

ورد في الصفحة ٢٨٦ من العدد ٣٦ الممتاز بما أخذه الاستاذ نوري حمودي القيسي على كتاب « ما يذكر ويؤنث من الانسان واللباس » كلمة قمحدة وتحددة اكثر من مرة خطأ والصواب « قَمَحْدُوَة »

وهي الهنة الناشزة فوق القفا وهي بين الذوآبة والقفا منحدرة عن الهامة اذا استلقى الرجل اصابت الارض من رأسه والجمع قاحد قال :

فأن يقبلوا نطعنْ ثغور نحورهم

وإن يدبروا نضربْ اعالي القاحد

وهي ايضا اعلى القذال ، وهي كذلك ما اشرف على القفا من عظم الرأس والهامة فوقها والقذال دونها ما يلي **المَقَدّ** ، وهي **مؤخَّر** القذال اوهي صفحة ما بين الذوآبة وفأس القفا ويُجمع على قاحيد وقاحد .

والمَقَدُ القاع وهو المكان المستوي .

والفأس فأس الرأس هو طرف مؤخَّره المشرف على القفــا . حرف **القَمَحْدُوَة** المشرف على القفا وقيل فأس القفا مؤخَّر المقحدوة ، لسان العرب والقاموس المحيط .

الى الاستاذ جميل علوش

من احمد يوسف احمد

قرأت مقال السيد جميل علوش في نقد كتاب « المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها » وقد وجدت فيه بعض الثغرات فبحثت، راجياً التصحيح والتنبيه :

١ - في ص ٢٨٠ عدد ٣٦

في البيت :

علفتها تبناً وماء بارداً

حتى غدت همالة عيناها

أنكر الناقد على المؤلف أن يعرب همالة حالا منصوباً ، وقال : (وهذا خطأ ، فهي خبر مقدم لغدا وعيناها اسم مؤخر .

والصحيح انها حال من « عيناها » التي هي فاعل غـــدت التامة ، ذلك أن المعنى المقصود : وجودها في وقت الغدو — او الغداة — وحالة عينيها همالتان . ولا مرجح لـ « غدا » هنا أنها بمعنى صار لنعتبرها فعلا ناقصاً .

٢ - يرى الناقد في نفس العـدد ٣٦ أن اعراب المؤلف « بن » الواقعة بين علمين صفة، خطأ . ويقول : ان اعرابها يجب ان يكون بدلا او عطف بيان وذلك في البيت :

فما رجعت بخائبة ركاب

حكيم بن المسيب منتهاها

وهو يريد أن يجري رأيه مجرى القاعدة . وهذا تعسف من الناقد اذ الارجح فيها الصفة، ويظهر انه قصد جواز كونها بدلا أو عطف بيان .

ولكن حتى لو كان القصد هذا ، فلا مجال للتعليق اذ ليس على من يعرب ان يقدم حالات كل كلمة وانما يكتفي بحالة واحدة يرجحها المعنى الاقرب .

٣ - في البيت :

كم عمـة لك ياجرير وخالة

فدعاء قد حلبت علي عشاري

قال الناقد (وزد أن « كم في محل نصب على المفعولية المطلقة اذا كانت عمة مرفوعة » وكم لم يستفهم بها عن ظرف ولا عن مصدر فكيف تكون في محل نصب ؟ الصحيح أنها خبر مقدم وعمـــة مبتدأ مؤخر والباقي صفات ، أو على العكس مبتدأ وخبر)

لقد قرأ المؤلف والناقد — كلاهما — عمة بالرفع والأرجح أنها بالجر وكم مبتدأ والخبر جملة قد حلبت عشاري .

ولكن لنسر معهما ، ان الناقـــد يخطىء المؤلف . فاذا ماقرئت عمة بالرفع كان التقدير كم مرة عمة لك ... وانتصبت كم هنا على أنها نائب مفعول مطلق وعلى هذا فقد أصاب المؤلف . أما اذا أخذنا برأي الناقد وحاولنا أن نجرد الخبر من الصفات لم يبق للجملة — من المبتدأ والخبر : كم عمـــة — معنى وانما قصد الشاعر الفرزدق هجاء جرير بعماته اللواتي حلبن له نوقه لا بعماته فقط .

وعلى ما تقدم فالناقد أخطأ في اعرابه . كما أخطأ في اعتبار كم استفهامية . فان الفرزدق لا يسأل جريراً عن عماته ليعرف عددهن وانما هو يفتخر عليه ويهجوه معاً وكم الخبرية هي التي تستعمل لهذا الغرض لا كم الاستفهامية .

٤ - قال الناقد في قسم أخطاء نحوية ص ٢٨٢ العدد ٣٦ « أن المؤلف يعتبر السكون علامة جزم وهو خطأ . ان السكون علامة بناء أما علامة الجزم فهي حذف الحركة » .

والصحيح أن السكون وحذف الحركة شيء واحد .

جاء في شذور الذهب لابن هشام ص ٣٦ (والأصل في هذه الأنواع الأربعة - يقصد أنواع الاعراب - أن يدل على رفعها بالضمة وعلى نصبها بالفتحة وعلى جرها بالكسرة وعلى جزمها بالسكون وهو حذف الحركة) .

٦ - في قسم تناقض ص ٢٨٣ عدد ٣٦

قال الناقد (ورد قوله - يعني المؤلف - « الجملة الحالية الماضوية والواقعة بعد إلا لا يجوز أن تقترن بواو الحال ... » وهذا مناقض لما ذكره في نفس الموضوع ... حيث قال « ان كانت الجملة الحالية ماضوية جاز ربطها بالضمير أو بالواو والضمير أو بقد والضمير الخ » وهذا نهاية التناقض) .

ياسبحان الله وأين التناقض ؟!! ألم يشترط وقوع الجملة الماضوية بعد إلا أولاً ولم يشترط ذلك ثانياً ؟؟!

٧ - بعد هذا الطواف على نقد الكاتب في العدد ٣٦ ننتقل الى حلوله (المباركة !!) للنداء في العدد ٣٧ . ان لي على ذلك مأخذين فقط :

الأول : من قال الأخ الناقد ان النداء مشكلة ؟ وانها بحاجة الى حلول ؟ وأين التعقيد في قواعد النداء ؟ ان شذوذ بعض الشواهد لا يسمح للنحويين باعادة النظر في باب النداء من الاساس .

الثاني : لا بد ان اتساءل لماذا لم يضع الناقد الفاضل قواعد جديدة للعربية ولماذا لا نجعل الفاعل مجزوماً والفعل مجروراً ؟؟... ولماذا لا نقيم قواعد اللغة فلا نقعدها ؟؟

لقد تساءل الأخ لماذا كان الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً وأجاب نفسه بأنه لا يدري !! ولكنني اقول له : ان ذلك استدعاه الذوق العربي المرهف وتحسه جرس الكلمة ورنتها ، ومقدار تناسب كل حركة مع التي تليها وحسن وقع ذلك على الاذن او قبحه !

وباختصار ان قواعد اللغة هي قوانين جمالها وخفة روحها وحلاوتها .

ولقد استقرت تلك القواعد استقراراً نهائياً منذ اجيال بعيدة سحيقة ايام لم يفسد اللحن اذواق العرب ولم تطرأ على السنتهم عجمة .

لا مجال اخيراً للعبث بهذه القواعد وزحزحتها عن اماكنها ، خاصة عن حصونها المنيعة كالنداء وانما يكون الاستغناء عن الشاذ المتكلف الضعيف الاثر المستند على تفسير غريب متكلف ايضاً .

وليكن الناقد الفاضل اشد حرصاً على لغته التي قال - بحرارة - في العدد ٣٦ انه كتب ذلك النقد خالصاً لوجهها .

وختاماً ارجو ان اكون قد أفدت وما اسأت ، وللمعرفة تمنياتي الطيبة وشكري .

حول كتاب (المرجع في اللغة)

الى محيي الدين الدرويش

من جميل علوش

. . وبعد فقد حصل بيني وبين الاستاذ محيي الدين الدرويش جدال على صفحات جريدة العروبة الحمصية وانتهينا الى مسألة دقيقة آثرت ان ابسط رأيي فيها وان انشره في مجلتكم الغراء وذلك لوضع الامور في نصابها . اذ ان الجدال كان حول ما صدر من تعليقاتي على كتاب (المرجع) في (المعرفة) .

الى الأستاذ الدرويش

وبعد فقد تسلمت امس جريدة العروبة ، واطلعت على تعليقك الصغير حجماً الكبير معنى فسررت للروح العلمية التي تجلت في كتابتك فتذكرت قول امير الشعراء احمد شوقي :

الرأي من جَدَل العقول وليس من ضغن الصدور

او قول الشاعر امين نخلة وهو مأخوذ منه :

الرأيُ من جدل العقول وليسَ من ضغن الصدور وبغضة الاكباد

فعلى الاديب الحق ان يصدر فيما يكتب عن عقله لا عن قلبه وان يجعل المنفعة العامة هي غايته من كتابته .

اشكرك جزيل الشكر راجياً أن تعيرني انتباهك الى حديث هام اتقدمُ به اليك . احب ان تعلم انه ليس كل ما صدر عن النحاة صحيحاً ، وانهم ليسوا معصومين من الخطل في آرائهم ونظراتهم . فكل مطلع على علم النحو يدرك ما لهم من آراء مختلفة حول الموضوع الواحد . وفي كتاب مغني اللبيب نجد ابن هشام يتصدى لكبار النحاة بالتخطئة والتفنيد معتمداً على الأدلة والبراهين . ولا ضرورة لذكر المواضع فهي كثيرة . وليس من المنطق العلمي في شيء ان نتقبل كل ما قالوا وان ننقل آراءهم المختلفة حول المسألة الواحدة دون محاسبة او مناقشة علينا ان نضع رأينا مدعوماً بالادلة الدامغة والبراهين القاطعة . ولا اخفي عليك اني اخالف النحاة في مسائل معينة متخذاً براهيني وأدلتي من كتبهم وغير خارج على المنطق النحوي السليم . ومن جملة تلك المسائل مسألة « ما عدا » وأخواتها . ان ما ذكرته أنت صحيح بالنسبة لما ذكره النحـــاة ولكنه ليس صحيحاً في رأيي واليك براهيني وادلتي راجياً العلم النظر فيها . وماقصدي الا خدمة اللغة ومعاذ الله من حب الظهور والتبجح .

اني اعتبر (ما) نكرة تامة لامصدرية وأن « ماعدا » ليست في محل نصب حالا . مخالفاً في ذلك الاجماع ومعتمداً على ما يأتي :

١) أن عدا وخلا وحاشا افعال جامدة لايصاغ منها في الاستثناء مصدر او اسم فاعل او اسم مفعول الخ . . ولا تستعمل الا بهذه الصيغة .

٢) أن (ما) المصدرية لاتدخل على الفعل الجامد وهذا من ابسط القواعد النحوية لأن الفعل الجامد لايؤول بمصدر .

٣) ان الحروف المصدرية لا يجوز حذفها وما جاء من ذلك فهو شاذ نادر كقولهم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . و (ما) هنا يمكن حذفها .

٤) المصدر المؤول لا يجيء فضلة في الكلام . انه لا يجيء الا عمدة وهذا مخالف للحال فانها فضلة .

٥) لقـــد جاءت الحال مصدراً صرفاً مثل جاء زيد ركضاً ولم تجيء مصدراً مؤولا واذا قبلنا برأي النحاة فعلينا أن نلجـــأ الى الشذوذ والندرة وأن نخرج عن الرأي السليم .

٦) ان ادوات الاستثناء هذه افعال جامدة وليست متصرفة وقد رأى الشيخ مصطفى الغلاييني في جامع الدروس العربية مقتدياً بحذاق النحاة كما يقول ، أن تكون مجرد ادوات استثناء لا افعالا وقد أخذ بهذا الرأي الاستاذ سعيد الافغاني في مذكراته .

٧) يذكر ابن هشام في المغني ان بعض النحاة انكر ان يكون لها محل من الاعراب على اعتبار انها جملة مستأنفة وهذا اثبات كاف لنفي مصدرية (ما) وحالية الجملة .

٨) اذا افترضنا ان (ما) مصدرية وان المصدر المؤول في محل نصب حالا . واعتبرنا قول النحاة صحيحاً ، فماذا نعتبر الجملة في حالة حذف (ما) وكيف نؤولها مصدراً دون أداة مصدرية ؟ وكيف نوافق على رأي النحاة في هذه الحالة ؟

٩) ان استتار الضمير وجوباً على خلاف الاصل في هذه الافعال يثبت أن (ما) نكرة تامة كما هي في افعل التعجب . والجملة في هذه الحالة مستأنفة .

١٠) اذا كانت الجملة الحالية مصدرة بفعل ماض فيجب أن تقترن (بالواو وقـــد) أو بأحدهما على قلة . وهـــذا مالم يتوافر في هذه المسألة .

١١) ان مايصح ان يكون حالاً يصح أن يكون خبراً . وهذا مالا ينطبق هنا . لا يصح أن نقول : القوم ماعدا زيداً . فهذا كلام بلا معنى .

١٢) ان الحال هي صفة لصاحبها لحظـــة وقوع الفعل والتركيب الاستثنائي هنا ليس فيه معنى الصفة بل لا تلمح فيه لمحاً فكيف يكون حالاً ؟

١٣) ان رأي النحاة هنا بعيـــد وغير منطقي وتأويلهم لا يرتكز على أساس . وطريقهم في ذلك شاقة طويلة . أليس من التحذلق تأويل الفعل بمصدر ثم اعتبار المصدر حالاً ؟

١٤) يمكن الاستعاضة عن ما المصدرية والفعل بمصدر مؤول في كل مكان ذكرت فيه فهل ينطبق هذا هنا ؟ نقول : أعجبني ماصنع زيد أي أعجبني صنع زيد . فهـــل يمكن أن نقول جاء القوم خلو زيد بدل جاء القوم ماخلا زيداً . وهل استعمل العرب هذا التركيب في لغتهم ؟

١٥) لماذا لم يعتبر النحاة الا وما بعدها جملة حالية ؟ والتقدير واحد في كلا التركيبين .

حول رواية « ثم ازهر الحزن » :

الى المستشرق عبد الكريم جرمانوس

من فاضل السباعي

تفضل المستشرق الدكتور عبـــد الكريم جرمانوس فأولى روايتي « ثم ازهر الحزن » فضل اهتمامه ، وسجل انطباعاته وملاحظاته عنها في مقال نشر في العدد الماضي من هذه المجلة . ولعل اول ما يواجه القارىء ، في ذلك المقال القيم على ايجازه ، الانطباع النادر المثال الذي خلقه في نفس الكاتب عمل روائي قد استقى مادته جملةوتفصيلا من واقع شرقنا العربي المسلم ،ومن مدينـــة حلب الشهباء على وجه التحديد ... فهذا الانطباع ، عند المتلقي الغربي ، غيره عند المتلقين من ابناء العربية الذين يحيون هذا الواقع المرصود في توالي ايامهم ، حتى وقر في اسماعهم واستقر في نفوسهم فهم لا يعونه ، بعد ، وعي الآخرين له !

وما ملأ نفسي رضا ان كتابي قد اثار عند المستشرق المجري الكبير ذكريات ماضية في استنبول (او در سعادت كما كانت تسمى) يوم كان طالب علم وادب ، كما عرجت به الذكرى الجميلة على يوم حاضر فيه ـ قبل اربعين عاماً ـ في جامعة دمشق ، وقدر له ان يشاهد بوادر السفور بين آنسات ذلك العهد (وقد غدون اليوم جدات صالحات ذوات احفاد !) اللواتي اقبلن ليستمعن الى محاضرته : لقد وجدهن حاسرات الوجوه (لا الرؤوس) بعد ان كان من قبل اخواتهن المسلمات في استنبول سابغات حجاباً من قمة الرأس الى اخمص القدمين !

واني اذ اشكر للأخ الفاضل انتهي الى همسته الرقيقة التي يتساءل فيها عما اذا كنت « قد شعرت باحزان الحياة واكدارها ملياً » حتى تمكنت من « ابداع هـــذه الصور الأدبية المؤثرة » في النفوس ؟ ويهمني أن اقف عند هذه الهمسة وقفة عجلى ، فأبين اني ، بوصفي انساناً يعيش في بلد محروم من اسباب العدالة الاجتماعية ، قد عانيت من الظلم والحقد والحزن والكدر ما يعانيه المواطن العادي في بلادي او اكثر او اقل قليلا . ولكن

وباستطاعتنا أن نقدر : جاء القوم خالين من زيد في قولنا : جاء القوم إلا زيداً . أعني أن (إلا) تعطي نفس المعنى الذي تعطيه (عدا) فلماذا يختلف التقدير ؟ .

أبعد هـــذه البراهين القاطعة المائعة نعود ونرضى بما قرره النحاة في الموضوع ألا تحتاج المسألة الى نظر ؟ لقد ضرب النحاة فيها على غير هدى وخبطوا خبط عشواء أفيكون في خروجنا عما قرروه جريمة بحق اللغة كما يعتقد المتعنتون المتعصبون الذين لايعرفون من اللغة الا حفظ الألفيات والاجروميات . ألا يحق لنا بعد كل ذلك أن نحاسب النحاة ونناقشهم وألا نأخذ أقوالهم مأخذ الصحة والسلامة ؟

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في بسط رأيي بارزاً واضحاً وأن يكون بمثابـــة نموذج لعدة من المسائل النحوية التي تحتاج الى فرط تدقيق ودراسة .

ابداع الفنان ليس على الدوام وليد عذاباته كماً، بقدر ما هو عائد الى ما يتسم به الفنان من رهافة في الحس ينفتح بها - ازاء التجربة المرة التي يصادف - على عالم من الوجدان المؤرق ... هذا الوجدان الذي قد يضنيه ان يرى طفلا يقضي في ظروف ما ، اكثر مما يحزن نفسه مصرع ركاب سيارة في طريق سفر ، على سبيل المثال !

على ان الدكتور جرمانوس ، بما يتصف به من دقة الملاحظة ومن غيرة على لغة الضاد التي عشقها من يومه واخلص لها ولآدابها ، شاء ان يضع اشارات استفهام امام بعض الكلمات والتعابير الواردة في كتابي ، والتي لم يتعرف معذوراً على معانيها ، او التي وجـد ان غيرها اجدر بالاستعمال موضعها ... وانها لملاحظات حقيقة بالنقاش لاتصال ذلك بلغة الرواية المعاصرة بخاصة ، تلك اللغة التي ما برحت تتأرجح بين الفصحى والعامية دون ان يكتب النجح لأيها .

١ - كان من الكلمات ، التي لم تسعفه حتى قواميس اللغة بالاهتداء الى معانيها ، « دائر الثياب » (الصفحة ٢٣) . وأقر بأن استعمال الكلمة الاولى في هذه العبارة هو من اجتهادي ، وقد قصدت بها : حاشية الثوب ، ثوب المرأة من فستان ونحوه ، عندما تحيط الحاشية بالثوب من اذياله جميعاً . وما كان لي ان استعمل كلمة « حاشية » ، فهذه « جانب الثوب والكتاب وغيرهما » ، اي مطلق « الجانب » ، وانا لا اقصد الا الدائر المحيط من اسفل الثوب ! قد يرى بعض القارئين قسراً في استعمال هذا التعبير ، او في هذا الحديث كله يدار على هذه الناحية الجزئية ، ولكن عذري اني أتوخى دقة اللفظ وسلامته ما اسعفني رصيدي اللغوي . ولعل القارىء العارف يغفر لي اهتمامي هنا اذا ما وجد نفسه في مناخ الرواية : ان الأم ، احدى بطلتي الرواية الرئيسيتين التي مات زوجها حديثا دون ان يخلف لها مالا ، تنشط للعمل خياطة في بيتها بالكراء ، تعاونها في عملها الجديد بناتها الصبايا كل بما يسرت له : فالكبرى « نورة » تبدي استعدادها لأن تخيط على الماكينة ، و « سلمى » تختص بكي الملابس بعد تمام خياطتهـا » ، و « هالة » ، البطلة الأخرى للرواية ، يعهد اليها « بفتح العرى ، وتعليق الأزرار ، ولفق دائر الثياب ! » ، اي لفق الحاشية السفلى دون غيرها من حواشي الثوب ، التي تطلق عليها النسوة العاملات في الخياطة كلمة « دوار » ... ذلك ما في وسع هالة ، وهي تلك الأيام بنت حادية عشرة لا تزيد .

٢ - وكلمة « الاشارب » لم يعرف الدكتور معناها ، وقد وردت في الجملة التالية : وترغب الأم « الى نورة ان تسبغ على رأسها كلما غادرت الدار ما يشبه الحجاب ، من « اشارب » يخفي منها الشعر الفاحم الأثيث ، ويضفي عليها مسحة من الحشمة ... » (ص ٣١) . « فالاشارب » كما تعارفنا عليه في سورية ، هو ذلك الغطاء الذي يستر شعر المرأة كله او معظمه ، واستعماله هو بمثابة مرحلة وسطى بين التحجب والسفور . والكلمة مستقاة كما ارى من اللغة الفرنسية : فان لفظة Echarpe تعني اصلا « الرباط من القماش » . وقد علمت من صديقي الدكتور علي الناصر انه

في اللغة الألمانية لفظة Scherbe لها المدلول ذاته في العربية الدارجة .

٣ – ويغمض على الاستاذ الفاضل تعبير « طاب الا طابور » (ص ٧٣) ، فيتساءل بحق : « اي لعب ذلك ؟ » . ولكني ، انا الآخر ، لم اهتد الى حقيقة مصدر تركيب هذا التعبير ، وان كنت اعرف انه يطلق على لعبة التقاذف بكرات الثلج ايام الشتاء ، فأثبته في الرواية على غموضه ، وهو دارج في حلب وغيرها من المدن السورية ، عامي ، لا أراه يمت الى الفصحى بنسب ... فهل بين قراء « المرفة » من « يعرف » مصدره ؟

٤ – ثم يغمض علي الدكتور معنى كلمة « تسريحة » في الجملة التالية (ص ١٢٤) : وتضم غرفة النوم « سريرا وصوانا وتسريحة ... » . ولا بد لي من ان اجهر هنا بما يعانيه الروائي العربي من قصور الفصحى ، احيانا ، عن اداء معاني بعض الادوات العصرية المستحدثة . فمن اثاث غرفة النوم عادة « السرير » ، وتلك « الخزانة » الأنيقة تعلق في داخلها الملابس وترتب ، ويسميها كثير من الكتاب « الصوان » ! ولكن ... قطعة الأثاث تلك ، التي تضع ربة البيت فوقها الادوات والمواد الخاصة بزينتها وتقضي الساعات امام مرآتها تسرّح شعرها وتتزين وتتزيا ، ماتراني أسميها ؟ في حلب يسمونها « تواليت » —— Toilétte الفرنسية ذاتها —— وقد كفوا انفسهم مؤونة البحث عن مقابل بالعربية ! وأما في مصر ، فقد رأيتهم يطلقون عليها لفظة « التسريحة » ، مادامت المرأة « تسرح » شعرها على مرآتها ، فاستمرت الاصطلاح الدارج في مصر ، الى أن تستنبط لنا مجامع اللغة ما يناسب .

٥ – والخياطون ، قبل درز الثوب على آلة الخياطة ، يلجأون عادة الى لفق شقق الثوب وخياطتها بابرة اليد خياطة متباعدة . العامة تسمي هذا الصنيع : « التسريج » ، فالبنت الخياطة سرّجت الثوب وتسرّجه . وقد بحثت ، يوما ، عن الكلمة في القاموس ، فاذا هي « التشريج » ، و « شرّج الثوب : خاطه خياطة متباعدة » . ولو كنت نقلت السين لأدخلت بذلك الاستغراب الى نفوس القراء ، ففضلت العامي الشائع على الفصيح المهجور . فهل يعذرني الدكتور بعد هذا الافصاح ؟

٦ – على أن الأخ جرمانوس يورد ، بعد هذه التساؤلات ، جملة من الملاحظات الوجيهة : يريدني ان أستبدل بهذه الكلمات الدخيلة « الكاتو » و « سيارة تكسي » و « البلكون » و « رواية بوليسية » و « موقف الباص » ... كلمات غيرها عربية النجار : « الفطيرة او الكعكة » و « سيارة اجرة » و « الشرفة » و « رواية شرطية » و « موقف الحافلة » . ولعمري ، انها لغيرة منه على لغة الضاد الحبيبة الى قلبه ، أين منها ذلك العداء الذي يجابه به بعض انصار العامية لغتهم الأم في عقوق لا مزيد عليه !!

ولكن لي ، على كل حال ، موقفي الخاص امام هذه الكلمات الخمس :

فما توحيه الفطيرة او الكعكة من مدلول ليس هو ما أعنيه بكلمة « الكاتو » .

و « التكسي » هو السيارة المأجورة التي تقل المرء من مكان الى آخر داخل البلدة غالباً ، وأما سيارة الاجرة فأراها ذات مدلول أبعد شمولا ، تدخل فيه تلك السيارة التي تحمل الركاب من مدينة الى اخرى .

و « الحافلة » سميت بها فيما أعلم الـ Tramway التي تسير على قضبان الحديد بقوة الكهرباء ، وأما السيارة الكبيرة التي تعمل داخل المدينة او خارجها فقد عرفها الناس بـ « الباص » ، فموقف الباص غير موقف الحافلة .

وفي معنى « البلكون » لا أذكر أني استعملت غير « الشرفة » ، ولكن البلكون ، الذي ذكرت في الصفحة ١١٤ ، لم يكن بلكون البيت او شرفته ، ولكنه بلكون السينما ، تلك التي اصطلح على تقسيمها الى « صالة » و « بلكون » كما تقرأ في مداخل دور السينما ، فكأن الكلمة هنا اكتسبت مدلولا خاصاً .

وأما « رواية شرطية » ، فموضع نظر .

٧ – ويقول الناقد الفاضل : ان كلمة « العُوَّد » لفظ نادر الاستعمال ، ويرى ان « عوّاد » خير منها . لقد رجعت الى « لسان العرب » فوجدت ان « عاد المريضَ عَوْداً : زاره ، فهو عائد ج عُوّاد ، وهي عائدة ج عوّد » . فالجمعان كما هو ظاهر على خلاف : احدهما للمؤنث والآخر للمذكر . ومريضي في الرواية انثى ، فزائروها من النسوة : عوّد . « وانها لتقول ذات مساء ، والعوّد من حولها تذهب منهن النفوس حسرات ... » (ص ١٥٦) . على اني اقر بأن التفرقة بين هذين الجمعين غير مأخوذ بها على اطلاقها ، ويحضرني في هذا المقام قول الشاعر شوقي في مطلع قصيدته التي يغنيها المطرب العربي الاول :

مضناك جفاه مرقده

وبكاه ورحّم عُوَّدَه

فقد أخذ الشاعر بجمع المؤنث ، وهو – كما أرى – يقصد الجمع الآخر .

٨ – تبقى تلك الملاحظة المريضة : « رأيت المؤلف لاينصب اسماء الاعلام حين لاتكون ممنوعة من الصرف » . وانما كان موقفي هذا من اسماء الاعلام وليد دراسة وممارسة . اني لم استطع ان استسيغ اعراب اسم العلم في الرواية نصباً او تنويناً على وجه العموم . أرى ذلك يسيغ في الرواية التاريخية والوطنية دون ما حرج . واما في الروايات التي ترصد جوانب من حياتنا اليومية على النهج الواقعي ، حيث الابتعاد عن المواقف الخطابية ضرورة لازمة ، فان الواجب يحتم على الروائي ان يتوخى الصدق في سوق الحوادث وفي التعبير على حد سواء ، فذلك ماييسر لأن يخضع القراء لحالة الايهام التي ينشدها المؤلف نفاذاً الى قناعتهم ، وتلك من اولى مهام العمل الروائي . اني لأكتب في بحث ادبي مثل هذا القول : « وقد رأينا الشاعر احمد شوقي يعنى بالشعر المسرحي ... » ، ولكني احجم عن ان ادع بطلتي هالة تقول في « ثم ازهر الحزن » ، وهي في موقف واقعي وشعبي الى حد بالغ : « ودق باب دارنا ، فقمت افتحه ، لأرى أمامي

الحاج هلالا الخالجي ، بقامته المنتصبة التي لم تنل منها سنوه الخمسون ، وصايته الحريرية وسترته السوداء . . » . فسرت من يومي على قاعدة خصصت لفي بها : ان المجي اسامشخوصي الروائية من « حالات التنوين » !

وبعد ...

اني اشكر الرجل المخلص للغتنا على هذه اللفتات الصادقة الغيور . كما اشكر له اهتمامه بكتابي، ذلك الاهتمام الذي منحني فرصة توضيح بعض الأمور . مترقبا ، باعتباري واحدا من المواطنين العرب ، مؤلفه الذي يعده بالانكليزية من سنوات عن ادبنا المهجري ... وهو الذي يرى في اخلاصه ، في هـــذا الأدب المهاجر ، نموذجاً فريد المثال بين ادب الشعوب التي نزح فريق من ابنائها عن اوطانهم مهاجرين الى الدنيا الجديدة ، ويجد فيه - كما حدثني في رسالة - « خير دعاية للعبقرية العربية » .

الا بوركت همة الشيخ الذي تجاوز الثمانين من عمره المديد ، والذي يعمل في دأب ابن الثلاثين ربيعاً ، وبورك جهاده الصامت للعربية والاسلام .



يقدمها غازي الخالدي

معرض الصوان :

اربعة فنانين يمثلون حركة التجديد في الفن التشكيلي المعاصر في سورية ، اربعة ممن ساروا في درب الثورة الفنية على كل القيم التشكيلية القديمة ، قيم الارتباط بالتشخيص او الموضوع او المعاني .

ولاول مرة يجتمع هؤلاء الاربعة : محمود حماد نصير شورى ، الياس زيات ، فاتح المدرس في معرض واحد يعتبر اول معرض من نوعه في سورية .

اقيم هذا المعرض في صالة الصوان في دمشق .

اما لماذا يمكن ان يسمى اول معرض من نوعه فهو لانه لقاء جدي على درب الفكر الجديد ، لقاء جدي على طريق المعرفة الجديدة ، والرؤية النفسية للاشكال والمعطيات الطبيعية ، وترجمة هذه الرؤية الى لون ومساحة وتكوين باحساس عنيف فيه الجرأة ، وفيه الحرية وفيه الرأي الشخصي الصريح .



تكوين - كتابة عربية محمود حماد

● وهذه اول مرة يخرج فيها نصير شورى، الرجل الذي عاش طوال عشرين عاماً يرسم الطبيعة ويتغنى بمفاتنها الاخاذة، مركزاً على الاضواء والظلال وعلى الناس التي تعيش فيها، ويختار ما يختاره من اوضاع وحركات ليؤكد فيها جميعاً جمال الانسانية وجمال الطبيعة.

ان الذي تغير عند نصير ليس اللون، ليس الخط، وليس التكوين، ان الذي تغير عنده هو احساسه بمعنى الحرية الفكرية بالنسبة للفنان.

فقد ادرك الفنان شورى بعد عمل مستمر جاد في تجارب فنية مختلفة، ومحاولات كثيرة في تجريد الاشكال ودراسة معطياتها اللونية، ومدى اثرها على النفس الانسانية خلال عشر سنوات خلت.. ولكنه لم يظهرها للناس وبقيت كالمذكرات بين دراساته وكروكياته.. ادرك اخيرا ان التجربة الفنية هي ملك الناس قبل ان تكون ملكا للفنان.

وترك الفنان لاحساسه المتدفق، لعواطفه الانسانية، لحريته الثائرة.. فقال شيئاً لم نألفه بعد ـ بصرف النظر عن مستواه الفني ـ ولكنه شيء جديد فيه الانسان المجرد من كل تزييف فوتوغرافي، من كل مجاملة سطحية للطبيعة، من كل تقيد بالقيم الاكاديمية المألوفة.

ماذا يمكن ان يقول الفنان عندما يريد ان يرسم اكثر من ان يصدق التعبير عن احساسه بما حوله. الفن تعبير عن احساس معين، والاحساس بالشيء غير التعبير عنه، فكثيراً مايحس الفنان بشيء ما، ولكنه يقف مكبلا تجاه عواطفه واحاسيسه المجرد انه لن يستطيع ان يمارس حريته التشكيلية كفنان في مجتمع لايزال يطلب اليه ان يرسم كذا ويفعل كذا.. ويتقيد بموضوع كذا ليسموه بعد ذلك فنانهم الاول.

● ومحمود حماد وفاتح المدرس لهما تجارب كثيرة، ومنذ زمن ليس بقريب، عالجا فيها قضية الشكل من خلال التشخيص وقضية الهدف من خلال المفاهيم الوطنية والعاطفية.

وانتقلا بتجاربهما العديدة من مرحلة الى اخرى ـ وخاصة حماد ـ حتى وصلا الى ما وصلا اليه اليوم من تجربة جديدة للتجريد، تجربة تلخص موقف الانسان العربي وهو يقف امام تيار الفكر العالمي الحديث لينهل منه ما يمكن ان يتلاءم مع بيئتنا وحضارتنا.

ان تجربة حماد في تطويع الخط العربي ونقله من المدلول التفسيري الادبي الى الدور التشكيلي التجريدي البحت هي تجربة قديمة تتبلور عنده خطوة خطوة، مستلهماً من احرف وكلمات قد لاتثير فينا اي احساس، يشكل منها علاقات وارتباطات تعبر عن وجدان متحرك يقظ، واحساس منظم يحميه فكر علمي دقيق.

وتجربته ايضاً تحمل طابعاً تقنياً معيناً، بمعنى انه بالاضافة الى الناحية الفكرية التي تطل وراء كل اعماله الحديثة وخاصة «كتابة عربية» ولونها يغشاه.. هناك خبرة تقنية واضحة لا يمكن تجاهلها وتلعب دورا هاما في التأثير على الاحساس الحسي والاحساس اللوني في اللوحة.

● اما الياس زيات: فاللون عنده رغم تفجره وانطلاقه من جميع القيود التي كان يعانيها في تجاربه الماضية يميل الى الناحية الشاعرية خاصة

عندما يستعمل اللون الزهري الشفاف الى جانب الالوان الداكنة الكثيفة الحزينة !

الليل ..وحده موضوع وحي طويل للشعراء والادباء والفنانين .. فلماذا لا يتأثر بـه الياس زيات ويقول في الليل احساسه .. وكأنه يرمز الى صور وحوادث معينة تحدث تحت ستار الليل فيستعملها كرمز لها الوان تمثلها او تذكرنا بها ، خاصة المساحة السوداء الكبيرة في اعلاها شبه نافذة تطل منها اربعة الوان تحكي قصة اربعة احداث ليلية ، كأنها تطل من برج عال مظلم .. برج الاسرار والآلام !

ولكن هذا ليس المقصود من تجربة الياس .. لان العمل الذي يقدمه الياس فيه اندفاع سريع الى اللون اندفاع جريء الى تحريك اللون وجعله ينطق بمضمون انساني عميق .

عندما تقف امام هذه التجارب الفنية لا تقل ماذا تعني ؟ بل قل هي اطربتك . هل اعطتك احساساً معيناً . دع احساسك يتفتح امامها لا منطقك العقلي . دع لنفسك مجالاً للتعاطف النفسي مع هذه الالوان ولا تؤخر عواطفك ضمن القواعد والاسس الكلاسيكية والمفاهيم الفوتوغرافية في تفسير الاشكال الطبيعية .

● وفاتح المدرس له اسلوبه وطابعه المعروف به ،وقد رأيت بعضاً من اعماله الحديثة في معرض خاص اقيم له في بيروت .لوحاته تحمل قلبه مرة واحدة الى الناس جميعاً .

ان فاتح عندما يرسم يقول كل مايريده دفعة واحدة في اللوحة الواحدة ، يضع الاحمر الى جانب الاسود الى جانب الذهبي الى جانب الاخضر . ويحدها جميعا بخطوط سوداء خشنة.. كأنما يريد ان يقول : كل هـذه الالوان هي حياتي . صحيح ان لوحاته اكثرها عن الطفولة. الا ان الاحساس الذي ينقله الينا في كل لوحة احساس دافئ خاص باللوحة نفسها ، منفصلة عن غيرها من اللوحات رغم وحدة الموضوع التي تسيطر على اعماله .

يرسم الربيع من خلال الطفل . يرسم الصحراء من خلال الطفل . يرسم الليل من خلال الطفل. انحطاً دراميا واضحاً يشمل اكثر اعماله . يقوله بقسوة . وبانفعال نفسي واضح .

معرض الزجاج المعشق :

يقام حالياً ولمدة شهرين في متحف نقولا ابراهيم سرسق في بيروت أول معرض من نوعه لفن عربي أصيل هو الزجاج المعشق ، والزجاج المعشق له تاريخ طويل(١) يعود الى عهد البيزنطيين ، وقد كان يعشق بالمعدن ، وكان يوضع في الكنائس ، ومن زمن الوليد بن عبد الملك احضر العمال الذي عملوا في اياصوفيا، وطلب اليهم تنفيذ تصاميم خبراء عرب ، ولاول مرة استعمل التعشيق مع الجص بدلا من المعدن، وذلك لان الجص اقل كلفة واكثر ملاءمة لمناخنا ، كما انه اكثر طواعية ، ويمكن للفنان

(١) من بحث للاستاذ ياسين الشوا الخبير بالزجاج المعشق في سورية ، والمدرس لهذا الفن في مراكز الفنون التطبيقية .

ان يتحكم في زوايا الميل بالنسبة للتعشيق ، كما انه بواسطة الجص يمكن ان يتم التعشيق في ادق المسافات واصغرها بعكس التعشيق الغربي الذي يحتاج الى مساحات كبيرة ، وبدأ هذا الفن يدخل الى المساجد بشكل تدريجي وتطور فجـأة أيام الفاطميين حيث جاؤوا بخبرات جديدة من الاندلس والمغرب العربي ، وبقي هذا الفن مقتصراً على المساجد ، حتى جاء المماليك الذين ادخلوه الى البيوت ، والى غرف الحريم بالضبط كشيء تزييني جميل يروح عن النساء اللواتي لايخرجن من البيت ، ولكنه اقتصر على بيوت الاغنياء .

اما عن هذا المعرض فيمكن استنتاج ثلاثة أهداف رئيسية من اقامته :

اولا : التأكيد على ان الزجاج المعشق بالجص أصله من بلادنا ، وجزء هام من تراثنا الفني العريق ، وعندما بدأنا نطوره وندخلـه الى الحياة اليومية كانت اوروبا تغط في سبات عميق .

ثانياً : ان هذا الفن العريق يمارس ويدرس مجاناً لاول مرة في بلادنا العربية ، في سورية ولبنـان ومصر ، اما في سورية ففي مركز الفنون التطبيقية باشراف الفنان ياسين الشوا ، وفي بيروت في مرسم الفنان كريستيان شركي ، وفي مصر في معهد الفنان حبيب جوركي . حيث يتعلم المواطنون العرب هذه الخبرة الفريدة من نوعها .

وكون هذا الفن قد اصبح مجالا للتعليم معنى ذلك أنه سينتشر في جميع انحاء العالم ، والمعرض هذا يدعو الى هذه الفكرة ، ويدعو أيضاً لادخال الزجاج المعشق الى الحياة اليومية العادية ، في العمارة الحديثة ، وفي فن التزيينات الداخلية (الديكور) ليبقى لطابعنا العربي الاصيل الاستمرار حتى في الديكور الحديث والعمارة الحديثة .

ثالثاً : الدعوة الجدية لتطوير هذا الفن ، وجعله عمليا اكثر بحيث تطعم الوحدات الزخرفية المستعملة بوحدات تشخيصية من القصص العربية والاساطير المتداولة مثل (الف ليلة وليلة ، عنتر وعبلة ، قيس وليلى ، ابوزيد الهلالي) أو من صور ونماذج لوحات الفنانين المعاصرين ، وتوجيه استعماله في الثريات والاباجورات والطاولات واللوحات الحائطية وفي المباني الكبيرة وفي كل



ثلاثة نوافذ من الزجاج المعشق

من المسجد الاقصى

مكان ، وعـــدم اقتصاره على نوافذ المساجد والكنائس .

اما المعروضات التي قدمها المتحف فتقسم الى ثلاثة أقسام :

القسم القديم وعرضت فيه نوافذ زجاجية طولية ، استعيرت من بعض المساجد الاثرية ، يعود تاريخها الى القرن الثاني عشر (ميلادي) حتى القرن الثامن عشر .

مزخرفة بوحدات نباتية وهندسية وكتابية، والوانها في حدود ست درجات مختلفة أهمها الاحمر والاصفر والازرق والاخضر وبعـــض مشتقاتها .

وفي اعلى احدى هذه النوافذ كتب بالخط النسخي كلمة « هذه آثارنا » وفي نافذة اخرى بنفس المكان في اعلاهـا كتب بنفس الخط ايضاً « تدل علينا » !



زجاج معشق بالمعدن ــ الشكل الدائري
للفنان كريستان شركي

من هنا يبدو ان هاتين النافذتين كانتا لقاعة واحدة متجاورتين تكملان بعضها البعض الآخر ، وعرض الى جانب هذه النوافذ قطع صغيرة من المتاحف تمثل كتابات عربية وآيات قرآنية تعود الى العصر الاموي .

وكذلك عرضت صور نماذج من نوافـذ الزجاج المعشق القديم في سورية مأخوذة من جامع يلبغا ، والاموي ، والسنانية ، والمدرسة الماردانية ، والبيمارستان ، وجامـع الفيروزي ، وجامـع درويش باشا ، والتكية السليمانية ، وتربة ست الشام ، ونوافذ من خان اسعد باشا العظم ، وجامع الحنابلة .

اعتبرت هذه المجموعة من الصور تأكيداً ثانيا لاصالة هـذا الفن العربي العريق ، والجميل في صنعة هـذه النوافذ جميعاً هو الدقة المتناهية في عملية الرسم والحفر والتعشيق بالجص ، فتعتمد اكثرها من حيث التصميم على التناظر والتوازن الزخرفي ، ثم ملء الفراغ مهما كانت مساحته .

وجميع هذه الرسوم والزخارف تجريدية بحته ليس فيها بعد ، اي منظور ، او احساس بالتجسيم ، ولا حتى الايهام به .

القسم الثاني الحديث

ويشمل اعمال الفنانين المعاصرين في لبنان الزجاج المعشق بقياسات كبيرة تستعمل المباني والعمارة الحديثة ، وتستعمل للتزيينات الداخلية ، واهمها كانت للفنان كريستان شركي واطلابه ومعاونيه . والفنان فرنسي الاصل يعيش في لبنان منذ زمن بعيد .. يمارس هذا الفن بشكل متطور مع روح العصر سواء من حيث التصميم أو من حيث التنفيذ . .

وقد أتيح لي زيارة مرسمه والاطلاع على اعماله الخاصة مع معاونيه اللبنانيين فوجدت ان التعشيق عنده يعتمد على المعدن وليس على الجص ،

وله محاولات بالتعشيق بالجص لكن مهارته تظهر بتطويع المعـــدن وتشكيل وحدات زخرفية تجريدية جميلة ضمن اشكال دائرية او بيضوية او مثلثة حسب الحاجة الاستعمالية لها .

يستعمل في اعماله الفنية زجاجاً ملوناً في حدود ستين لوناً وقد قال لي ان المعمل الاصلي في فرانسا ينتج حوالي الفين وستماية لون من الزجاج الخاص لهذه العملية .

والزجاج الذي يصنع للتعشيق يصنع بطريقته العجيبة التي تبسط على الارض وتمر فيها دولاب كبير يمدها مداً على طريقة الضغط الثقيل الآلي (في ترقيت الطرقات) . وتبقى دائماً فقاعات هوائية ضمن الزجاج تعطيه رونقاً وجمالاً وتبعد عنه الصفة التجارية . واحياناً يصنع زجاج فيه تموجات وعروق مقصودة لتميزه عن غيره من الزجاج العادي التجاري .

القسم الثالث

جناح مركز الفنون التطبيقية بدمشق ، وقد كتب على هذا الجناح : الزجاج المعشق السوري الحديث !

وقد عرض في هذا الجناح بعض النوافذ من الزجاج المعشق من تصميم وتنفيذ طلاب مركز الفنون التطبيقية بدمشق ، ونوافـــذ غير كاملة ودراسات اعلانية حول الزجاج المعشق وصور فوتوغرافية توضيحية لمدرس المادة في المركز يشرح للطالب عملية التعشيق وقد كان الجناح السوري هذا رغم قلة عدد المعروضات وضعف المستوى الفني للنوافذ ـ لانها اعمال الطلاب التدريبية ـ كان له الاثر الطيب في نفوس رواد المعرض واهل الصحافة . باعتبار ان هذا الفن العريق يدرس لاول مرة في سورية العربية .

ولو ان المعرض شمل اعمالا سورية ارفع مستوى واكبر حجماً لاخصائيين سوريين في هذا الفن ـ اسوة ببقية المعروضات ـ لكان صدى الجناح السوري ابعد اثرا في التعريف بسورية وفنونها العريقة المتجددة .

كنز جديد من ماري :

اكتشف مؤخراً في مدينة ماري (تل الحريري ـ قرب البوكمال) في قصر يرجع للالف الثالث قبل الميلاد ، على جرة تضم كنزاً لأحد ملوك مدينة ماري ، ورد على سبيل الهدية من ملك مدينة اور في جنوبي مابين النهرين) الى ملك ماري زميله في الفرات الاوسط ، وهذا الملك يسمى غنسود واعله مؤسس سلالة ماري وهي السلالة العاشرة بعد الطوفان .

وهذا الكنز لم يصب قط بالاذى ، ولم تتسرب اليه عادية الزمن ، يتألف من تمثال صغير لامرأة عـــارية من الفضة واللاكاتروم (خليطة من الذهب والفضة) وتمثال صغير آخر من العاج يمثل امرأة عارية ايضاً وعقاب رائع برأس اسد



عقاب برأس اسدمن الذهب واللازورد

مصنوغ من الذهب واللازورد .وطوقين نظما من خرزات ضخمة من اللازورد والعقيق ، وثمانية مشابك من النحاس واللاكتروم ، وحلي ذهبية ورصائع من الذهب واللازورد ،واعلان من اللازورد واربعة عشر ختما اسطوانياً .

وقد تمكن الاستاذ جورج دوسان ان يقرأ اثر اكتشاف الكنز مباشرة في كتابة تتألف من ثمانية سطور نقشت على خرزة ضخمة من اللازورد. اسم الملك الذي ارسل الهـــدية وهو الملك « ميزاينادا » ملك اور الشهير، ومؤسس السلالة الاولى فيها ، وبذلك عثرنا على عنصر المقارنة في غاية الاهمية بين سلالتي ماري واور .

ان هـــذا الكنز يعتبر بحق من اروع ما جادت به الارض العربية السورية من آثار دفينة منذ مطلع التنقيبات الاثرية العلمية التي جرت في بلادنا في هذا القرن حتى الآن وروعة هذا الكنز تعود الى انه يرجع الى الالف الثالث قبل الميلاد والى انه يتألف من معادن ثمينة واحجار كريمة نادرة سوف تكون برمتها ملكاً للمتحف الوطني ، والى انــــه اوضح صفحة جديدة من تاريخنا الذي يثبت مــــدى اسهامنا في بناء الحضارة العالمية .

معرض سعيد مخلوف

في صالة « ايسباس »

فنان بدائي ، يعيش الفن في وجدانه منذ نعومة اظفاره انه ينحت من الخشب بنفس الطريقة التي يرسم فيها اي مصور ناجح .. ان صداقة متينة بينه وبين خامة الخشب لأن هذه الصداقة هي التي عكست روائع فنية من انتاجه .



البتول

ان التعبير الدرامي هي الميزة الاولى في فنه حيث نرى آثار الانسان ومشاكله وقضاياه بشكل رمزي مجرد .. حتى ان الحلول التي يقدمها في تلخيص الوجوه ، وتغير ملامح التشريح تعطي مدلولات نفسية وحضارية بعيدة المدى .

وقد مارس هذه التجربة في الغابة حيث كان يعيش طوال عمره مع الاشجار فكان يتصور ان كل شجرة هي تمثال من تماثيله لذلك استطاع ببساطة ان يتغلب على الخشب ويخلق منه اشكالا انسانية معبرة .

ولعل من الملاحظ ايضاً اصراره على البحث في الشخصيات الحضارية التاريخية فيدو وكأنه ينادي التراث القديم ليعود من جديد في تمثاله (ليديا) و (حضور) .

ان معرضه هذا يعتبر خطوة ثانية نحو نحت حديث معاصر على مستوى عالمي .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

بقلم فؤاد الشايب

الحلقة الثانية من بحث الاشتراكية الافريقية كما يراها الرئيس نكروما نظرياً ، وكما تمارسها جمهورية (غانا) عملياً - مبادىء التخطيط الاشتراكي وأهدافه ، خلال خطتين خمسيتين ناجحتين — كيف يصور الرئيس نكروما حاجة افريقية الى الوحدة السياسية الشاملة ؛ وماهي مبرراتها — والمراحل التي مرت بها فكرة الوحدة .

ان تكن الاشتراكية في الدولة الرأسمالية قد خرجت من شق التصدع الاجتماعي الذي تم بنتيجة الصراع بين رأس المال والعمل في الاقتصاد الصناعي منذ اواسط القرن التاسع عشر ، فان الاشتراكية في المجتمعات المتخلفة ، قد نبعت من مصدر آخر ، ان يكن صراعاً ايضاً ، فهو صراع القوى الوطنية الجديدة ، المتحررة ، ضد التخلف وضد أي قوة سياسية او اقتصادية ، تقف او يمكن ان تقف بجانب التخلف.

وان من شأن هذا التمييز بين اشتراكية الدول الرأسمالية الغربية ، واشتراكية الدول المتخلفة الناشئة ، أن

يساعد في تحديد اهداف هذه الاخيرة ، في آسيا وفي افريقية ، وفي توضيح طبيعتها المرحلية ، مها أريد لها في البدء من طابع ثوري عنيف .

وأن اول مايبدو ضروريا لازماً في مرحلة التكوين الاشتراكي في المجتمعات الناشئة ، هو حاجتها الى الوحدة الوطنية في مكافحة التخلف والقوى المتحالفة معه من قوى خارجية او داخلية . فليست القضية في ظرفها الراهن ، تناقضاً بين رأس المال والعمل ، بسبب أن رأس المال المحارب والعمل المتحدي ، كطرفي خصومة ، غير موجودين فعلاً في ساحة المعركة . وان وجدا ، ففي حدود دنيا ، ومرافق ضامرة ، لا توجب افتراض صراعها مقدماً على صراع المجتمع برمته ضد ماهو أدهى واولى بالمجابهة العاجلة ، وهو التخلف وما يعنيه من فقر عام ، وجهل سائد .

ان النظرية الاشتراكية في هذه المجتمعات الناشئة ، تفرض أن الرأسمالية المتحركة في أطارها التجاري من جهة ، وأطارها البدائي في صنع المواد الأولية من جهة ثانية ، وكلاهما اطاران ضيقان لاتحجبها مصالحها الراهنة عن مصالح مجتمعها ، لاسيما اذا كان في الطرف الثاني من الخصومة ، عدوان مشتركان هما التخلف والاستعمار .

بل ان النظرية الاشتراكية في منابعها الأولى ، كما فهمها وطبقها الرئيس ماوتسه تونغ منذ خمسة وعشرين عاما ، لم تسجل بلاء هذه القوى الرأسمالية الوطنية المسماة بورجوازية ، في حروب التحرير فحسب ، بل قضى ان من الضرورة الوطنية أن تساهم في بناء الكيان الصيني الجديد ، وأن تعمل بيدها على دمج نفسها في عملية التحويل الاشتراكي .

كذلك تقول الدراسات التطبيقية الاشتراكية ، التي تستوعب تجارب مئة عام من شتى انواع الاشتراكية المعتدلة والمتطرفة على السواء ، أن ليس من الجائز فحسب ، قيام هذه المشاركة ، بل من الضروري ، نظرياً وعملياً . وان للاشتراكية ، طرقها المختلفة . حتى أن الديموقراطية البرلمانية الحزبية نفسها ، في مجتمع كالمجتمع الايطالي ، قد تم التسليم بها

طريقاً من طرق الاشتراكية ، بالنسبة للحزب الشيوعي الايطالي . كما كانت هذه (الطرق المختلفة) موضوعاً رئيسياً من مواضيع المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، ومادة أولى من مواد التحول النظري والعملي ، في الفترة التي عقبت ستالين ، إجمالاً ، في اتحاد السوفييت ومعظم الدول الاشتراكية الموالية ، مما اوضحه الرئيس السابق خروشوف ، في أكثر من مقال ومن موقف . *

اذن فالظرف التاريخي الذي تعيشه المجتمعات الجديدة في آسية وأفريقية ، من حيث حاجتها الى الوحدة الوطنية في مقارعة التخلف وخلفائه ، ومن حيث تطور الاشتراكية التطبيقية في العالم ، تطوراً سلمياً لم يسمح بسلوك الطرق الخاصة نحو الاشتراكية فحسب بل أكدها وشجعها ، — ان هذا الظرف التاريخي ، مقترناً بتطورات العصر ، قد جعل من التجارب الاشتراكية في العالم الثالث ، تجارب غنية ، تطمح بتطبيق (الطرق المختلفة) للاشتراكية لا الى اصطفاء اللباس الذي يليق بها فحسب ، بل الى تأكيد حريتها واستقلالها تأكيداً نهائياً تجاه شرق وغرب وتجاه كل بضاعة مستوردة جاهزة .

ومثلما ترفض هذه الدول الناشئة ، تطبيق النظرية الاشتراكية ، مجردة عن واقعها — واقع الدول — ومجردة عن تطوراتها التطبيقية الراهنة — التطبيقات الاشتراكية — كذلك فهي أولى ان ترفض دعوة الدول الديموقراطية الليبرالية ، التي يقول بعض نظريها أن الدول الناشئة ، لكي تضع قدمها في طريق الرقي ، يجب ان تبدأ بآخر المراحل التي بلغتها الدول العريقة . وفي قول للرئيس نكروما — الذي ندرس اشتراكيته اليوم — إن الشرط الاول الذي يجب ان يتوافر لكي تنطلق الدول المتأخرة من اعلى درجات الدول المتقدمة ، أن تكون لديها رؤوس أموال ضخمة متراكمة تجمل الشبه الاقتصادي واضح الملامح ، حتى لو توافرت رؤوس الأموال هذه ، فلا جدوى منها اذا لم يدعمها جمهور متعلم ، تتخرج منه

(*) جولات الشهر في المعرفة ، طوال عامها الثالث .

الفئات المتنورة ، واليد العاملة الفنية ، والادارة الواعية ، التي تدفع بالجهاز الصناعي عبر تطوره التصاعد . وهنا تبدو المعضلة ، لا في بعدها الاقتصادي ، فحسب ، بل في بعدها الثقافي ايضاً ، بل قد تكون هذه المجتمعات بحاجة الى التعليم أكثر من حاجتها الى التصنيع ، في مراحل الانطلاق .

بهذه الملامح العامة التي تسود معظم المجتمعات الآسيوية والأفريقية ، على فروق غير ذات بال في اتجاهات الممارسة السياسية بين يمين ويسار يمكننا أن نطل على صفحة المشهد العام الذي تتحرك فيه اشتراكية الرئيس نكروما في بلده غانا .

ان الرئيس نكروما ، في كتابه المشهور (افريقية يجب ان تتوحد) ، لا يحمل على رأس المال الحر ، لأنه عدو الاشتراكية فحسب ، بل لأنه تلك القوة الاقتصادية التي تحتاجها غانا ، اليوم أكثر من اي وقت مضى ، وعليها أن تتناولها من اليد الاستعمارية بالذات . ان رؤوس الأموال الأجنبية ، طفقت تهرب من أفريقية اثر الاستقلال لأن المغانم الفاحشة ستفوتها حتما ، ولكن الرئيس نكروما يرى انه لابد من اغرائها ببعض الربح ، لتبقى ولو كان ذلك بالثمن غير المعقول . وانه لمن الظلم — يقول نكروما — أن نحمل انفسنا اعباء اضافية ، بسبب التخلف الذي فرضته علينا الدول صاحبة الاستعمار المدينة لنا بنجاح صناعتها ... وهي الدول نفسها التي استعمرتنا ، وتبيعنا اليوم الآلات والتجهيزات والخبرات ، وتعقد بها للمرة الثانية صفقات رابحة !!

وبينا لا تغلق غانا ابوابها بوجه رؤوس الأموال الخاصة الأجنبية التي تقبل شروط العمل لتأسيس مرفق ، أو اطلاق صناعة بادارة مصلحة حكومية ، تأكيداً للاشراف عليها ، فان هذه الدول الأفريقية لتفضل القروض الرسمية ، على التوظيفات الرأسمالية ، لأن الأولى غير مشروطة ، وتقع برمتها تحت ادارة الدولة ، بينا الثانية ، تجري على مساومات من أجل ربح خاص ، ولا يؤمن جانبها السياسي ، « ان رؤوس الأموال هي حاجتنا الكبرى ، سواء أتقدمت من الخارج ، أم ربيت في البيت

تربية تدريجية شاقة، في بلد خال مما يسمى (الثروة البورجوازية) .

وسواء اكانت الدولة اشتراكية في أفريقية ، أم ليبرالية ، فان في قاعدة استقلالها السياسي ، يجب أن تقوم مجموعة من المسلمات . أهمها :

١ - ان بناء دولة جديدة ، بحاجة الى اكثر من اعداد برنامج ، واصدار خطة وانشاء تعليمات وتنفيذها (بل يجب أن يتبنى الشعب ارادة الحكم ، ويجعلها ارادته) ويدعمها بكل طواعية وحماس لتصبح الدعوة الى العمل شاملة العدد الأكبر .. - نكروما - .

٢ — اعلان الحرب على الأمية . والبدء ببناء المدارس، والطرق، والاقنية، والمشافي، ومراكز البريد ، والمساكن، والمراكز الاجتماعية .

من أجل ذلك لابد من شد الحزام، والعزم على انشاء اقتصاد يمنح الخدمات الثقافية والاجتماعية اللازمة بالضرورة لانشاء شعب سليم ، بينما يجمع رأس المال اللازم لخطط التنمية، في وقت واحد معاً.

٣ — ان نوع الاقتصاد الوطني الذي يدعى له هو الاقتصاد الذي يعزز الاستقلال السياسي ويثبت قواعده .

وبينما نرى غانا في شخص نكروما ، كما نرى غينيا في شخص سيكوتوره ، أن (الاستعمار الجديد) هو عودة للاستعمار التقليدي بشكل اقتصادي، يوجب محاربتها معاً ؛ فان دولاً أخرى بدأت تنحاز بجانب السوق الاوروبية المشتركة ، مثلا ، لتعزيز اقتصادها وتوطيد حكمها . وغير بعيدة اليوم عن آفاق افريقية ، رياح التنازع بين العسكرات ، من قبل أن يستكمل الوعي الافريقي اسباب رشده وسداده .

٤ — ان الحذر من سطوة رأس المال الاجتماعية، والحرص على وجوده في قاعدة التصنيع يدمغان ابرز سمات المجتمعات الجديدة الناشئة في العالم الثالث ، وهي سمات تحمل تناقضها في حركة نموها .

ومن هنا سنلقي نظرة على ممارسة الاشتراكية الافريقية في غانا :

لماذا الاشتراكية :

ان في تقديم الرئيس نكروما الاشتراكية لبلاده ، حجة ليست مادية

نحسب بل نفسية ايضاً . فهو يشير الى أن معظم المستعمرات السابقة لم يتح لأفرادها في ظل السلطة الاجنبية أن تجمع رأس المال ، وتبني صناعة حديثة ، لان خطة استعمارية مقررة ، كانت تهدف الى **حصر الفعالية الاقتصادية في التجارة وانتاج المواد الاولية** . فكان من اللازم منذ فجر الاستقلال أن تلجأ الدولة الجديدة بنفسها الى تجميع رأس المال ، وتحقيق ما لم يستطع الأفراد — البورجوازيون — تحقيقه بالأمس ولا يمكن تحقيقه اليوم الا ببطء وحذر .

فرأسمالية الدولة هنا وظيفة اقتصادية مادية في المقام الأول ، وهي بالتالي ، تعويض بسيكولوجي ، يعطي الدولة اهميتها ، كجهاز وطني حل محل السلطة الاستعمارية . وان رد العدل الاجتماعي كهدف أساسي من اهداف الاشتراكية ، كما قررها معظم القادة الافريقيين ، فانه من الواضح في كثير من نظرياتهم الاقتصادية انهم انما يركزون على تسريع الانتاج ، وتربية رأس المال الانتاجي ، قبل كل شيء . لأن العدل بالذات ليس قضية قارعة ، في مجتمع ليس عميق الفروق الطبقية ، ولا كثيف الصناعة والبروليتاريا . لاسيما وأن مبدأ تمليك الدولة معظم وسائل الانتاج سيحول تطبيقه بالتدرج دون نشوء فروق شاسعة في المستويات الاقتصادية والاجتماعية في المستقبل .

فالاشتراكية الافريقية ، انما تنبع من الحاجة الى تجميع الثروة ، قبل الحاجة الى توزيعها . لذلك لا يطرح التوزيع كقضية في المراحل الأولى تأكيداً للعدل ، بل يطرح تكوين رأس المال الجديد ، باشراف الدولة ، وبمساهمة أصحاب رؤوس الأموال ، تأكيداً لمجابهة التخلف بمجموع القوى الوطنية .

ان اقتصاد غانا — كما يقول الرئيس نكروما — يمكن تقسيمه الى خمسة قطاعات : ١ — المشاريع الوطنية الكبيرة . — ٢ — المشاريع الخاصة الأجنبية —٣— المشاريع التابعة لشركات أجنبية بالاشتراك مع الدولة — ٤ — التعاونيات — ٥ — المشاريع المحلية الصغيرة .

وان المبادىء العملية التي تتحرك في أطرها ، هذه القطاعات ، تنطلق من

أ – تشجيع رؤوس الاموال واشراكها في خطة التنمية – ب – عدم السماح لرؤوس الاموال بافساد الخطة، وعرقلة تنامي القطاع العام.

ومن أقرب الأهداف الملحوظة، في توسيع التحويل الاشتراكي الطوعي التعاوني:

أ – زيادة انتاجية الأرض وتنويعها، والتأكيد عليهما معاً. لأنهما شرطان ملازمان لانشاء صناعة ناجحة. « واذا لم يتضاعف انتاج الريف باستمرار فشلت جميع خطط التنمية » – نكروما –

ب – تنشيط أي جهد فردي او جماعي يؤدي الى تجميع رأس مال موظف في خطة التنمية، أو الى الحد من الاستيراد، او الى توسيع امكانات التصدير.

ج – التشغيل الكامل للأيدي العاملة المتوافرة او المقرر ان الخطة بحاجة اليها، مع التأكيد ابداً على تنشئة اليد الماهرة، والخبرة التكنولوجية والادارية.

د – وضع الخدمات الصحية والتعليمية في المقام الأول، الى جانب تجميع رأس المال، واحياناً فوقه. لأن الشعب المتعلم الصحيح البنية، هو رأس المال البشري الذي يضمن بلوغ الخطط الاقتصادية والاجتماعية أهدافها.

هـ – ليست الضرائب مورداً أساسياً لتجميع رأس مال التنمية، ومع أن الضريبة المستحقة على أرباح رؤوس الأموال الخاصة المقرر تنشيطها، مقصودة مباشرة، فمن المقرر ان ايجاد قوى جديدة للتنمية متلازم دائماً مع تخفيض موارد الضرائب الى حدودها الدنيا، بالتوازي.

و – نحن بحاجة الى مهندسين وأطباء، وعلماء وكيمائيين، لا اساتذة وباحثين نظريين – نكروما – اما التعليم الابتدائي التقليدي فقد حل محله التعليم الابتدائي التكنولوجي، لتوفير اليد الفنية منذ الحداثة.

ز – لا يقضم ارتفاع الاسعار، ارتفاع مستوى المعيشة، والا فان الخطة الاقتصادية الاجتماعية الانسانية تذهب هدراً.

الاشتراكية الاخلاقية

لخصنا بعض الاهداف المادية للاشتراكية الافريقية التي يطلق عليها – كما سبق وقلنا – بعض الأنصار والتلامذة في غانا اصطلاح (النكرومية)، تمجيداً

لمؤسس الدولة الجديدة كوامه نكروما. وفيما يلي بعض ملامح هذه الاشتراكية، على الصعيد الفلسفي والأخلاقي، كما شرحها بعض النكروميين، وابرزهم (كوفي باكو) رئيس مجلس النواب، ووزير الدولة للشؤون البرلمانية.

وصف النكروميون (الاشتراكية الافريقية) التي اسسها وطبقها نكروما، بأنها (فلسفة اشتراكية غير الحادية)، تهدف الى تطبيق الافكار الاشتراكية المعاصرة، في حلول المشاكل القائمة، من اهلية وعالمية تطبيقاً يوائم بين هذه الأفكار، وحقائق الحياة اليومية، بمعنى انها اشتراكية موضوعة للظروف الخاصة بأفريقية.

ولعل اهم هذه الظروف الخاصة: رزوح الاستعمار امداً طويلاً، استغلال الثروات الطبيعية استغلالاً اقطاعياً، التمييز العنصري الذي فرضه وجود الاستعمار الابيض، رسم حدود صنعية بين الشعوب، الاقطاع، القبلية،... الخ..

فلا بد اذن من البدء من نقطة التصدي لجميع ما خلفه الاستعمار من عاهات وانحرافات اجتماعية ونفسية وسياسية، لا يمكن ولا يجوز التصدي لها من جانبها المادي الاقتصادي، وإهمال جانبها الذهني والروحي. فالنكرومية، من حيث هي اشتراكية غير الحادية ــ تؤمن بمثالية المبادىء التي نادت بها جميع الأديان السائدة في افريقية من اسلامية ومسيحية وبوذية، وتعمل على ابرازها في الحياة العامة وتداولها. « فالنكرومية ليست ديناً ولا جاءت لتحل محل أي دين » ــ كوفي باكو ــ انها تنظيم اجتماعي اخلاقي ضد النزعة الاستعمارية ــ فرضها او قبولها على السواء ــ وضد القبلية، والتجزئة على النطاق الافريقي ــ البلقنة ــ من اجل الحرية، والكرامة الانسانية، والعدل الاجتماعي والوحدة الافريقية.

وان تكن ممارسة الحرية الدينية، مقررة نظرياً وعملياً، فان الدولة تفرق بين ممارسة الشعائر الدينية، وبين ممارسة السياسة الدينية، بمعنى انها تمنع تأليف الحزب او الجمعية على اساس ديني، تحت اي حجة من الحجج الاخلاقية او الاجتماعية. وان هذا الحظر، هو من صميم الاخلاقية النكرومية، التي قد يرميها البعض بأنها اشتراكية غير دينية، بينما هي تقر بأن

الالحاد غريب عن افريقية كلها ، (والاديان هي في اساس ثقافتنا) ـ كوفي باكو ولكن الدين يجب ان ينزه عن الاستعمال السياسي اليومي بالممارسة الحزبية الشائعة في اوروبة .

ومن هنا تريد النكرومية ان تؤكد عدم (مذهبية)الاشتراكية الافريقية، بمعنى انها ليست فلسفة شاملة ، وعقيدة ذات فروض وطقوس ، إنهــا مجموعة مواقف عملية ، من شانها ان تساعد المواطن الافريقي في مجابهة مشاكله الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية التي فرضها الاستعمار على القارة . وان تكون ـ الأشتراكية الافريقية تنطلق من القاعدة الماركسية بأنه يجب تجريد رأس المال من سلطته الاجتماعية ، ووضع السلطة بيد الشعب ، عبر الدولة ، فان ذلك يجب ان يتم بالأساليب العقلية الافريقية ، على اعتبار أن النظام الاجتماعي الافريقي التقليدي، هو بالاصل نظام جماعي «يعيش فيه الجميع مع الجميع ، والجميع للجميع» . وان نظاما يعمل منذ البدء ، على ردم الفروق الاجتماعية وعدم السماح بالتميز الاقتصادي والاجتماعي ، من شأنه ان يقيم النظام السياسي على اساس من الوحدة الوطنية ، لا الصراع الطبقي .

أدوات التنفيذ الاشتراكي

ان أدوات التطبيق الاشتراكي في غانا ، التي تؤلف بمجموعها الدولة هي ثلاث : الحزب ، والتنظيم النقابي ، والخطة .

١ـ وقد تكلمنا عن الحزب في حديث سابق ، ولخصنا مبررات التفرد الحزبي ، وكان أهم ما قام عليه الحزب ، كما يرى النكروميون ، بعد إلغاء مبدأ المعارضة ، ونفي المعارضين ، أنــه حزب صارع الأحزاب الأخرى ، صراعاً برلمانياً حراً ، خلال سبع سنوات ، وتغلب عليها بحصوله على اكثرية أصوات الناخبين ، حصولاً بلغ قمة الاجماع تقريباً عام ١٩٦٠ . وإن شعبية الحزب ، تبرر تفرده بالسلطة (*) وقد عرضنا الرأي ، وناقشناه .

٢ـ أما التنظيم النقابي ، فقد افردت له الدولة الثانية النكرومية ، عناية خاصة ، يكفي لتقديرها أن نعلم بأن نواة الحزب قد تألفت في الخلية النقابيــة عندما عزم

(*) جولة الشهر — العدد ٣٩ — من المعرفة .

الرئيس نكروما على خلق تنظيم سياسي غير تقليدي في تاريخ النضال السياسي.

وللنقابية الافريقية في غانا مظهران بارزان : الاول أنها جزء من حركة الحزب غير منفصلة عنه . « والنقابات كما يقول نكروما — مندمجة ، على المكشوف بالحزب ، وهي تؤلف خلية من خلاياه..»

والثاني أن التنظيم النقابي ، انما صمم وبني، على أن يكون اتحاد النقابات الغاني، جزءاً من الاتحاد العام للنقابات الافريقية. وهذه هي القاعدة الاولى، كما يرى نكروما، لتحقيق الوحدة الافريقية . ان استمرار النضال ضد الاستعمار الجديد ـ الذي يدخل اليوم الى افريقية من الباب الخلفي باصطلاح نكروما ـ وهو استعمار اقتصادي، يجب أن تمد له النقابات العمالية كقوة دفاع افريقية ناجعة. اذ ان بعض المجتمعات التي لا يسود فيها التنظيم العمالي ، قد رضخت للاستعمار الجديد ، الذي غرر بقادتها ووفق مصالحه ومصالحهم ، بحيث لا يشعرون بحقيقة الخطر الجديد بل انهم ليتجاوزونه الى التعاون معه.

ويتصور الرئيس نكروما وجه الاتحاد الافريقي العام للنقابات ، وجهاً مشرقاً نوره من داخله ، لا من كوكب خارج عنه ، كاتحادي العمل والنقابات العالميين التابعين للمعسكر الغربي والمعسكر الشرقي . حتى ان المنظمة النقابية الافريقية الوحدوية لا تقف عند استقلاليتها عن القطبين المتنازعين بل تتجاوزهما الى الاتصال بالطبقة العاملة ومنظماتها ، على نطاق عالمي ، تأكيداً لافريقيتها ، وانسانيتها معاً .

٣ـ وثالث الأدوات لتحقيق الاشتراكية الافريقية في غانا ، هي الخطة . والخطة كما اوضحها الرئيس نكروما ، يمكن تلخيصها بما يلي :

أ ـ كان محور الخطة الخمسية الأولى ، التي اطلقت عام ١٩٥١ ـ تطوير مرافق المواصلات ـ بحرية وجوية بصفة خاصة ـ والاشغال العامة ، والتعليم ، والخدمات العامة . وكان مرسوماً للخطة أن تكون الى جانب ذلك ، خطوة تمهيدية في طريق التصنيع .

ب ـ كان التصنيع ، هدفاً رئيسياً، في صميم الخطة الخمسية الثانية « وكان من المقرر من وجهة مالية ، أن المواطنين الذين يرغبون في توظيف أموالهم ، باقدام ، في

مشاريع التنمية الصناعية ، سيغنمون مغانم توازي اقدامهم .. »

ومن ابرز أهداف المشاريع الضخمة المرافقة للتنمية الصناعية كمشروعي استثمار مياه (الفولتا) وانشاء مرفأ (تيما) ، ليس توسيع القاعدة الصناعية فحسب ، بل كسب الخبرة العملية والنظرية ، عبر تنفيذ هذه المشاريع . « فاذا لم تتح الفرصة لمواطنينا ان يتعلموا ويتقنوا عملهم في مكانه ، كما يعمل ويتقن الخبراء الاجانب ، فسنبقى أبداً في تخلف . . » نكروما .

التخطيط الانمائي والوحدة الافريقية

لعب الرئيس نكروما دوراً أولياً في الدعوة الى الوحدة الافريقية ، والعمل في سبيلها ، عبر عدة محاولات ومؤتمرات واعلانات سياسية مشهورة ، كان اولها اجتماع الدول الافريقية المستقلة في مؤتمر (اكرا) العاصمة الغانية عام ١٩٥٨ ، ولم يكن عدد الدول المستقلة ليتجاوز الثمانية : مصر ، غانا ، السودان ، ليبيا ، تونس ، ليبيريا ، مراكش واثيوبيا .وقد سبقت هذا المؤتمر محاولات عدة ، على صعيد الوفود الشعبية ، وممثلي المنظمات السياسية النضالية ، تجتمع في عواصم اجنبية ، وتقصر جهودها على اصدار البيانات ، في موضوع التعاون الافريقي ، والدعوة الى نوع ما من انواع العمل المشترك .

ويعتبر نكروما بين القادة الافريقيين الاكثر حماسة لفكرة الوحدة الافريقية والدعوة لها ، والمبادرة الى تحقيقها ، بصيغ مختلفة من الاتحادات ، الثنائية ـ غانا وغينيا ـ ١٩٥٨ ـ والثلاثية ـ غانا وغينيا ومالي ـ ١٩٦٠ وهو مؤمن بأن تحرير افريقية وتوحيدها يتم أحدهما الآخر ، بأي منها كان البدء والمنطلق . وأن لا تنمية حديثة ممكنة في افريقية ، الا في مدى عمل افريقي وحدوي ، سياسي واقتصادي . وفيما يلي سنلخص آراء الرئيس نكروما في مقومات الوحدة الافريقية وضروراتها ، وقد نعود في معالجة تالية الى تفصيل مالخص :

١ ــ برغم التجزئة التي فرضها الاستعمار اعتباطاً على وحدة الارض الافريقية ، وبرغم تعدد اللغات واللهجات ، والأديان ، على الصعيدين الوطني والقبلي ،

معاً ، وبرغم ماخلفت هذه العوامل من آثار في تكوين ثقافة متشردة ـ فانني مقتنع ـ يقول نكروما ـ بأن القوى التي توحدنا ، تزيد في الكفة على القوى التي تفرقنا .

ان كون الافريقيين قد عانوا تجربة واحدة في ظل الاستعمار ، عامل من عوامل الوحدة . كذلك فان الهدف المشترك الذي يجمع الافريقيين حوله ، طلباً للحرية ، هو عامل من عوامل الوحدة ـ وثمة ماهو اعمق يقول نكروما ـ وراء نشداننا التجمع السياسي ، هو « شعورنا بوحدتنا كافريقيين » وقد عبرت الدعوة الى الوحدة الافريقية ، عن هذا الشعور العميق ، اكثر من مرة ، ومنذ اواخر القرن التاسع عشر ، عندما كانت السيادة الاستعمارية في أوجها . وقد شعرت اوروبة عبر مثقفيها الكثيرين ، بدخول (الشخصية الافريقية) في حركة التاريخ الانساني الجديد منذ طلائع القرن العشرين . وان يكن التعبير الافريقي ضعيفاً في بدء ظهوره ، كأن يطلب ممثلو المستعمرات الافريقية المجتمعون في باريس عام ١٩١٩ على هامش مؤتمر الصلح ، حماية الانسان الافريقي ـ ان يكن هذا التعبير ضعيفاً حقاً ، فقد كان الاصبع التي أشارت الى ضلال الرجل الابيض في محاولته سحق الوجود الافريقي فالتفت اليها العالم . ولنا ان نقدر هنا ، تلك القفزة الواسعة التي حققتها القضية الافريقية خلال اقل من اربعين عاماً منذ استجداء حماية انسانية ، الى فرض قوة بشرية هائلة على سياسة العالم ودخولها باقوى من الصواريخ في مدار المصير الكوني .

٣ ـ إن حوافز الوحدة الافريقية لا تقتصر على هذا الجانب الشعوري العاطفي وحده ، بل تتعداه الى ما هو اوضح للرؤية وأقرب من الواقع اليومي ، وهو الجانب الاقتصادي اللاصق لصوقاً ملازماً بسياسة مكافحة التخلف ، وارادة التقدم .

ان مصطلحات (البناء الاشتراكي) و (الاستقلال الاقتصادي) و (التغلب على التخلف) ، و (الوحدة الافريقية السياسية) ، يلازم بعضها البعض الآخر في ذهن الرئيس نكروما ، حتى لتبدو في المدى القريب او البعيد مراحل ، واهدافاً معاً ، وبرغم ان الدولة الثانية ،

في ممارسة الاشتراكية التطبيقية ، قد دعت الى التعاون مع شتى ضروب رأس المال ، من وطني ، الى اجنبي حكومي ، وأهلي ، لهدف عاجل واحد هو بسط القاعدة الواسعة لقفزة التنمية الصناعية ، فقد كان القائد الافريقي يود لو أن الدول الافريقية الصغيرة استغنت عن كل مدد اجنبي لتنهض بعبئها عن طريق وحدتها وحدها . لأن الثروات الطبيعية ، المتوافرة في افريقية ، حتى على ماهي عليه الان من استغلال بدائي او اعلى قليلا ، تؤلف من الانتاج العالمي نسباً مئوية جيدة * تؤهل افريقية لأن تنفق على تصنيعها وتمصير اقتصادها ، ضمن خطة مرسومة على مستوى قاري ، دونما حاجة كبيرة الى استمداد العون الخارجي ، بالتملق السياسي ، أو بالخضوع السافر ، أو بالمحالفة غير المتكافئة .

مثال ذلك ان يصر الرئيس نكروما ، وقادة آخرون من آسية وافريقية على أن السوق الاوروبية المشتركة هي صورة لواقع الاستعمار الجديد . بمعنى ان العون الذي تمنحه او تعد به الدول الصغيرة المشتركة في السوق ، ليس سوى الاستمرار في حفر الهوة بين الدول المتقدمة ، والدول المتخلفة . « اذ كل دولة تسلم نفسها للسوق الأوربية إنما تحرم نفسها من امكان عمل مستقل ، انها تفوت على نفسها فرص التجارة الرابحة وتجميع رأس المال حيثما تختار . بالاضافة الى ان الانتساب للسوق انحياز سياسي سافر ، لأن المنظمة الاوروبية ، مرتبطة بالحلف العسكري الغربي ، الذي هو بدوره سلطة سياسية عليا ، وقفت ضد كثير من محاولات تحرير افريقية ووحدتها . وبهذا يغدو الانتساب البريء للسوق ، خيانة لقضية الحرية . وان الدولة الافريقية التي توالي السوق ، لقاء نفع عاجل ، انما تكون قد باعت افريقية بصحن من حساء تافه ..!

(*) مثلا : ٩٦ ٪ من انتاج الماس العالمي . و ٦٩ ٪ من انتاج الكوبالت ، و ٦٣ ٪ من الذهب و ٣٧ ٪ من المنغانيز و ٣٤ ٪ من الكرومات والفوسفات ، غير الانتاج الزراعي الذي يبلغ بعضه نسباً مرتفعة مثل الكاكاو وزيت النخيل ، والمطاط ، والتبغ ، والشاي . وغير الوعود الغزيرة بالبترول والفحم والحديد – مما ظهر بعضه للعيان ، وآخر يرتقب السير العلمي المركز .

ان الدولة الافريقية التي تدخل السوق، تكون باصطلاح نكروما قد اختارت (بحرية) العودة إلى النير الاستعماري. وان القوة السياسية العليا التي كانت من وراء تخلف الدولة الافريقية هذه، ستبقى تلك القوة التي لم يتبدل هدفها في التربع دائماً فوق حالة ما من التخلف، بسيطرتها على السوق الافريقية، وبتحكمها باسعار شراء موادها الاولية من جهة وبيع انتاجها الصناعي والغذائي، من جهة ثانية. ان الاستقلال الاقتصادي المرموق، يغدو في ظل الاستعمار الجديد خرافة. وا كثر من ذلك فان وحدة العمل الافريقي المشترك، ستصاب بالتمزق وهي بعد في التشكل، بمجرد ان تنقسم الدول الافريقية، الى فريقين: فريق يأبى المساعدة تحت شروط ظالمة وفريق ينشد المساعدة العاجلة لقاء منافع لاتلبث ان تؤول الى خسارة فادحة. ومن ثم تنشأ الشادة السياسية التي كانت وما زالت، منفذ الاستعمار الى السيادة والتسلط، وان اعراض هذا التمزق قد ظهرت للعيان ليس في معركة الكونغو فحسب بل في عدة مؤتمرات وتجمعات، لاتزال الارادة الافريقية المشتركة تحاول التغلب عليها، في صراع سافر مع الاستعمار القديم صاحب الاستعمار الجديد.

ان سوقاً افريقية مشتركة، هي البديل الصحيح الذي يحل محل السوق الاوروبية المشتركة في دعوة نكروما. فالسوق الافريقية تفرض قيام سياسة اقتصادية واحدة، في التجارة الداخلية والخارجية على السواء، فاذا حسن لدى المتسوقين الاوروبيين ان يتحدوا ليتعاملوا مع مموّنيهم في افريقية فأولى بالافريقيين انفسهم أن يتجمعوا لنفس الغاية الواضحة، وهي تنظيم بيوعهم، وتحديد اسعارهم. ولعل اهم اهداف السوق الافريقية، هو القضاء على المنافسة بين الافريقيين التي تمكن الاوروبي من فرض اسعاره بدلاً من ان يفرض الانتاج الافريقي في ظل سياسة اقتصادية اسعاره على المشترين (ان غانا ونيجيريا - يقول نكروما - تنتجان خمسين بالمئة من انتاج الكاكاو العالمي، لكننا نبيع انتاجنا حتى الآن بالمنافسة).

ولو استطعنا ان نبيع بالتوافق ، لاحبطنا حضارية الخصم في ان يلعب بنا معاً ، احدنا ضد الآخر .)

ويقول مؤكداً نظريته وبالأصح نظرته الى واقع افريقية في هذا العصر :

« ان تقدم العلوم ، وما يتبع من تقنيات جديدة ، وتطور مستمر في اساليب الانتاج والادارة ، مع ما يزى من حقائق اقتصادية تميز النصف الثاني من القرن العشرين ، **ان ذلك كله يتطلب وحدات جغرافية واسعة ذات موارد طبيعية متنوعة ، وكثافة بشرية شديدة**، لكي يتم الحصول على اكبر قدر من مغانم العلم ، وتطور اساليب الانتاج . والشعوب التي تتميز بطاقة سكانية كثيفة ، ومساحات واسعة من الارض هي الاكثر قدرة من سواها على تصنيع نفسها . »

ولا ينسى القائد الافريقي ان يشير الى ظهور الكتل العالمية الضخمة ، كالولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفييتي ، وكيف اصبحت تجر وراءها الدول الصغيرة اجراما صغيرة تسبح في افلاكها ، ولا ينسى ان يذكر في الوقت نفسه ، بأن تكتلاً ضخماً مماثلاً يمكنه وحده ان يقف على قدميه دون الانجراف نحو احدى القوتين الجاذبتين . ويضرب مثلاً بالصين الشعبية التي قبلت ان تحمل عبء التحدي ، وتخوض مغامرة الطموح الاستقلالي ، اللا تبعي حتى ازاء دولة تجمعها اليها اقوى روابط الايديولوجية والهدف العالمي المشترك ولولا أن الصين ذات ثروة بشرية لا تضاهى فوق بقعة جغرافية واسعة ، غنية زاخرة ، لما استطاعت أن تؤكد استقلاليتها ، وطموحها . من اجل هذا - يقول نكروما - ترفض الولايات المتحدة قبول الصين الجديدة في الامم المتحدة ، ومن اجل هذا يحسب الاتحاد السوفييتي للصين حساباً كبيراً .. !

ويستشهد الرئيس نكروما بالكاتب الامريكي اوليفر كوكس في مقال له تحت عنوان: (عوامل التنمية في الدول المتخلفة) جاء فيه :

« لعل الاتحاد السوفييتي ، والصين وربما اندونيسيا ، هي وحدها بين الدول المتخلفة ، التي تملك من الثروة البشرية والطبيعية ما يمكنها من خلق اقتصاد (اشتراكي) ناجح . أما بقية البلاد المتعزلة ، في افريقية ،

وامريكا الجنوبية بله الدول الاخرى ، مثـــل كوريا الجنوبية ، وفورموزا ، والباكستان ،وفيتنام الجنوبية،ولاووس، وكامبودج ،والاردن،وليبيا،ومراكش، وتونس ، واليونان ، وتركيا ، وجزر الانتيل ، فهي دول محدودة جداً.. ينتج عن ذلك ان في العالم اليوم حركة خفية باتجاه التجمع الاقليمي — ليس التجمع الذي تدفع اليه المواثيق والأحلاف في العالم الرأسمالي — بل التجمع الاقليمي الذي يقوم على التماثل والتعاون الاقتصادي والثقافي .. »

والخلاصة فان القائد الافريقي الغاني ، يرى أن الاتجاه العام نحو التجمع الاقليمي ، مبعثه عاملان اساسيان :

الاول — ان الوحدات الصغيرة لامكان لها في التاريخ الحديث ، من حيث ممارسة السيادة ، والفعل في الحدث التاريخي .

والثانية — أن الخطة الاقتصادية على النمط الاشتراكي ، عمل سياسي واجتماعي معقد ، شاق ، وطلاب ، لايمكن ان يستقيم الا بكثير من الضبط والدقة ، مع روح الاقدام والمغامرة ، ناهيك عن ضخامة تكاليفه وشدة طموحه في التغلب على التخلف ، خلال مراحل قصيرة من العمل والزمن . وكل هذا ليس في طاقة المجتمعات الصغيرة، والوحدات البشرية المنعزلة ، النهوض به ، والتنطع له .

سنعود في جولة العدد القادم الى القاء نظرة عاجلة على محاولات الوحدة الافريقية، واهدافها ، وما آلت اليه هذه المحاولات .

